كتاب

قبائل الصحراء المغربية

- أصولها
- جهادها
- ثقافتها

تأليف

الدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين



المطبعة الملكية ـ الرباط

1419هـ ـ 1998م

كتاب

قبائل الصحراء المغربية

- أصولها
- جهادها
- ثقافتها

تأليف

الدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين

المطبعة الملكية - الرباط
1419هـ - 1998م



صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

كتاب

قبائل الصحراء المغربية

- أصولها
- جهادها
- ثقافتها

تأليف

الدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين



المطبعة الملكية. الرباط

1419 هـ - 1998 م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على النبي الكريم، الذي أبلغنا عن ربه العلي العظيم، قوله جل من قائل:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

هذا وإنه سيراً في منهج هذا التوجيه الرباني الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ سنحاولُ كتابة لمحة عن تاريخ قبائل الصحراء المغربية ، متمسكين بالصدق في الوصف والتجرد من أية حساسية أمام تحليل الظاهرة التاريخية ، مع أننا سنسجل ما وصلت إليه طاقتنا من معلومات عن تلك المجموعة من هذا الوطن ، التي اتسمت بشيم أخلاقية فاضلة ، وقيم إسلامية متوارثة . والحقيقة أن تاريخ هذه القبائل يجمعه في كثير من أوصافه قاسم مشترك واحد فيما يخصه عند تحليله جهويا ، ثم كذلك له ارتباطاته القوية والمتداخلة مع تاريخ بقية قبائل الوطن ، وهذا يُصَعِّبُ مسؤوليةَ كل من تعرض للكتابة عن تلك القبائل ، لأن فرز جهة معينة عن بقية المسار الحضاري للوطن يَصعبَ تحديده بدقة ، فصرْح الحضارة الشامخ الذي ورثناه على عظمته تضافرت فيه جهود الجميع وعلى امتداد عشرات القرون من الزمن ، ولذا فليس بإمكان الباحث أن ينسب عطاءات أمَّة لبعض سكانها ، وليس من الإنصاف أن يفصلهم عن المساهمة فيها .

لا نستطيع في هذا العرض الموجز أن نلم بكل الملاحم والتضحيات والعطاءات العلمية لكل قبيلة ، فذلك عمل موسوعي يحتاج إلى وقت طويل وتفرغ كامل واتصالات أوسع داخل الوطن وخارجه ، وأيضا استقصاء آثار الكتب والمجلات التي تكلمت عن ساكني هذه المناطق التي نالت من المحاولات الأجنبية والكتابات الأوربية حصة كبيرة لا بد أن يقف عندها التاريخ مُمَجِّداً لمختلف تلك السلالات التي ستكونُ موضوع هذا الكتاب ، فكلما طال بنا المطاف وقَرَّبَنَا البحث من دراسة الظاهرة الاجتماعية لقبائل الصحراء المغربية يفعم مشاعرَنا فيض من التقدير لسلالات تَجَاذَبَها شحُّ الطبيعة وكثرة أطماع الظامئين إلى الاستيلاء على المناطق التي ظلت مضارب أحيائهم يتوارثون حمايتها خلفا عن سلف ، فما وهنت إرادتهم ولا ضعفت شوكتهم حتى تكسرت على إرادتهم التي لا تقهر أحلام الطامعين ، فأصبح ما اكتسبوه من خصال المجد وسجلات المفاخر جدير بأن يكتب بماء الذهب ضمن سجلات الخالدين ، وإسهاما في إبراز بعض تلك الإنجازات نقدم هذه اللمحات لا كدراسة تطفئ ظمأ المهتمين بدراسة تاريخ الجنوب المغربي ، ولكنها لا محالة ستضيف لبنة لاكتمال تقديم المعطيات الأولى لكتابة هذا الجانب من تاريخ الوطن الذي يظل يستحث أبناء كل جهة لتقديم ما لديهم من معلومات حتى تكتمل مواد كتابة الموسوعة التاريخية .

وحتى نتمكن من ضبط تناولنا لمختلف جوانب هذه المحاولة ، فسنقسم هذا الكتاب إلى تمهيد وأربعة فصول :

نتناول في الفصل الأول الأصول العامة لسكان المغرب وما هي البطون التي انتقلت إلى الجنوب ، أما الفصل الثاني فسنتناول فيه المميزات الاجتماعية لكل قبيلة ، والفصل الثالث سنتناول فيه دور تلك القبائل في الدفاع عن الوحدة ضد الغزاة ، وسيكون الفصل الرابع مخصصا للحياة الثقافية لتلك المجموعات ؛ هذا وإن ءافاق التصورات والتطلعات تتشعب عبر الدراسات التي لا بد لها أن تلائم بين الحقائق المكتوبة ، أو التي يمكن للكاتب على الأقل أن يتملص من عهدتها بنسبتها إلى من سبق إلى تدوينها رغم عدم الاقتناع بجدية كلها ، ودون إمكانية الحكم ينفي جميع تفاصيلها ، بين هاته وبين تلك الحقائق التي يمكن للكاتب أن يتعرف عليها من خلال جملة من الحكايات الصحيحة ، ولكن الإبداع الخيالي لعبها أثناء مرورها إليه عبر ذاكرة الأجيال المتعاقبة ، إذا لاحظ الكاتب بعض التناقض أو الثغرات فلا يستطيع مناقشتها لصفة القداسة التي تحتلها في نفوس من يعنيهم أمرها .

كما تبرز صعوبة أخرى منهجية تتجلى في صعوبة تمحيص المواضيع المختلفة بعضها عن بعض ، إذ تصله حكايات تمزج بين التاريخ النضالي والاقتصادي وغير ذلك من مختلف صور الحياة الاجتماعية ضمن حكاية واحدة بنيت بناء قصصيا يصعب فرز بعضه عن بعض ، فهل بإمكان الكاتب الاجتهاد حتى يميز المواضيع عن بعض بأسلوب لا يخل ببناء القصص التاريخي الذي تلقاه من ذاكرة من لا يقبل تحريفه أو تغييره ، وحتى هل يمكن أن يملك نفسه حتى يطلع على ما

على ما افتقده من قصته في المكان الذي يلائمه ، وإذا تمكن من ذلك حسب استيعاب أخبار الظاهرة الاجتماعية عبر التفاعلات التاريخية ، فهل كل ما يصله منها هو صالح للنشر ؟

وتبقى أهم الصعوبات تكمن في الكتابة عن المجتمعات البدوية التي لا تستقر لديها مكاسب الحياة مثل ما تستقر في المدن ، بسبب مؤثرات التحول الذي يحدثه التعرف على المجهول ، وخصوصا إذا حمل لإيجابيات أكثر من المكاسب المتوفرة لدى صاحبه .

إذا حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة فسيسوقنا ذلك إلى الإسهاب في سرد كثير من التحليلات والمقارنات التي نتساءل هل نملك أداة تمكننا من الإحاطة بكل احديتها ، من مقارنة توصل إلى استكناه مختلف المعطيات التي شكلت مادة هذا الموضوع خلال الفترات السابقة ، وأيضا لا بد من الإشارة إلى أن المقولات المحفوظة في الذاكرة إذا كان تعاقب الأجيال لا بد أن يكون أحدث فيها تضاربا يجعل كثيرا من أدلة ما نكتبه تقريبية ، فإن ذلك لا ينقص من أهمية تلك الحكايات لما تقدمه للكُتَّاب من معطيات هامة تجعلهم قادرين على استخراج الحقائق من أعماق التاريخ المنسي إن لم نقل المجهول ، فتقع عليهم مسؤولية منهجة تلك الوقائع التي مرت إليهم من خلال تفاعلات اجتماعية نتجت عن توجهات بشرية متناقضة ، حتى انها تسببت في كثير من المواجهات الدامية ، وعلى كل من أراد الإلمامَ بالتاريخ الحَقيقي للمنطقة أن يَتعرَّضَ إليها ، إلا أننا

نحن هنا سنتحاشى كثيرا من تلك الوقائع التي تتحدث عن صراعات يكاد لا يخلو منها سكان أي بلد ولا يفيد ذكرها الأحفاد اليوم سوى إحياء بعض الضغائن ، لذا فإن وجهتنا في هذه الدراسة ستميل شطر رصد مميزات مختلف الشرائح الاجتماعية وما وحدها من مؤثرات خارجية أهمها مواجهة التسللات الاستعمارية .

وقبل أن نبارح هذا التمهيد لا بد من الإشارة إلى صعوبة محاولة فصل جزء من تاريخ وطن كامل بالكلام على جهة منه ظلت مندمجة في مجرى حياته العامة ، فالمدرسة واحدة ، والمنهاج الدراسي واحد، والاهتمامات موحدة، والكفاح مشترك، والسلطة المركزية واحدة ، لذا فإن الوقائع الجهوية سيكون ما يستحق أن يذكر منفردا منها قليل جدا ، مع أنه لا بد أن تبقى تسيطر عليه تداخلات التاريخ العام للوطن ، اللهم ما كان من بعض الصراعات المحلية والعادات الجهوية ؛ وأخصب مادة يجدها الكاتب أمامه في أقاليم الجنوب هي استعراض سجل الكفاح الوطني عبر التاريخ ، ولعل هذه الملاحظات ساهمت مساهمة فعالة في الحفاظ على الوحدة الوطنية بشريا وأرضيا ، فمحاولة إنشاء الذاتية التي حاولها الاستعمار طيلة وجوده بالمنطقة ، وخصوصاً منْ بداية الخَمسينيّات عندَما أصْبَحتْ بوادر محاولة التقسيم تلوح في أفق العمل السياسي بغية تقطيع جغرافي يعتمد على تمزيق الانتماءات القبلية ليجعل منها أداة صالحة لتحريك أي صراع يمكن أن يساهم في خدمة مصالح الدول التي كانت مسيطرة استعماريا بعد أن اختفى

وجودها الفعلي مخلفا ثوابت أساسية لا تنفك تخدم مصالحها البعيدة مثلما وقع في المشرق العربي من خلال التقسيمات التي وضعت إبان الحرب العالمية الأولى ، ظلت تلك المحاولات هنا في الجنوب المغربي كانت تجد الحاجز الواقي من تنفيذها في استمرار الصِّلات المستمرَّة بين قبائل الصحراء وأصُولها الأولَى داخلَ الوطن المغرب ، وبذلك أفشلت مخطط التمزيق الذي هيء من أجل تمكين المستعمرين القدامى من تحريك خيوط أي صراع في الظرف الملائم لصالحهم وما تعاطف كثير منهم مع حركة الانفصال إلا بكَاءُ على أطلال هذا المشروع الذي اجتمعت إرادة كل مكونات الوطن لإفشاله .

الفصل الأول :

مختلف أصول سكان الصحراء المغربية وحياتهم الاجتماعية

في هذا الفصل نرى أنه من الواجب علينا رسم صورة توضح الخريطة العامة لسكان منطقة شكلت أهمية بالغة خاصة خلال القرون الأربعة الماضية عندما اهتمت بها الإرساليات الأوربية سواء كان أصحابها مبعوثين من طرف دولهم أو قدموا من تلقاء أنفسهم لممارسة التجارة ، وما شَكَّلَ ذلك من حفز السكان على التصدي لهم وكبح جماح تطلعاتهم ، فصدوهم عن تلك الأجزاء المغربية التي إذا لم تكن أكثر إغراءاً من غيرها فإن لعاب المهتمين باستعمار المغرب ظل يسيل عليها ، إما لإدراكهم أنها بوابة مهمة سيمكنهم الاستحواذ عليها من السيطرة على جميع التراب المغربي ، وإما لكونها تختزن كثيرا من مكامن الثروات الحيَّة والتي ما زالتْ لمْ تُستخرَجْ بعدُ . ومَهما يكنْ من أمر فإنَّ المحاولاتِ الأوربيةَ أيقظتْ الضميرَ الوطنيَّ عندَ جميع السكان ، فمكنهم ذلك من مد تاريخ الكفاح الوطني بملاحم ستظل منارة مشعة في بطولات الشجعان المخلصين . وحتى نتمكن من التعريف بتلك البطولات ومن شيم صانعي تلك الملاحم فسنحاول في هذا الفصل التعريف بمختلف السلالات التي انحدرت منها تلك القبائل ، وكيف قدمت على الصحراء وطرق وصولهم إلى المغرب ، ولمعرفة الحقيقة لا بد أن نتقصى ذلك في أمهات مصادر التاريخ .

المبحث الأول ـ أصل قبائل الصحراء

لقد شكلت قبائل الصحراء تداخلا بين مختلف سكان الوطن من الاخصاص شمالا وغيرهم من مختلف قبائل الشناقطة التي استقرت على الضفة الشمالية للنهر الفاصل بين الشقيقة موريتانيا والسينغال ، وللاندماج الذي حصل بين سُكان الصحراء من الگويرة إلى گلميم أصبحتْ لفظةُ الشناقطة تطلق على كل تلك المجموعة من سكان الوطن ، ابتداء من وَادي نون وحتّى نهاية حدود المغرب الطبيعية جنوباً .

وإذا كانت الأخبار المتواترة والوثائق القليلة التي عثر عليها تثبت كلها بأن هذه المناطق التي يطلق عليها اليوم الساقية الحمراء ووادي الذهب ، إضافة الى منطقة درعة ووادي نون كانت كلها مناطق تعمها الغابات والبساتين والمياه الجارية، مما جعلها تعرف حضارة كبيرة وازدهارا عظيما ، إلا أن الحكايات القليلة القائلة بهذه الظاهرة لم تحدد لنا مدة مضبوطة لذلك الرخاء ، والشيء المحقق أنه عتا عليها الدهر حتّى لفَّهَا في سجلات النسيان ، والأمل معقود على الاكتشافات الأثرية التي أصبحت يعثر عليها من حين لآخر مبشرة بخير لتحديد مُدَّة تلك الحضارات ومَنْ هُم أهلُها وما هيَ المدنُ التي استقروا فيها .

فإذا كان تحديد بعض المعالم الحضارية للفترات السالفة مُهِمّاً جداً فإن تحديدَ الأصول البعيدة للسكان أكثرُ منه أهمية ،

ولقد أكد جميع المؤرخين على أن نزوح السكان إلى الصحراء تم من الشمال إلى الجنوب وأنهم من سلالات شريفة إدريسية ، وفيهم بعض البطون العلوية - وهاؤلاء تاريخ وصولهم للبلاد مضبوط - وبعضُ السُّلالات الصنهاجية وجذوعٌ من زناتة ، وغيرهم من القبائل البربرية الذين وصلوا قبل الإسلام الى تلك الجهات ، كما انضمت اليهم جماعات من العرب وصلوا مع الفتح الإسلامي واستقروا في الشمال الشرقي للمملكة على إثر تأسيس إدريس الثاني مدينة فاس سنة 192 هجرية ، ونظرا لخبرتهم بشؤون الدين ومعرفتهم بلغة نصوصه ، وقدرتهم على التنقل ومراس التجاوب مع التحولات التي أحدثها الإسلام أهلتهم تلك الصفات للانتشار في مختلف الرقعة الإسلامية بأعداد مؤثرة ولو كانت قليلة ، فلنرجع للسجلات لتحديد السِّمات الحقيقيَّة لأصل البَربَر ، إذ تكادُ تُجمعُ أمَّهاتُ كتب التاريخ القديم أن أَصلهم من عرب اليمن نزحوا إلى الشمال الأفريقي في فترات قديمة جدا فتمكنوا من تأسيس حضارات حسب أزمنة متباعدة في هذا الجناح الذي سيصبح يعرف بالغرب الاسلامي .

فالمسعودي جعل البربر من قبائل غسان أو من لخم ، أما وصولهم إلى الشمال الأفريقي فقد نتج عن ءاثار السيل الذي حطم سد مأرب وما تبع ذلك من انهيار الحضارة التي تكونت على ضفافه ، وتيه قبائلها في البراري بحثا عن أماكن تجعلهم قادرين على الاستقرار من جديد ، والاشتغال بالمهن التي توارثوا تعاطيها بفضل ذلك السد ، وهذا الاحتمال أو القول

يترجمه إقبال هذه القبائل على تعاطي جميع أنواع الفلاحة سواء ساعدتهم الأرض على ذلك أم لم تساعدهم .

أما الطبري في تاريخه فذهب إلى أن أصلهم أجناس من العماليق والكنعانيين تفرقوا شذر مذر في البلاد بعد موت ملكهم العظيم جالوت ، كما يذهب إلى أبعد من هذا فيدعي أن ملكهم "افريقش بن صَيْفي" قد أطلقَ اسْمَه على القارَّة كلِّها .

أما صاحب الفتوحات الإسلامية وهو "الزَّيْني دحلان" فأرجع نسبهم إلى العرب ، ولكنه قرب زمنه عن تلك الادعاءات السابقة إذ ربطه بالفتح الإسلامي ، ابتداءاً من أيام الخلفاء الراشدين ، حيث تتابعت الفتوحات الإسلامية حسب قوله من ذلك التاريخ متجهة بالأساس نحو الشمال الأفريقي ، فكان كل زحف إلى الأمام يفرز نوعا من السكان يستقر في أحد الأقاليم التي وصل إليها ، ويَدَّعي في سياق هذا الاستنتاج الذي لم يوثق مصادره فيه بأن صنهاجة خرجت من اليمن أيام خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين وجههم في كتائب الجهاد إلى الشام ، ومنه زحفوا إلى مصر ، ثم إلى ليبيا ، ومنها إلى تونس ، فالجزائر ، ومنها إلى المغرب الذي توجهوا منه إلى الجنوب ليستقروا في أقاليمه الجنوبية كلها ، كما دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد ، علما بأن أحفاد الذين دخلوا إلى الأندلس رَجعوا أيضاً إلى المغرب عندَ سُقوط ذلك البلد في يد النصارى من جديد .

وتحدثنا المصادر المكتوبة والمحفوظة بالتواتر بأن بني حسان وبني هلال تمكنوا من الانتقال إلى جنوب المملكة المغربية خلال مراحل متفاوتة ، كما يجمع المؤرخون أنهم شيدوا حضارة بالصحراء المغربية ، ثم اندرسبت ولم يبق لها دليل إلا ما يكتشف من حين لآخر من بعض الآثار التي دلت الحفريات أنها تجسد معالم حضارات متعاقبة قسا عليها الدهر وأودعها في سجلات الاندثار .

ثم إن قبائل الجنوب المغربي شكلوا صلة وصل بين صنهاجة الجنوب الذين عاشوا على ضفاف النهر الفاصل بين موريتانيا والسينغال والذين غلبت عليهم تسمية الشناقطة ، فظلت تلك القبائل محافظة على عادات وأنماط من الحياة تنفرد بها من بين جميع سكان الوطن العربي ، كما ظلت معتزة بانتمائها المغربي وأصبحت تعرف بالملثمين ، ومنها انبثقت دولة المرابطين ، كما تأصلت فيها شيم الكرم العربي والنبوغ الأدبي وحفظ العهد وصدق الولاء للوطن ، وتنسبهم جل الحكايات الى حمير وبذلك يرتفع نسبهم إلى العرب العاربة ، ولعل اللغة التي يتكلمون بها تنبئ بانقراض أصولهم البعيدة . وتمسكهم بالانتماء العربي الذي ارتضوه لأنفسهم وتشبثوا به انتماء ولغة، مع الحفاظ على جميع المقومات الثقافية بما فيها اللهجة .

نحن هنا لا يهمنا تحليل الملامح العامة للبربر ولا اللهجات التي يتكلمون بها ، لكن نريد قبل مفارقة هذه اللمحة أن نستعرض بإيجاز ما أوردَه (الاستقصا) وغيرُه عن أصل ساكني الوطن من البرابرة الأماجد ، لأنه تعرض لمختلف أقوال

من سبقه من المؤرخين ، وكل تلك الأقوال تثبت أن أصلهم من العرب، وأنهم مروا في طريقهم على الشام، فأسند إلى ابن حزم القول بأن افريقش هو جدهم ، وأنه قدم بذويه من بلاد كنعان ، وأنه لما نزل بافريقيا قتل ملكها جرجير ، ويقال إنه هو الذي أطلق تسمية البربر على السكان الذين وجدهم أمامه لما سمع رطانتهم التي لم يفهم ، وينسبون إليه في ذلك شعرا قال فيه :

بربرت كنعان لما سقتها   من بلاد الضنك للخصب العجيب
أي أرض سكنوها ولقد   فازت البربر بالعيش الخصيب

وتقول هذه الرواية إن افريقش لما رجع ترك في بلاد المغرب حامية من قبائل حمير وصنهاجة، وهذا يؤكد امتزاج السلالات القديمة بالعربية وصهر بعضها بالبعض وتكوينها لأصل واحد ثابت .

أمَّا ابنُ عبد البرّ في كتاب (التمهيد) فأرجعَ نسبَهم إلى أبعدَ من ذلك ، إذ رجح القول القائل إنهم من ولد قبط بن حام ، ثم ذهب في نفس السياق إلى أنهم جذعان : البرانس والبتر ، وأن البتر من أبناء بر بن قيس بن عيلان ابن مضر وبهذا فهم من أقْحاح العَرب ، وحكَى البِكري أنه كانَ لمضر بن نِزار وِلدان: إلياس وعيلان ، أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو ، وكان من أحفاده بر ، وكانت قبائل البربر إذ ذاك تسكن الشام ممتزجين مع غيرهم من بني عمومتهم العرب الآخرين ، بصفة أصلهم جميعاً ما زال قريباً ، فنشأتْ فتاةٌ من أجمل نساء العالمين اسمُها البهاءُ بنتُ دهمان بن عيلان بن مضر وعلى خُلق عظيم

أدبا وعقلا ، فكثر خُطَّابُها من سائر قبائل العرب ، فقال أبناء قيس بن عيلان أبناء عمها ومن بينهم بر بأنهم لن يسمحوا بأن يتزوجها إلا واحد منهم ، فخيروها فاختارت " برا" وكان أصغرهم ، فحسدوه فلجأ إلى أخواله إذ أمه هي "تمريغ" بنت مجدل بن عامر ابن مصمود بن عيلان ، فرحلت إلى مضارب أهلها ءانذاك في فلسطين فولدت له ولدين : علوان ، ومادغيس الذي كان يلقب بالأبْتَرِ ، ومن ولده جميع زناتة ، وله أخت تسمى تماض فقالت تبكيه :

لتبك كل باكية أخاها　　كما أبكي على بر بن قيس
تحمَّلَ عن عشيرته فأضحَى　　ودونَ لقائه إنضاءُ عيس

وتقول فيه أيضا :

وشطت ببر داره عن بلادنا　　وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية　　وما كان بر في الحجاز بأعجما

ورجَّح (الاستقصا) بأنهم خليطٌ من كنعان وحام ، وأن أصولهم حسب أيِّ الأقوال رَجَّحْنا تَرْجِعُ في جميع الحالات إلى الجزيرة العربية .

المبحث الثاني ـ في الأصول المنحدرة من غير صنهاجة

تسللت إلى الصحراء المغربية قبائل أخرى يرجع نسبها الى بني هلال وبني سليم ، وسنتعرض إلى تحديد ما يهم بحثنا منها في مكان ءاخر . أما عن طريقة وصول هذين الأصلين الى المغرب فأرجعه ابن خلدون إلى القرن الخامس الهجري ، كما عزا هو وغيره أن قوة شوكة تلك القبائل حملت بعض الحكام على دفعها إلى الجنوب ، تارة بالترغيب والإغراء ، وأحيانا بالتهديد والإبعاد ، وقد استمر زحفهم من الشمال إلى الجنوب حتى وصلوا إلى الضفة الشمالية لنهر السينغال ، وإلى هذين الأصلين يرجع نسب جل القبائل التي يطلق عليها اسم العرب إذا استعملنا التقسيم السلالي الناتج عن توارث المهن والمشار إليه في مكان ءاخر من هذا الكتاب .

أما سكان المغرب قبل الاسلام فارجع ابن خلدون نسبهم إلى جذعين كبيرين هما : "برنس" و"مادغيس"وهذا الأخير لقب بالأبتر ، وناقش جميع الروايات التي تضاربت حول إرجاع نسبهم لأب واحد ، وخالف ابن حزم في ادعائه أنهم ينحدرون من أب واحد ، فعزا إلى نسابي البربر دون أن يسمي منهم أحدا بأنهم اثبتوا أن البرانس من نسل مازيغ ابن كنعان ، وأن البتر بنو بز بن قيس بن عيلان ، كما استعرض عدة روايات أخرى نسبتهم إحداها لليمن وأخرى نسبتهم لغسان ، وكل الروايات التي استعرضها عبد الرحمان بتفصيل مسهب لم تخرج البربر في أصولهم العليا عن العرب ، وفي رواية ثالثة

نسبـهم إلى لخم وجذام ، وتقـول هذه الحكاية إن منازلهـم كـانت بفلسطين ، كمـا ذكر قبل ، وقيل إن النعمـان بن حـمـير بن سبـأ كـان ملك زمـانه ، فـاسـتـدعـى أولاده وقـال لهم : أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره ، فمدَّ كلَّ مَنْ قَبِلَ بمال وجمال ، وقد كان هذا سبب نزوح أحياءٍ من لخم لهذا البلد .

هذه الروايات التي تعرض إليـهـا ابن خلدون في التـاريخ الكبير قد فند بها ءاراء الذين نسبوا البربر لغير العرب[1] . أما عن كثرة الروايات حول الأصول العربية التي ينحدرون منها فلا يثير تناقضا كما لا يثير تضعيفا لادعاء أصلهم العربي ، فقد يُمَكِّنُ من طرح عدة ملاحظات توضح الواقع من خلال تناقض عبارات الروايات المختلفة ، ومنها أن الهجرة يمكن أن تكون تمت على امتداد فترات متفاوتة ، كما يمكن أن يكون انتقل من كل بطن من البطون المذكورة جذع أو أكثر ، ويكون كل مؤرخ تكلم عن الأصول التي وصلت إليه أخبارها ، فالأرض واسعة والهجرة مشجعة ، وكل مهاجر يحب أن يحمي نفسه بعصبيته ، والذي يمكن أن نخرج به من نتائج من خلال هذه الروايات هو أن البربر يكاد يقع الإجماع على أن مختلف أصولهم عربية حسب أكثر الروايات وبناءاً على أيتها رجحنا .

وستكونُ لنا عودةٌ عندَ تعرُّضنا لمختلِفِ قبائل تَكنة وءاية باعمران، وكلهم منحدرون من الأصلين العربي والبربري، وكلهم استوطنوا الصحراء فرجعوا لنمط الحياة العربية، حتى أن منهم

1) التاريخ الكبير 6 : 93 بخزانة المؤلف ط. دار الملايين بيروت ـ لبنان .

من ترك الكلام باللهجة البربرية واعتاد على حياة الصحراء التي ظلت إلى عهد قريب تمثل نسخة طبق الأصل من حياة العرب القدامى ، فاندمجت قبائل تكنة مع غيرها من قبائل الزوايا ذات الأصل الصنهاجي وقبائل العرب المنحدرة من بني هلال أو بني سليم ، وكذلك من البربر بعض القبائل المنحدرة من الدوحة النبوية الشريفة ، وقد ابتعدت عن أصلها واندمجت في قبائل البربر الأخرى.

هذا وبعدَ أن استعرضَ عبدُ الرحمان ابنُ خَلدون جميعَ الأقوال المتضاربة حول نسب البربر ، عقب على ادعاء أبي عبد الله بن عبد البر في كتابه «التمهيد في الأنساب» الذي ادعى فيه أنهم من ولد قبط بن حام ، فقال إن نسابة العرب اتفقوا على أن شعوب البربر كلهم منحدرون من الأصول العربية ، فاورد بن خلدون كل قول من ادعاءات بن عبد البر فقال : والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان ابن حام بن نوح ، وأن اسم أبيهم مازغ ، وإخوتهم كاركيش وفلسطين ، ثم ذكر ما مضمونه أن أبناء فلسطين كانت بينهم وبين بني إسرائيل حروب بالشام ، وأن بني كنعان وواكريش كانوا شيعا "لفلسطين"وها هو التاريخ يعيد نفسه اليوم" وقال ابن خلدون فهذا هو المعول عليه والذي يجب أن لا يقع في ذهنك غيره ، فلا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر كلهم مُنحدرونَ من برّ المتقدم إلا صنهاجة وكتامة ، وأنَّ بينَ نسّابة العَرب خلافاً في أصلْهم البعيد ، والمشهورُ أنهم من القبائل اليمنية ، وأن افريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها .

وأما نسابة البربر فيزعمون أن في بعض شعوبهم مَنْ أصله عربي ، مثل لواتة يزعمون أنهم من حمير ، ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة ، وتزعم زناتة أنها من العمالقة فر أجدادها أمام بني اسرائيل ، ومنهم من يزعم أنهم من بقية التبابعة ، بينما تزعمُ غمارةُ وزواوةُ ومكلاته أنهم من حمْير ، ثم عَقَّبَ أن هذه كلها مزاعم ، ثم صحح نسبة صنهاجة وكتامة إلى العرب والفرق الأخرى رجح أنها إخوان العرب دون أن يثبت أنها انحدرت من سلالاتهم .

وسمي ابن خلدون الذين التحقوا بالصحراء من الصنهاجيين بالملثمين وصنفهم بالطبقة الثانية من صنهاجة فقال : "استوطنوا القفر وراء الرمال الصحراوية فتفرقوا بالجنوب منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فوجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها[1] ، وقد أشاد بخصالهم الحميدة فوصفهم بالشجاعة والاعتزاز بالنفس والميل إلى الحرية الفطرية وعدم الخنوع للغلبة والقهر ، مما جعلهم يتسمون بالتمرد على كل ما اعتبروه اذلالا لهم أو مسا بكرامتهم ، فتناسلوا في تلك الصحارى وكثر كسبهم للحيوانات ، واتخذوا من اللثام شعارا تميزوا به ، وتعددت قبائلهم وقويت شوكتهم وظلت مضارب منازل أحيائهم فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان حسب تعريف ابن خلدون للأرض التي تنقلوا في أرجائها من الشمال إلى الجنوب ، ومن

1) التاريخ الكبير 6 : 81

المحيط غربا إلى جنوب البلاد الليبية شرقا ، فكل هذه القبائل الممتدة على هذه المساحة من أصل صنهاجي باستثناء القبائل التي سيرفع نسبها لبني هلال وبني سليم ، وكما ذكر فإنهم كانوا على دين المجوسية حتى بعد فتح الأندلس فدخلوا الإسلام ، أما رئاستهم فتناقلها أبناء لمتونة ، وأعظم ملوكهم قبل أبي بكر هو "تبلوثان" ، فسيطر على جميع المناطق الجنوبية وبسط نفوذه على شمال ما كانوا يعرفونه بالسودان ، أي الدول الواقعة على الضفة الجنوبية للنهر الفاصل بين الشقيقة موريتانيا والسينغال ، وقد تكونت تحت إمرته قوة عاتية ذكر ابن خلدون أنه كان يركب في مئة ألف نجيب ، واستمر أمرهم عظيما إلى أن دب النزاع بينهم فضعفوا ، إلى أن قام فيهم أبو عبيد الله ابن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني ، فأجمعوا عليه وحيوه وكان من أهل الصلاح ، ثم قام بالأمر بعده يحيى بن إبراهيم الگدالي ، ثم تتابعَ خلفُهم يقفوا أثَرَ سلفهم إلى أن ظهرتْ دولةُ المرابطين فغيرت مسار التاريخ وأعطت للصحراء وجها ءاخر مكنها من المساهمة في تشييد صرح الحضارة الإنسانية بوجه عام والمغرب الأقصى بوجه خاص .

من هذه المقتطفات التي استقينا معلوماتها من أهم المراجع القديمة نستطيع تحديد معالم الأصول العامة لسكان الصحراء المغربية ، فهم يرجعون إلى عرب المعقل وإلى القبائل الحميرية العربية التي يرجح أنها هي الأصل الأعلى لجميع القبائل البربرية ، هذا بالإضافة إلى السلالات الشريفة التي تميزت بحفظ أنسابها ، وتكاد تكون مجتمعاتها ساهمت في

عدم قبول انصهار غيرها فيها تكريما للنسب النبوي الكريم واحتراما لمن ينتسب إليه .

هذا عن الأصول التي يمكن أن ندرس شؤون السكان تحت عناوينها بدل التقسيمات المعروفة اليوم في الصحراء ، والتي أطلقت توارث الحرف المهنية على الانتماءات السلالية وحددت كنسبة لا يعرف الناس بغيرها ولا يرضى بعضهم بدراسة الشؤون الاجتماعية والتاريخية إلا انطلاقا منها ، ومفادها أن السكان في فترة ما ، لم تحدثنا المراجع عن بدايتها ولا عن الذين سنوها ، قسموا مهام الحياة إلى ثلاثة اختصاصات هي :

1) أهل العلم درسا وتدريسا ، فعليهم تقع مسؤولية شؤون دين المجتمع ، وإليهم ترجع الفتوى ، وبين أيديهم يحتكمون ، وبما حكموا به ينفذون ، ونظرا لأنهم عادة يستقرون أكثر من غيرهم فيصل نفع علمهم لكثير من شرائح المجتمع فقد أطلقوا عليهم اسم الزوايا .

2) أما الطائفة الثانية فاشتغلت بحمل السلاح والذبّ عن حوزة الوطن والعمل على تنفيذ أحكام الطبقة المشتغلة بالعلم ، وقد تجمعت جل السلطات التنفيذية بيد حملة السلاح الذين ظلوا متشبثينَ بالتسْمية الأصليَّة للجميع بقَطع النظر عنْ تقسيماتهم الخاصة والتي سنذكرها في محلها .

3) أما الطبقة الثالثة فهم المشتغلون بالتنمية ، وبما أن البلاد أصيبت في فترات قديمة وغير محددة بقحط شديد اجتث

ما كانت تعرفه من ازدهار فلاحي ، فإن تنمية الحيوانات أصبحت هي الملجأ الوحيد لمختلف السكان ، ولكن جل الذين يقومون برعيها وتنميتها هم الطبقة الثالثة التي أطلقوا عليها اسم "الزناگة" بزاي معقودة وكاف كذلك ، ثم أصبحت هذه التخصصات مهناً تتوارث واطرد تأصلها في خلف كل طائفة حتى تميزت به وسميت باسمه ، فأصبح السائد عندهم أن يُقسموا المجتمعَ إلى عَرب وزوايا وزناگة ، إضافةً إلى الشرفاء الذينَ ظلَّ نسبُهم مُميزاً لهم عن غَيْرهم .

إلا أن هذا التقسيم المهني الذي أصبح يعتقد البعض أنه سلالي ليس على إطلاقه ، فكم من جماعة أو أفراد من طائفة نبغوا في المهنة التي تميزت بها الطائفة الأخرى ، ففي الزوايا من اشتغل بالكسب والأعمال اليدوية وحمل السلاح ، ومن العرب من بلغ شأوا كبيرا في العلم وتعاطي نفس الأعمال التي عرفت بها القبائل التي أطلق عليها اسم "الزناگة" والتي هي تحريفُ لكلمة زناتة ، ومنْ هؤلاء الأخيرين منْ أصبحَ عالماً وشاعرا وراميا بطلا شجاعا ، وبذا يتضح لنا أن هذه التسميات لا داعي لدراسة شؤون السكان تحت مسمياتها ، لأن التطور الزمني ذهب بها إلى أبعد من التخصصات الحِرفية ؛ وقد أشار كثير ممن اتسمت بحوثهم بالنظرة العلمية المجردة إلى أن هذا التقسيم لا يجد مستندا يبرر التمسك به ، وإلى ذلك أشارَ مُحمد الأمينُ العَلَوي في كتاب (الوسيط) عندَ ذِكره لشعر الحركات التي عرفتها شنقيط فقال ما مضمونه بأن هذا التقسيم غير معروف لدى المشارقة وحتى عند المغرب الذي هو

أصل أولئك السكان، بل هو تقسيم خاص بالصحراء المغربية ولا مستند له، إذ من العلماء من كان حدادا، ومنهم من كان تاجرا، ومنهم من اشتغل بالفلاحة أو الكسب أو الحياكة ، فكل الحرف تعاطاها العلماء لإغناء أنفسهم عن الاحتياج إلى الناس لتبقى لهم هيبتهم وسلطتهم ، حتى إن تعاطي الحرف لم يكن حتى في عهد الجاهلية مفهوما، حيث كان الوليد ابن المغيرة حدادا[1].

ثم إن هذا التقسيم انتقل مع الزمن ليفرض نوعا من التحكم والابتزاز على بعض الطوائف الثلاثة ، إذ أصبحت طائفةُ قبائل الزناكة مبتزةً من الفئتين الأوليين العرب والزوايا ، تفرض عليها غرامات متوارثة لا تستند على أي أساس شرعي سوى الغلبة وفرض إرادة التحكم ، واعتبارا لذلك تكون دراسة أحوال تلك الجماعات تحت تلك الألقاب لا يخلو من إجحاف ببعضهم خصوصا عندما يبعد الزمن ، هذه الفترة التي تميزت بخصوصيات لا تقرها إملاءات الظروف المتجددة ، فتطور الإنسان واحتكامه إلى جملة من المسلمات ، ومن بينها الديمقراطية ، تجعل معاملة المجتمع على أساس طبقات - يتحتم على أجياله أن تخضع لنتائجها ولو وقعت تحولات متميزة عن السير في الاستمرار في ممارستها - أمر لا يتسم بالتجرد والعدل .

هذه الاعتبارات تحتم احترام حقوق إنسان الأجيال القادمة من خلال عدم تذكيره بموروث أمكن لأسلافه التوافق عليه ولو كان بعضهم مرغما على السير في أعرافه وعاداته ،

1) الوسيط ، في تراجم أدباء شنقيط ص 359 ، معنى كلامه وليس نصه .

بينما وقعت تحولات غيرت الموازين ، فالقوة والثقافة والمال والمكانة في دولة القانون لم تبق تلك الخصال حكرا على أحد ، ولم يبق ممكنا لأي شخص التحكم بواسطتها في رقاب الغير ، ولم يبق ممكنا أن تحدد مكانة الإنسان بانتساب سلالي يستطيع من خلاله استعباد غيره ليمكّنه ذلك الانتماء من أمواله ونفسه دون أن تترتب عن ذلك أية مسؤولية قانونية أو أخلاقية ، ولذا فلن نعرج كثيرا في هذه المحاولة على التعرض لشؤون السكان من خلال تقسيمات مهنية لا تستند على أساس ، بل إننا سنتعرض لكل قبيلة بإرجاعها إلى الأصل الأعلى الذي تنتسب إليه ، وذلك من خلال التفاصيل التي سيتضمنها الفصل القادم .

هذا عن المبادىء العامة التي يمكن أن نتناول نبذا من تاريخ القوم من خلالها ، على أن الذين سبقونا إلى محاولة الكتابة عنها ، إذا كان تحديد المكان الجغرافي للمنطقة والجانب التجاري والأطماع الأوربية نالت الحظ الأوفر من كتاباتهم على حساب تقديم صورة فاحصة لمختلف القبائل ، فإن بعضهم قدم لنا ملاحظات رغم إيجازها فانها معبرة وشافية ، وذلك مثل علي الشامي عندما قال : "منذ انهيار دولة الموحدين والساقية الحمراء تحتضن العلماء والمتصوفين ودعاة الوحدة والدفاع عن الإسلام ، ابتداءً "باغدالة" الصنهاجيين في القرن الحادي عشر المسيحي ، ومرورا بأحمد الكنتي وأحمد البكاي وسيد احمد الرقيبي وسيد احمد العروسي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ووصولا إلى الشيخ ماء العينين في القرن

التاسع عشر . كل هذه الفترة والصحراء المغربية تعيش ألما وحلما : ألم انهيار الدولة القوية ، وحلم تجديد مكانتها ، الأقدام كانت في الصحراء ، بينما العيون كانت على الأمة[1] داخل المغرب" .

هذه الملاحظة أوردناها بالنص مع تصرف قليل ، ومن خلالها يدرك القارىء أن أولئك الذين كتبوا عن المنطقة استجابة لظروف هيمنة فكرة الانفصال على كُتَّابِ الدول التي سارت في فلك ما سمي بالمعسكر الاشتراكي لم يستطيعوا تجاهل مغربية الصحراء ، وإن كنا نحن لا ننتظر إثبات مغربيتنا من أحد ، وغايتنا من هذه الملاحظة ليس جانبها السياسي ، وإنما إثباته أن المنطقة لم تخل من علماء وصوفيين طيلة القرون الماضية .

1) علي الشامي في كتاب الصحراءُ وعقدةُ التجزئة في المغرب العربي صفحة 697 ، دار النشر ببيروت .

الفصل الثاني :

التعريف بمختلف قبائل الصحراء المغربية

عرفنا في الفصل السابق كيف استقر السكان الأولون في المغرب ، ثم تعرفنا على بعض الظروف التي تتابعت فيها هجرة صنهاجة أو زناتة أو المعقل أو بني هلال أو بني سليم إلى الجنوب المغربي ، وما هي التجاذبات الاجتماعية التي تشكل بسببها هذا الجذع أو ذاك ، ثم رأينا كيف تم تقسيم السكان إلى شرفاء وعرب وزوايا في أقاليم الجنوب ، ثم لاحظنا أسباب هذه المسميات وكيف أصبحت لوازم الحياة في فترات سابقة تفرضها ، كما لاحظنا أن تطور الزمن واستثمار المواهب غَيَّرَ موازين توارث الحرف ، مما حتم التخلي عن التقسيم السلالي على أساس التخصص المهني حتى ولو لم يحترم توارث هذه الحرف ، ثم بينا أن ظروف الأجيال القادمة ، تحت طائلة الأنماط الديمقراطية وتحكم المجتمعات في تسيير شؤون الناس بشكل يضمن حقوق الجميع ، تحتم علينا أن لا نذكر أجيال المستقبل بتقسيم طبقي لا يعرف عنه شيئا سوى سكان منطقة معينة تمتد من كلميم جنوبا حتى نهر صُنهاجة ، كما قلنا إننا سنرجع كل قبيلة إلى أصلها من بين الأصول العامة التي أشرنا إليها في الفصل السابق ، وذلك ما سنشاهده خلال هذا الفصل .

المبحث الأول : التعريف بالشرفاء الرقيبات

الفرع الأول : نسب الشيخ سيدي أحمد الرقيبي

احتراما للنسب النبوي الشريف سنبدأ بهذا الجذع من شرفاء هذه المنطقة ، والملاحظ أن مخايل الشرف بارزة في جميع أفراد كل القبائل التي تنتمي بالانتساب الدموي للدوحة النبوية على أصلها أزكى الصلاة والسلام .

وفي هذا المبحث سنتكلم عن سلسلة الشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، ومستندنا في كل المعلومات التي سندونها هنا هو بعض ما نشر في كتبٍ إذا كانت قليلة فإن أصحابها ثقاة مطلعون .

فسلسلة نسبه اعتمدنا فيها على كلمة الشرفاء الرقيبات التي ألقاها أحد علمائهم أمام الجلسة الختامية لندوة البيعة والخلافة التي عقدتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية بعيون الساقية الحمراء خلال أيام 19-22 ذو الحجة عام 1405 موافق 5-8 شتنبر 1985 فقال : "وإن أعلم الناس بما تستوجبه البيعة من وفاء وولاء وإخلاص وصبر واستماتة وثبات، لهو بحق القطب المجاهد الشريف الشيخ سيدي أحمد الرقيبي ابن سيد أحمد بن مَحمد بن يوسف بن علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم بن احمد بن موسى بن غانم بن كامل بن تكميل بن زين العابدين بن حيدرة بن يعقوب بن علي بن مزوار ابن خطاري بن عيسى بن عبد الله بن عبد الواحد بن عبد

الكريم بن عبد السلام بن مشيش ، بن أبي بكر بن محمد بن حرمة بن عيسى بن سالم بن حيدرة بن علي بن محمد بن أحمد ابن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه[1]" .

لقد حدثنا التاريخ بمختلف مصادره أن هذا الشريف استوطن الصحراء المغربية شاقا طريقه إليها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، ويستنتج من المعلومات التي تحدثت عن حياته أنه كان مجاهدا هاديا ينشر الإسلام ويحارب البدع والكفر والفوضى والفتن ، فوصل به طموحه واهتمامه إلى هذه المنطقة المعروفة اليوم بالساقية الحمراء ، فأسس فيها زاويته بالمفهوم العلمي الصوفي المحلي العرفي ، لا بالمفهوم الخاطئ الذي أصبح بعض المتهافتين من خلاله يجعل نعوت الرفعة والاحترام من أوصاف الذل والخنوع ، وتلك موروثات من سياسة تضليلية ظل أعداء الإسلام ومحاربو كل قيمه يحاولون بواسطتها جعل تلك المسميات لا تطلق إلا على الضعفاء ، ولكي نوضح لكل قارئ من إخواني أبناء الجنوب المفهوم الذي تؤديه لفظة زوايا عند إخواننا في المشرق ، وحتى عندنا هنا في بقية الوطن ، أستشهد بنص فقرة كتبها الأستاذ علي الشامي في هذا الموضوع وهي :

"وللزوايا التي يشرف عليها شريف حظوة خاصة ، لذلك يبذل كثير من المرابطين المغاربة جهدا للحصول

---

1) كتاب **ندوة البيعة والخلافة** ، ص 1236 ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية .

على نسب شريف[1] ، والزوايا التي هي مراكز العبادة ومجامع للأشراف هي أيضا مقر للطرق ، وفي المغرب الأقصى للطرق أكبر نسبة من الأتباع[2]" .

هذه المكانة تبين المنزلة التي يضع فيها أهل الفكر الزاوية التي يحاول بعض المتهافتين النيل من مكانتها أو التقليل من قيمتها .

وإذا تصورنا هذه الأهمية تمكنا من وضع الشيخ سيدي أحمد الرقيبي حفيد مولاي عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بالشمال والمنحدر من مولاي إدريس رضي الله عنه ، تمكنا من وضْعِه في المكانة اللائقة به كمُجاهد عالم شريف ، زحف إلى الصحراء فأنشأ فيها رباطا للعلم والجهاد في زاويته التي سنتعرض لما وصلنا من أخبارها تباعا والتي تعد من الزوايا القديمة التي تواصلت بعض أخبارها من العهد الثاني من تاريخ الدولة السعدية ، مع انقطاعات في سند الأخبار التي وصلت إلينا ، مما يشفع لنا في عدم سند كثير من مواد هذا الفصل الذي يتكلم عن حقائق لكن لم نذكر مصادر كثير منها لا بطريق النقل الشفوي مما يشبه التواتر الذي يستحيل تواطؤ أهله على الكذب ويصعب حصر أسمائهم وأعدادهم ،

---

1) هذه العبارة هنا تكون صحيحة إذا أريد بها البحث عن شجرته يثبت من خلالها انتسابَه للشرف ، أما إذا قصدَ بها أن يحصلَ على النسَب دونَ الانحدار منه فهو شيء غير موجود في المغرب ، لأن المغاربة كلهم حراس السلالة النبوية حتىَ لا يختلط بِهَا غيرها .

2) علي الشامي ، صفحة 102

والذي لا شكَّ فيه أن الشيخَ سيدي أحمدَ الرقيبي شريفٌ عالـمٌ وولـي صالح ، حارب الوثنية واقتلع البدعة ونشر العلم وأسس الزوايا ، وبذل جهودا كبيرة لنشر تعليم القرءان الكريم وترسيخ العقيدة الإسلامية في نفوس العامة ، ثم إنه رضي الله عنه يتبين من خلال ما وصلنا من أخباره أنه صاحبته عناية ربانية عصمته من اعتداء الظلمة الجبابرة ، إذ تَنَقَّلَ من مكان غير ءامن إلى مكان أقل منه أمنا ، وكلما استقر في بلد ما كثر أتباعه ودوَّى اسمُه في الناس ، فارتضوا به نسبا وشرفوا بانتمائهم إليه وبتربيته الإسلامية العالية وأخلاقه العلمية السنية ، لم يستطع المؤرخون إلى اليوم أن يفرقوا بين أبنائه الدمويين والروحيين لشدة تمسكه بتعاليم جده عليه الصلاة والسلام ، فكل من طبق منهجه وسار بسيرته فهو ابْنه .

وقد يتساءل متسائل عن سبب شح المعلومات التي وصلتنا عنه ، وجوابا عن ذلك نشير إلى فرضيات عامة جمعت جل علماء تلك العصور ، إذ الذين اشتغلوا بتعليم العامة وهداية الضالين وتأسيس البذرات الأولى للاستقرار وجمع حشود من الناس للدفاع عن حوزة الإسلام ونبذ الخلافات وتضافر الجهود لإيواء الغريب ومساندة المغلوب وفك العاني ومساعدة طلاب العلم ، أولئك الأعلام الذين اشتغلوا بهذه الأوليات لم يبق لديهم وقت للتأليف والكتابة ، والأمثلة كثيرة على هذا وبالأخص في الجنوب المغربي ، فقليلون هم الذين اشتغلوا بالتدريس وألفوا ، أحرى إذا ضمت إليه تلك المهام الأخرى ، باستثناء ملهمين قليلين حيروا مَنْ كتب عنهم بكثرة العطاء وتنوعه .

أما عن كتابة حياة هذا الولي الصالح من طرف معاصريه فهي أيضا تدخل في نفس الاعتبارات السالفة ، يضاف إليها زهد أبناء الأقاليم الجنوبية في كتابة تاريخ الرجال إلى اليوم ، علما بأن القرون الخمسة السالفة التي تبعد تقريبا عن انتقال الشيخ الولي سيدي أحمد الرقيبي من الشمال إلى الجنوب لم تعرف فيها الصحراء استقرارا بسبب الأطماع الأجنبية وما صاحبها من حملات الجهاد التي لا شك أن الشيخ سيدي أحمد الرقيبي قادها بإخلاص وشجاعة ، فإذا ما أضفنا هذه المؤثرات إلى أن الشيخ سيدي أحمد الرقيبي كان يشد الترحال في نواحي المنطقة هاديا لأولئك الذين تزعزعت عقيدتهم ، معبئاً لمن رسخ الإيمان في نفوسهم على القيام بواجب الجهاد ، مع استلال جرثومة الخلافات التي تفشت في كل قبائل الجنوب ابتداء من أكدير حتى نهاية الحدود الطبيعية المغربية جنوبا ، ولقد حاولت أن أعرف لذلك سببا فيما وصلت إليه يدي من مراجع أو أن أسمعَ حكايةً من الوقائع التي ما زالتْ تتوارثُ شفويا فلم أجد ، إلا أنه من خلال استقصاء أخبار المواجهات التي حدثت آنذاك بين سكان جميع مناطق الجنوب توصلت إلى أنه يمكن إرجاع تلك الحروب القبلية إلى دسائس المتسللين من رجال الإرساليات الأوربية الذين أصبح همهم تقسيم بلاد المغرب والسيطرةَ عليْها كما سيُذكر في مكانه من هذه الدراسة، فلا يستبعد أن يكون رجال تلك الاستخبارات حاكوا كل الخدائع لإشعال فتيل الحروب الدامية بين مختلف القبائل ، إذ ما من قبيلتين متجاورتين إلا وشبت بينهما حروب استمرت مدة

طويلة ، حتى عمت الحروب بين تلك القبائل ، وعندما وصلوا للهدف منها وهو إضعاف الجميع عن إمكانية مواجهتهم انقضوا على الوطن كله، لأنهم كانوا يدركون أن شجاعة المقاتل الصحراوي وتمكنه من سرعة الانتقال ستحول بينهم وبين السيطرة على أي شبر من الوطن بأسره ، مما دفعهم إلى جعل إضعاف شوكة أبناء الجنوب ابتداء من قبائل سوس الأبطال الأشاوس داخلاً في ستراتيجيّتهم الرامية إلى السيطرة على كل أجزاء الوطن المغربي بأكمله ، وهذا ما يشفع لكثير من علماء تلك المنطقة في عدم التأليف ، كما يشفع لمن كتب عنهم في عدم الاجتهاد في إنزالهم المنزلة العلمية التي يستحقون ، ومن ثم لا بد من الاعتراف بأن بعضا من الغموض يبقى يلف الحديث عن تلك الفترة، وبالأخص عن جانبها العلمي، ويكون أيضا عذرا لكثير من القلاقل التي كانت تشب بين سكان مسلمين ، ففتيلها كان يشعل من خلال مؤثرات خارجية قَوية ساعدها عدم تعميم التعليم بسبب كذلك ذلك التقسيم المهني الذي جعل التعليم خاصا ببعض السلالات لا يتعداها غالبا ، وهم الزوايا والأشراف في بعضهم ، فنتج عن كل هذه المؤثرات أن المصلحين الدعاة مثل الشيخ سيدي أحمد الرقيبي لم يبق لديهم وقت للكتابة وحتى الاستقرار لبذل الوقت لإصلاح ذات البين ونشر التوعية الإسلامية بين مختلف من مر بهم أو استقر فيهم ، إذ يُحْكى أنه مرَّ بتوات في شرق المملكة فلمْ يعجبْه الاستقرار بها ، ثم انتقل إلى رأس وادي درعة فأسس به زاوية ما زالتْ قائمةٌ إلى اليوم ، ثم انتقلَ إلى وادي الشبيكة جنوب

مدينة طنطان فأسس زاويته بالخلوة التي بقيت ءاثار منها تدل على مكانها فقط ، ثم انتقل إلى الساقية الحمراء ، ولا شك أنه تنقل في مختلف مناطقها كثيرا ، وبقي مشتغلا بتعليم القرءان والذب عن الإسلام ، تاركا ما يمكن أن يقوم به غيره ليقوم بما لا يمكن أن يقوم به سواه، فالشيء المؤكد أنه كان صوفيا كبيرا سنيا ملتزما بحدود الله ، فهذه هي أسباب عدم توصلنا بمراجع تحدثت عنه أيام حياته ، وهي حالة تجمعه مع كثير من مشاهير زمنه ومن سبقوهم، فلم يشتغل العلماء بالتعريف بهم إلا بعد موتهم لكن صيتهم وشمائلهم الحسنة كفلت لهم البقاء محفورا في ذاكرة الأجيال ينقله الخلف عن السلف ، والشيخ سيدي أحمد الرقيبي خلد ذكره بأفعاله وأفعال بنيه من بعده ، فكل جيل من أبنائه يضيف إلى المجد السالف إنجازات أكبر من حجم ما سبقها جهادا وكرما ، إذ من المؤكد عند جميع المهتمين أنها إذا لم تكن أضخم وأحسن فإنها لاتقصر عن الموروث الضخم شأوا فلقد حملوا راية الجهاد على مختلف واجهات الجنوب المغربي ، فلم تمض فترة إلا وفيهم أبطال جهاد يضرب بهم المثل في الشجاعة والذب عن الحمى والدفاع عن حوزة البلاد ، ومنهم علماء منقطعون للتدريس ، وفيهم منفقون يبذلون في سبيل الله ، ومنهم مصلحون كرسوا جهودهم لإصلاح ذات البين ، ومتكسبون يسعون لتحصيل المال في الحلال وإنفاقه في مختلف أوجه البر ، ومن مميزاتهم التي لا يختلف عليها اثنان أن أخلاقهم الإسلامية وتربيتهم الاجتماعية العالية وسلوكهم المتسامح، كل ذلك جعل من دخلهم ولو لوقت قصير ونسب نفسه

لهم يعطونه من أنفسهم وحمايتهم وأموالهم أكثر مما يعطون أنفسهم ، وبهذا ارتفع صيتهم وانتشر ذكرهم وقويت شوكتهم وكثر مداحهم واحترم جارهم وهاب أعداؤهم المواجهة معهم ، فهم معادن الفضل ومركز النبل شغلهم فيما يهمهم من احترمهم قطف المنى من أخلاقهم ، ومن استهدفهم ألجمه شواظاً من نار سلاحُ مُجاهديهم ، لا يَظلمون ، وإن ظُلموا لا يخنعون ، فجرروا بذلك نسبهم الى علي كرم الله وجهه وإلى فاطمة الزهراء نضر الله وجهها بنت سيد الوجود جدهم الرسول عليه صلاة الله وسلامه ، ولسنا وحدنا الذين أشدنا بخصالهم ، فكل من تعرض لذكر المنطقة تعرض إليهم ، وكلهم شهدوا بفضلهم وجهادهم ونضالهم ، وتأكيدا لما قلنا سنتعرض لمقتطفات من ذلك فيما يلي :

المختار بن حامدون في كتابه «الحياة الجغرافية لشنقيط» ذكرهم عدة مرات ، ففي الصفحة الثامنة ذكر أن مضارب أحيائهم تبتدئ من جهة غرب الجمهورية الجزائرية في اتجاه الغرب ، وهي الأرض التي ضمها الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر ، وفي صفحة خمسة وستين تعرض لأنساب كثير من الشرفاء ، واعتمادا على خبرة الشيخ المرحوم المختار بن حامدون الذي يكاد لا يصل مستواه أي واحد ممن عاصروه وخصوصا إلمامه بالتاريخ فإنني سأورد ما قاله عن ادعاء النسب الشريف وبرفعه للرقيبات مع كثير من البطون إلى أحمد ابن إدريس ، فعن الشرف بصفة عامة قال ما مضمونه :

إن ادعاء النسب الشريف لا سبيل إلى رفع كثير منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما لا يمكن تكذيبه ، لذلك فلدينا ادلة ظنية ترجح لا محالة على ادعاءات المكذبين لأنهم نافون والمثبت مصدق على النافي ، قال المختار "الشهادة على النفي غير مقبولة" ، ثم قال بأن لكل قبيلة عدولها وهم أدرى بنسبها ، ثم استعرض قولة ابن خلدون أن المدعين للشرف ممن تصلنا شجرة أسماء أجدادهم من الأنسب أن يسلم لهم انتسابهم ، ثم قال عن عبد الباقي عند قول خليل : "إنما يستلحق الأب مجهول النسب" للقولة المشهورة «الناس مصدقون في أنسابهم» ، ثم أضاف أن حيازة النسب كحيازة الأملاك ، ثم قال إن المؤرخين ذكروا أن سلالات من الشرفاء دخلوا إلى الصحراء وهو قول أشار إليه كذلك إضافة إلى ابن خلدون (الاستقصا) وغيرُه من المؤرخين . وعن الكاتب أبي بكر بن مُحمد السيوطي عندَما تعرَّضَ لجرائم موسَى بن العافية التي ارتكبت في حق الدوحة النبوية الشريفة ، أنه قال ما نصه : "قيل خرج من مدينة فاس سبعمئة رحيل فارين إلى جبال غمارة ، واثنا عشر رحيلا فارين إلى جبال تادلة ، وسبع رحائل إلى فكّيك ، وأربعُ رحائل إلى سِجِلْماسَّة ، وسبعُ إلى وطاط الحاج وخمس إلى وادي درعة، وثمانية إلى الساقية الحمراء"[1].

هذا عن نزوح سلالة مولاي إدريس من المغرب بسبب النكبة المذكورة ، وفي هذا الصدد نحن نتكلم عن نسب الرقيبات

1) المختار بن حامدون : **حياة موريتانيا الثقافية** ص 66 منشورات معهد الدراسات الافريقية التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط .

للشرف ، وأدلتنا عليه كثيرة منها سلوكهم ، وحبهم للجهاد ، وبغضهم للكفر ، وحنوهم على الضعفاء ، وبذل أموالهم في سبيل الله ، وعدم تسرب الحقد إلى قلوبهم ، وحبهم لغيرهم ممن انتسب لآل البيت ، ووفاؤهم بالعهد ، واعتزازهم بنفوسهم. هذه الاستنتاجات العامة لإثباتنا لهذا الشرف إضافة إلى أقوال العلماء السالفة هذا كله تعزيز لشجرة نسبهم التي أثبتنا في بداية هذا المبحث ، يضاف إليها أنه أصبح ثابتا بالسماع متواترا عند الناس ، علما بأن النسب من الأمور التي ألح الحديث النبوي الكريم على عدم الطعن فيها ، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه بقوله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اثنتان في الناس بهما هم كفر الطعن في النسب ، والنياحة على الميت" .

إن الاستدلال بهذا الحديث الشريف يرمي إلى أنه من واجب المسلم الكف عن الطعن في أنساب الناس ، كما استشهدنا بكتابة المرحوم المختار ابن حامد الديماني اعتبارا لمكانته العلمية وشمولية معلوماته التاريخية ، فهو عالم زاد على تسعين سنة يقلب صحائف التاريخ والأنساب ، فاستقصَى وناظرَ ورجَّحَ حتى توصَّلَ باقتناع علمي ترفدهُ رحلةٌ طويلة في السؤال والتحصيل ، تسلسل صاحبها في وسط علم وتاريخ ومعرفة الأنساب ، ولذا فما كتبه المرحوم المختار بن حامد يجوز أن تستعار له قاعدة المحدثين المشهورة والقائلة في الحديث الذي اتفق عليه الشيخان بأنه اجتاز القنطرة ، وهنا يمكننا القول إن من نسبهم المختار بن حامد إلى الشرف بهذا

التأكيد قد اجتاز ثبوت نسبهم للشرف القنطرة ، وانظر إلى ورع الشيخ المختار عند قوله : "ثم إن المؤرخ حامل بريد فقط ، والعهدة على من يروي عنه ، والعلم عند الله"[1] .

نحن هنا يهمنا من الأقوال التي استعرضها الكتاب الفرق التي انتقلت إلى الساقية الحمراء وتلك التي انتقلت إلى غمارة وتامسنة ، لأن الفرق التي انتقلت إلى شمال المملكة إليها يرجع نسب الشيخ الولي الصالح العالم المربي الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وأرضاه وجازاه عن الإسلام خيرا ونفعنا ببركاته ، فمنه ينحدر شيخ الصحراء في زمنه الشيخ سيدي أحمد الرقيبي الجد الأعلى للمجاهدين المخلصين الرقيبات والتي انتقلت إلى الساقية الحمراء هي التي استقر بعضها في الصحراء وبعضها انتقل إلى مناطق من موريتانيا ، والكل بقي معروفا بنسبه لمولاي إدريس رحمه الله ، ولقد استقصى المرحوم الشيخ المختار بن حامد رحلة هذه الجذوع فنسب بعضهم إلى محمد بن ادريس ومنهم : أهل مولاي مشيش في أهل الحاج عبد الرحمن من الأغلال ، وأهل مولاي رشيد في المجرية وايدا كجملة ، ثم أولاد أبي السباع الذين سيتم ذكرهم في مكان آخر من هذه الدراسة . أما بيت القصيد عندنا الآن في هذا المبحث فهم الرقيبات ، وهم منحدرون من نسل عبد الله ابن إدريس حسبما رأينا في سلسلة نسبهم أعلاه أما من حيث تركيبتهم القبلية فهم ينقسمون إلى قسمين كبيرين : رقيبات

1) هذه محتوياتُ ما نقله المختار عندما تعرَّضَ للشرفاءِ الأدارسة بصفة عامة في المرجع المشار في الهامش قريبا .

الساحل وتتفرع إلى عدة جذوع أصبحت قبائل يجمعها النسب الواحد والمصالح المشتركة والواجب الإسلامي المقدس والدفاع عن حوزة الوطن . ورقيبات الشرق أصبحوا وهم يشكلون جذوعاً مُتعددةً أصبحتْ كذلك قبائل ، والمجموعتان شكلتا خيلَ رهان في حمل رسالة الآباء والأجداد ، فاستمروا أجيالا متعددة رحالهم على ظهور جمالهم وسروجهم على صهوات خيلهم لصد معتد ، أو للهجوم على مركز فرنسي تسلل أصحابه لأية نقطة من المراكز الجنوبية ، بيوتهم عامرة بذكر الله وقلوبهم لينة للوعظ ، ووشائج البيعة الشرعية أمرت حبالها بينهم وبين العرش العلوي المجيد فمجدهم وأسدل عليهم ألوية الوقار والتقدير وأنزلهم منزلة الاحترام والتبجيل فأخلصوا لعهده وتفانوا في تنفيذ توجيهاته ، فاستمروا من أصلب رعيته عودا وأقواهم شكيمة وأشدهم حيطة .

حتى إذا وضعت الحرب ضد الغزاة أوزارها بتحكم الاستعمار في جميع البلاد الإفريقية كان الشرفاء الرقيبات في الصحراء يقفون في الصف الأول مع إخوانهم المجاهدين أهل الصحراء حتى لا يتم التعامل مع الإدارة الإسبانية إلا إذا كان ذلك عن طريق السلطان بالرباط أو فاس ، أو عن طريق خليفته بتطوان بالنسبة لجميع جذوع الرقيبات المقيمة في صحراء الساقية الحمراء ووادي الذهب ، بينما قام جميع جذوع رقيبات الشرق بنفس الدور في تيندوف التي استطاعوا بفضل قوتهم وإخلاصهم ووطنيتهم أن يحافظوا لها على مغربيتها حتى

سنة 1950 ، علما بأن القائد الحبيب بن البلال قائد الشق الشرقي من الرقيبات مثل بين يدي جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، مقدما له بيعته وبيعة جميع الرقيبات وغيرهم من الصحراويين .

وعن جهادهم الذي سنتعرض اليه تباعا فإن المختار بن حامد أورد جملة عارضة يستخلص منها الوعي الوطني الذي اتسم به أبناء الرقيبات تجاه أي وجود للمستعمر في أية نقطة يمكن أن تشكل تهديدا للأجزاء المغربية ، فعندما تعرض المختار رحمه الله لتيگيل قال هي في باطن ولاته بها قتل مشظوف عبد الرحمن بن الطالب أحمد بن عبد سنة 1196 هجرية ، وعليها أغار الرقيبات فلم يحصلوا على شيء ، وأسر منهم البعض وذلك في أيام احتلال الفرنسيين[1] .

يفهم من الكلام الذي أورده المختار أن الرقيبات انهزموا في تلك المعركة لكن انهزامهم في سبيل صد الغزاة عن الوطن يعد نصرا ، كما يفهم منه بوضوح أن قتل عبد الرحمان بن الطالب ليست بينه علاقة مع هجوم الرقيبات على الفرنسيين سوى أن الأمرين حصلا بنفس المكان . أما قوله إنهم لم يظفروا بشيء فهو كلام مردود ، وذكرني بمثل تاريخي ردده شيخ الأزهر المرحوم محمد عبده مرات معبئا به سكان المستعمرات

---

1) **حياة موريتانيا الثقافية** ، الجزء الأول ، نفس الصفحة السابقة تقريبا .

الإسلامية القابعة آنذاك تحت الحكم الأجنبي ، والمثل هو : ليست قيمة الانتصار في الانتصار نفسه ، وإنما في المعاني التي يعمل لها ذلك الانتصار ، إذ بمجرد خروج جيش مجاهدي الرقيبات من ديارهم متوجهين إلى ذلك المركز لضرب الفرنسيين وقع أجرهم على الله ، لأنهم ما قطعوا واديا ولا نالوا من عدو نيلا إلا كتب لهم به أجر لقول الله عز وجل : ﴿ما كان لأهل المدينة ومَنْ حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يَرغبوا بأنفُسِهِم عن نَفْسِه ، ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مخمصة في سبيلَ الله ولا يطئون موْطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كُتبَ لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[1] هذا دليل قطعي على ثبوت أجر المجاهدين عند شد الرحال للجهاد ، فكم من خبت ونجد وواد وجبل قطعه مجاهدو الرقيبات لقض مضجع النصارى في كل نجد وواد من بلاد المغرب وما جاورها من بلاد ضفاف نهر صنهاجة ، فمجرد خروجهم انتصار ، من مات منهم ماتَ في سبيل الله ، ومن عاش اخذ له ثأره من أعداء دينه ، وهي شنشنة تسلسلت فيهم كل خلف فاق فيها السلف .

أما ما أشارَ إليْه صاحبُ (الوسيط) بأنهم زوايا حَملَوا السلاح[2] ، وهو ما أخذه عنه مؤلف حديث هو محمد نعيم في

1) الآية 121 من سورة التوبة

2) **الوسيط ، في تراجم أدباء شنقيط** لمحمد الأمين العلوي ، ص 6438 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، بتحقيق العالم الجليل الموسوعي الدكتور محمد المختار ابن اباه العلوي من نفس قبيلة المؤلف محمد الأمين .

كتابه على قبائل تكنة ، إذ كل واحد من المؤلفين قال إن الرقيبات أصلهم زوايا ، فهذا لا يضر بالنسب الشريف في ملاحظة أولية ، لأن هذه التقسيمات كما قدمنا ليست على اطلاقها فلا تعرف في العالم بأسره إلا في هذه المنطقة التي أطلق عليها اسم الشناقطة والمعروفة باسم الصحراء المغربية قديما وحديثا ، لأن النسب لا يتأثر بالمهنة ، وهذه ملاحظة لا يختلف عليها اثنان .

أما الملاحظة الثانية فهي أن الزوايا ظلوا محل قمة المجد وبحبوحة شرف النفس والسلوك حتى أن أهل العلم جعلوهم على رأس هرم التنظيم السكاني في المنطقة لأن اللفظة في حد ذاتها "الزوايا" تعني رباط العلم ، وهذا لا يمكن في أي حال من الأحوال أو في أي ظرف من الظروف أن يكون نقصا فمن نعت به فقد ضم إلى فصيلة المجتمعات المحافظة على الدين المتصدرة للفتوى المتصدية لمن رام هدم حدود الله ، وحتى نستل أي شعور بالتضايق من هذا النعت لمن لا يدرك كنهه عند أهل العلم استشهد بما قاله العالم الجليل والشاعر الكبير عمنا الشيخ محمد الإمام في كتابه "الجأش الربيط" عن الزوايا حيث أورد ما نصه : "فالزوايا بالجملة من أحفظ الناس لأنسابهم ، وهمْ أهلُ المدارس العامرة والتآليف المفيدَةِ والمشائخ الكبار والأموال الطائلة ؛ وهم اهل الاشتغال بمصالح الأرض غرسا وحرثا وتجارة وحفر ءابار وإجراء عيون وأنهار، وهم صدر

المنتدى ومصلحو الثأى وأهل القضاء والفتوى ، محافظون أشد المحافظة مما يزري بعرضهم أو يخل بمروءتهم[1] .

فإذا كان من نمى الشرفاء الرقيبات للزوايا قصد من وراء تلك النسبة أنهم جمعتهم تلك الخصال الحميدة مع تلك القبائل فذلك وارد إذا عنينا أنهم أهل دين وحفظ لكتاب الله وفيهم أسر متعلمة تعليما جيدا ، وأنهم من حملة مشعل لواء الكرم وحسن الجوار وإيواء الغريب ، فهم من خلال هذه النعوت تمكن نسبتهم لمن نسب إليها فهم بنو بجدتها والساعون لاكتساب أكبر قدر ممكن منها ، فإن حصر هذا الموروث من الخصال الحميدة على الزوايا دون غيرهم وأصبحت النسبة لهذا العطاء الحضاري بقطع النظر عن السلالة العرقية فلم يبق للشرفاء الرقيبات وغيرهم من الشرفاء ومَن تَحلَّى بتلك الشيم من العرب و"الزناكة" إلا أن يطلق عليه اسم الزوايا ، أما إن قصد من وراء العبارة اعتزال السلاح والخضوع لحماية الغير حربيا فحاشى وكلا والله ما ثبت أن هذا التجمع البشري خضع لغيره أو احتاج لحمايته من عهد جدهم الأعلى الشيخ سيدي أحمد الرقيبي وبنيه إلى اليوم ، فهم الأنفسُ الأَبِيَّةُ والأبطال الممتازون ، فما خضعوا لغير الله ، بل كم دخل فيهم من غيرهم ولم يثبت انهم دخلوا في غيرهم .

---

1) كتاب **الجأش الربيط** المتقدم ذكره ، ألفه العالم الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين سنة 47 ردا على محاولة تقسيم المغرب التي ابتدأها المستعمر آنذاك ، ص 23 .

الفرع الثاني : التركيبة الاجتماعية لقبائل الرقيبات ومكانتهم في المجتمع الصحراوي

تمكن مسمى الرقيبات من استيعاب فكرة اجتماعية أملتها طبيعة الحياة التي صاحبت تكوينهم ، وتتجسد تلك الظاهرة في تجميع ما أمكن من القوة بشريا لحماية النفس ولتأدية رسالة الجهاد التي يبدو أن جدهم الأعلى الصالح المصلح الشيخ سيدي أحمد الرقيبي سنها تنفيذا لطموحاته الدينية ، ولتسامح طبيعة أبناء الزاوية التي تجعل الانتساب إلى شيخ الزاوية رابطة أقوى من رابطة النسب ، فإن ذلك سهل على أبناء الشيخ سيدي أحمد الرقيبي وأحفاده تكوين زخم بشري شكلت مرونة الانتماء إليه بتمسك مكونيه بأخوة الإسلام حافزا قويا للدخول فيه ، ثم إن صلابة مقاتليه وكرم بنيه ساعدا أيضا على استقطابه لكثير من البشر انضم إلى الفروع الكبرى المنتمية للشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، وتلك الفروع حسب انحدارها من الابناء المباشرين لسيدي أحمد الرقيبي حسبما أثبته العالم الكبير المختار بن حامد ، الذي مكث أكثر من خمسين سنة يعد موسوعته التاريخية يقارن ويرجح ويسأل ، ويضيف ويحذق حتى قدم جمعا لا يخلو من أخطاء كعمل البشر ، ولكنه إنتاج عالم كبير ومؤرخ فريد من نوعه ، سيبقى من أتى بعده عالة عليه لا محالة . وعن جذوع الرقيبات حسب ترتيبهم على الابناء المباشرين للشيخ سيدي أحمد الرقيبي قال :

1) أولاد علي بن سيدي أحمد الرقيبي وبطونهم :

أ ـ أولاد موسى

ب ـ السواعد

ج ـ أولاد داود

د ـ المؤذنين

2) أولاد اعمر :

أ ـ أولاد الشيخ

ب ـ اتهالات

ج ـ أولاد طالب

د ـ أهل الدليمي : أصلُهُم من أولاد الشيخ ، لكنْ لكثرتهم انفردوا عنهم .

3) القواسم وبطونهم :

أ ـ البيهات

ب ـ أهل إبراهيم وداود

ج ـ الفقراء

د ـ سلام

هـ ـ أهل الحسن واحْماد

و ـ أهل القاسم وإبراهيم

ز ـ الجنحة

ح ـ أهل سيدي علال

ط ـ السلالكة

ي ـ أولاد سيدي احْماد

ك ـ الحميدنات

هذا الترتيب لا يعني أهمية سياسية ، ولكن ضربنا بهذه المسميات الكبيرة المثل ليدرك القارئ أهمية الزخم البشري لأناسٍ مَرَّتْ عليهم عدة قرون على انتمائهم للشرف وحماية كرامتهم ، فلا مجال لنعتهم بالتبعية أو الضعف ، وليس من مبدئنا أن نُعين من يهمنا الرد عليه في السلبيات ، ولكن نريد اظهار الواقع دون أية حساسية تحول دونه أو رغبة تدفع إلى المبالغة فيه ، لأنَّ تسجيل الحقيقة هو هدفنا .

بعد هذا التقديم الذي اعتمدنا فيه على معرفة شخصية أساسها المعايشات والمعرفة عن قرب ، نورد بعضا من شهادات الغير في الرقيبات فيما يلي :

الأقلام التي شهدت بفضل الرقيبات :

قال عنهم فوزي جودة : "لم يعرف الرقيبات طيلة وجودهم في أراضي الساقية الحمراء ووادي الذهب أي معنى للتفرقة أو العزلة ، فعندما يدخل أحد أحياءهم فهو رقيبي ، يهبونه أموالهم ويحبونه بما عرف عنهم من الشجاعة والشرف" .

ثم أضاف إن أحياءهم كانت على جانب كبير من اليسر ، كما شهد بأن تقاليدهم العامة هي التقاليد المغربية بصفة أساسية ، كما أثبت انحدارهم من الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش الإدريسي ، وهو أول من هاجر من الأسرة الشريفة إلى الصحراء ، يعني الشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، وأنشأ البناءات التي لا تزالُ شاهدةً على نَشأته المدنية ، وقدْ تركَ مولاي عبدُ السلام آثاراً عميقةً في أبنائه وأحفاده ، وتتجلَّى

تلك الآثار بينة واضحة في ما أخذ الرقيبات على أنفسهم من سلوك التضحية والجهاد ، ثم أضاف بأن سلاطين المغرب ، وخاصة منذ العهد الإسماعيلي ، يعتبرون الرقيبات أحد أركان الاستقرار بمجموعة الصحراء الوسطي[1] .

أما علي الشامي في كتابه «الصحراء الغربية عقده التجزئة في المغرب العربي» . فبدأ تحليله بغلط تاريخي وذلك عندما قال إن الرقيبات "انتقلوا إلى المغرب مع الأدارسة ، وينسبون أنفسهم إلى إدريس الثاني[2]" .

ففيما كتبه عن أولئك الشرفاء لا بد من إرجاع الأمور إلى نصابها في شأن فكرتين تضمنهما هذا التصدير ، أولاهما كونه صرح بأنهم انتقلوا الى المغرب مع الأدارسة ، والتاريخ أثبتت جميع مصادره أن مولاي إدريس رضي الله عنه قدم إلى المغرب منفردا وليس معه سوى وصيفه راشد ، فكيف نجمع بين كلمة انتقلوا إلى المغرب مع الأدارسة ، وهذا الواقع الذي لا يقبل البينة المعاكسة . الملاحظة الثانية هي أن الرقيبات ما تحدث التاريخ عن وجود لهم قبل الشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، لأننا إنْ سلمنا بذلك افترضنا أن قبيلة ما كانت يطلق عليها تعريف معين فنزل فيها الشيخ سيدي أحمد الرقيبي رحمه الله ، ثمَّ ارتضتْ أن تُسمَّى باسْمِه بدلَ الاسم الذي كانتْ

1) الصحراء المغربية ، فوزي الجودة ، ص 20
2) الصحراء المغربية ، عقدة التجزئة ، ص 73

تحمله قبل ، وأيضا لم يرد هذا في أي مرجع ولا حكاية ولا ادعاء ، فالشيخ سيدي أحمد الرقيبي فاتح وضع أسس مجتمع أطلق عليه اسمه فامتزج فيه أتباعه من محبين وتلاميذ فأصبح يسمى باسمه رضي الله عنه .

وأيضا فإن الشيخ سيدي أحمد الرقيبي من أحفاد مولاي إدريس ويفصله عنه ردحٌ طويل من الزمن يناهز ثمانية قرون ، فكيف إذن نوهم غير المطلعين على الحقائق بافتراضات يكذبها الواقع . أما الملاحظة الثانية فهي أن من الحق الذي لا مراء فيه والذي قال به جميع المؤرخين هو أن تسمية الرقيبات لم تسبق سيدي أحمد الرقيبي مؤسس الزوايا الرقيبية في الصحراء ، وبذلك فلا مجال للادعاء بأنهم قدموا مع مولاي إدريس رضي الله عنه إلى المغرب لأنهم من أحفاده ، إضافةً إلى كون مولاي إدريس لم يقدم معه أحد إلى المغرب ما عدى مولاه راشد ، كما أنه ليسَ له عَقِبٌ غير ولده مولاي إدريس الذي وُلِدَ بعدَه وَحَمَلَ اسمه جريا على العادة العربية الإسلامية .

بعد التوضيح الذي قدمناه في شأن ما أورده الكاتب الكبير المثقف علي الشامي في كتابه المذكور ، نشير إلى أن جميع الذين عَرَّفوا بالشيخ سيدي أحمد الرقيبي قالوا إنه انتقل من جبل العَلَمِ خارجا عن موطن أهله ومسقط رأسه ، تقوده نوازع نشر العلم والجهاد ، فوصلت به مسيرته في محطتها الأولى حَسَبَ ما وصلَنا من أخباره إلى توات كما ذُكِرَ في مكان ءاخر من هذا المبحث ، وقالت مصادر أخرى إنه وصل إلى البلاد التونسية ، أما عن كنيته بالرقيبي فلم نعثر على

معلومات مدققة في شأنها ، فالبعض قال إنه كان يقرأ على أحد علماء تونس ، واشتهر من بين تلاميذه بتكرار اسم الله الرقيب ؛ وقيل إنه كان طويل العنق مكثرا من ذكر الله ، فكان زملاؤه الطلبةُ يُسمُّونهَ بهذا الاسم ، ويُفهَمُ من استنتاجات علي الشامي الذي نقتبس من معاني تحليله هذه الفقرات ، أن الشيخ لم تَرُقْه تْوَاتْ ، فخرجَ منها ليستقِرَّ أولَ مرَّة في درعة ، فأسَّسَ بها زاويتَه الأولى التي ما زالتْ قائمةً إلى اليوم ، ثمَّ بارحَها حَسَبَ ما يستنتج من كلام الشامي فوصل إلى الساقية الحمراء ، فأسس فيها زاويته مع بداية القرن السادس عشر محددا بالضبط سنة 1503 دون أن يذكر مصدره في هذه المعلومات التي وثقها مشكورا ، غير أنه لم يشر إلى زاويته الشهيرة في الخلوة بوادي الشبيكة جنوب مدينة طنطان الواقعة قرب الضفة الجنوبية لوادي درعة ، ويظهر أن زاوية الخلوة كانت أسست قبل زاوية الساقية الحمراء التي أشار إليها الشامي ، لأنها تصدرت الطريق بين زاوية وادي درعة وبين زاوية الساقية الحمراء .

ومن بين المعلومات المدققة كلامه عن زواج الشريف سيدي أحمد الرقيبي ، فذكر أنه تزوج للمرة الأولى كورية بنت محمد من سلام قبيلة عربية الأصل ، وسينتسب جلها فيما بعد هذه الفترة للشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، فأنجب من هذه الزوجة ولدين هما : موسى وقاسم[1] .

---

1) موسى جد رقيبات الساحل ، وقاسم جد رقيبات الشرق .

أما زواجه الثاني فتم مِنْ «إيلامود» أو "أسْمَى الزنجية" ، وأنجب منها ولده اعمر ، وهؤلاء الأبناء الثلاثة ينحدر منهم عقب الشيخ سيدي أحمد الرقيبي . ثم يذكر المؤلف الشامي بأن سياسة المخزن ساهمت بشكل غير مباشر في تزايد قوة الرقيبات ، وأن تلك المساهمة صاحبت قيام دولة الشرفاء العلويين ، وبهذا يدرك القارئ الكريم الاتصالات الوثيقة التي ربطت وتربط قبائل الشرفاء الرقيبيات بالعرش العلوي المجيد ، وقد أدى فرض التجمع الرقيبي مكانته داخل التجمعات التي اخترقَها من توات حتى حدود ما كانَ يُعرَفُ قديماً بالسودان ، أي إلى الضفة الشمالية من نهر السينغال ، أدى إلى كثرة عددهم لرغبة الكثيرين في الانتماء إليهم لعدم عنصريتهم .

ومن خلال تتبعنا لسرد هذا الكاتب وغيره ندرك أن الصراعات القبلية والحركات التجارية والرباطات الدينية بلورت تطلعات راودت نفس الشيخ سيدي أحمد الرقيبي إذا كان عاجله الأجل المحتوم عن تحقيقها فإن أبناءه وأحفاده حققوا منها الكثير على امتداد رقعة واسعة ، فلم تردهم تناقضات الصحراء ومعوقاتها الطبيعية عن الاستمرار في التصدي لمواجهة المحاولات التي انتقلت إلى المنطقة عبر تنافسٍ أوربي يسعى فيه كل طرف لأخذ حصة الأسد من الغنيمةٌ المنتظرة ، على أن تبقى الجهود موحدة لإضعاف سكان الأرض المقصودة ، وهذا جانب سنتعرض له بتفصيل في الفصل الذي خصصناه لجهاد سكان الجنوب المغربي ، واقتبسنا منه هذه الجملة للاستدلال على عدة ملاحظات حول قبيلة الرقيبات ،

أولاها وهي التي أشار إليها الشامي بقوله : "غير أن الخط العام لتاريخ الرقيبات السياسي يؤكد بداهة الانتماء إلى الداخل المغربي وعناد الدفاع عن الصحراء ضد الغزو الفرنسي بالجنوب «أدرار» ، والغزو الإسباني من ناحية الغرب[1] .

ونظرا لأن علي الشامي يعد من بين المراجع التي اتسمت بسرد كثير من المراحل المجهولة فيعد بذلك مرجعا موثقا لمراحل يعوزنا وجود كثير من الوثائق عنها ، فإن هذا يبرر كتابة فقرات مما قاله عن هؤلاء القوم بالحرف ، وذلك فيما يلي :

"وينسبون أنفسهم إلى مولاي إدريس الثاني مؤسس الدولة الإدريسية ، ولذلك يعتبرون أنفسهم من الأشراف ، إلا أن تسميتهم بالرقيبات تعود عمليا إلى سيدي أحمد الرقيبي ، هذا الأخير حفيد مولاي عبد السلام بن مشيش المدفون في جبل العلم بالقرب من مدينة تطوان .

كان أول الراحلين باتجاه الجنوب حاملا التراث المذهبي لجدِّه عبد السلام ، فقدْ غادرَ «توات» مَحطتَه الأولى ، وحطَّ رحاله على مقربة من درعة ليؤسس زاوية في الساقية الحمراء في بداية القرن السادس عشر 1503 م" .

إلى أن قال : "تمركز الرقيبات في الصحراء المغربية ترافق مع تطورات سياسية تتميز بمنازعات واتفاقات مع

1) نفسه ، 74 .

أطراف محلية وخارجية ، يصعب تفسيرها أو تبريرها دون الأخذ بعين الاعتبار مصلحة القبيلة[1]" .

لا يمكن التسليم بهذا الاستنتاج حول مصلحة القبيلة إلى نهاية تلك الجملة ، فالتناقضات القبلية في الصحراء ظلت محدودة وعابرة ، إذ كلما شبت توترات بين قبيلتين تدخل أهل السداد والرأي الصالح منهما ومن غيرهما من بقية سكان المنطقة وعقدوا الصلح بين المتنازعين ، ثم إن تطبيق قواعد الإسلام بتسامحها وتَعَازِيرِها وحدودها ، كانت الموئل الذي تفك بواسطته كل النزاعات ، أما السيطرة للقبيلة القوية فهذه الظاهرة يمكن أن تسود في المجتمعات التي كان تم انقيادها إلى نظام معين ، أما عندنا في المغرب الذي ظلت الصحراء جزءا لا يتجزأ منه فلم تطرح هذه الظاهرة ، لأن القبائل كانت تدين جميعها بالولاء لملك البلاد ، كما سيطر عليها نظام اجتماعي خاص بها جنبها كثيرا من أسباب المواجهة ، فلقد اتبعت جميع قبائل المنطقة طرقا رائعة في حسن التطبيق الجيد لنظام التكافل الاجتماعي الإسلامي ، فمثلا استغلال هذه القبائل للأراضي الزراعية يتم مسانهة ، إذ كل من نزل عليهم المطر بأرض زراعية عليهم تقسيمها بالسوية بين أفرادهم والقادمين لنفس الغاية ، ثم يحرث كل فرد نصيبه فيرجع إليه أمر حمايته قبل حصاد زرعه ، وعند جني الثمار يرجع حق استغلال الأرض خلال السنة القادمة للمهتمين القادرين على

1) الصحراء عقدة التجزئة ، ص 75 .

تحمل لوازم الحرث المقيمين بقربها والسابقين إليها . وهكذا بقي عطاء الأرض يستفيد منه جميع المقتدرين على استثمارها من جميع السكان ، فاستثمرت الأرض على الدوام ، واختفت ظاهرة الاحتكار ومعها ظاهرة الإقطاع والنزاعات العقارية . علما بأن طبيعة الترحل وندرة الماء لم تمكن من ظهور تنمية فلاحية كبيرة من حيث بذر الأرض ، ولكن النظام الاجتماعي حد من التنافس ، ونفس الشيء يقال عن استغلال مياه الشرب، إذ العادة جرت على أن الماء إذا كان قليلا فقد تتبع فيه مسطرة التناوب : الأول بالأول حتى يسقى الكل .

هذه الأوضاع الاجتماعية ، لم تترك مجالا لظهور سياسة غلبة القبيلة الكبيرة كما أشار إليه علي الشامي في كتابه "الصحراء وعقدة التجزئة" عندما قال :

"تمركز الرقيبات في الصحراء الغربية مع تطورات سياسية تتميز بمنازعات واتفاقات مع أطراف محلية وخارجية، يصعب تفسيرها أو تبريرها دون الأخذ بعين الاعتبار مصلحة القبيلة التي تفوق كل مصلحة[1]" .

هذا الكلام تمت صياغته بطريقة سياسية استطاعت إخفاء كثير من المعاني ضمن عمومية الكلمات .

---

1) علي الشامي في كتابه «الصحراء وعقدة التجزئة» ، ص 74

وللرد عليه إضافة إلى الملاحظات العامة التي تمت في الفقرة التي سبقته مباشرة ، فإني أضيف إليه ملاحظات أخرى هي :

ينبغي أن نوضح أن الرقيبات بتركيبتهم السلالية لا يعرفون هذا النوع من العصبية القبلية التي يستخلصها الباحثون من مختلف الأنظمة القبلية فيقيسون عليها دون البحث عن اتحاد العلة ، فالرقيبات اسم انضوت تحته أفواج بشرية انتسبت إلى زعيم ديني عن طريق انحدار البعض منه من حيث الدم ، وتبعية البعض له روحيا ليشكل العنصران نظاما قبليا مرنا فيما يرجع لمحاولة الانتساب إليه ، وقد ساهم في هذه المرونة أسباب عدة منها : نظام الزاوية الذي قدم به الجد الأعلى للقبيلة الشريف الشيخ سيدي أحمد الرقيبي ، فنظام الزاوية الدينية مناقض للتشبث بالعصبية القبلية ، فتلاميذ الزاوية أخوة في الدين ، همهم في تحصيل العلم وتهذيب النفس وإصلاحها من خلال سلوك إسلامي ملتزم واجتهاد مطرد لتحصيل العلم ، أما انتقال أتباع الزاوية إلى الاندماج في قبيلة تخصهم ، فهو شيء يرجع إليه تركيب كثير من قبائل الجنوب ، ولعل الدافع إليه هو قلة السكان في المنطقة ، والتنقل من جهة إلى جهة مما يمكن أن يكون حتم على أتباع الزوايا أن يربطوا حلفا يجمعهم أطلق عليه اسم القبيلة لحماية مؤسستهم الفكرية رغم المحل الذي انتقلت إليه ، ولصد المواجهات الأوربية التي اهتمت مبكرا باحتلال الأقاليم الجنوبية ، وأيضا لإمكانية حماية المكتسبات من اللصوص والمغيرين الذين عرفتهم المنطقة في كثير من المراحل .

هذه الملاحظات تمكننا من القول إن الشيخ سيدي أحمد الرقيبي في بداية القرن السادس عشر على حد قول الشامي السابق فيما يرجع لضبط التاريخ ، أقول إن هذه الملاحظات تجعلنا نستنتج أن هذا الزعيم الديني استغل مكانته الدينية والإصلاحية ليقدم للمنطقة نموذجا يكفي حمل اسمه للتمتع بجميع حقوقه ، وهي ميزة تنبيء عن الهدف الأسمى لمؤسس هذا التنظيم الاجتماعي المنتظم تحت اسم الشيخ أحمد الرقيبي، إذ كان يريد توحيد جميع من انتمى إلى أسلوبه الديني في جماعة إسلامية واحدة ولاؤها وبيعتها لملك البلاد في مراكش أو فاس أو في أية مدينة من المملكة استقر فيها ، وقوتهم ووحدة صفهم مُرصدة لمواجهة من رام استعمار الأطراف الجنوبية للمملكة ، أو من حاول الاستخفاف بتطبيق قواعد الدين . أما عن جهاد هذه القبائل واستماتتها في وجه الغزاة المتسللين إلى الصحراء فأكثر من أن تصفه الأقلام ، وسيظل متجددا عبر الأيام ، فلقد رأينا من جهادهم الكثير ، ونحن نستعرض بعضا من صفحات جهاد قبائل الجنوب ضد المستعمرين .

والآن نصف كيف ظلت الإرادة الرُّقَيْبِيَّة تتمسك بوراثتهم لجدهم علي رضي الله عنه في الشجاعة والصمود في أوجه أعداء الإسلام عبر الوحدة الوطنية ، ففي سنة 1947 وعلى إثر رجوع المغفور له محمد الخامس من طنجة خف المرحوم القائد الحبيب بن البلال بن أحمد الأكيحل ، وهو ءانذاك قائد مجموع الرقيبات الذين شملهم النفوذ الفرنسي ، ومن منطلق غيرته الوطنية وروحه الدينية ، شعر مع غيره من ساسة هؤلاء ومجاهديهم ببعض التصرفات الاستعمارية المريبة ، والحال

آنذاك أن المجاهدين الرقيبات وإخوتهم جميع قبائل الجنوب المغربي لم يمض على وضعهم السلاح في وجه المستعمر سوى سبع سنوات ، وللحيلولة دون أي تأويل لانتماء هؤلاء الشرفاء سلوكا ومحتدا لوطنهم المغرب خف القائد المرحوم الحبيب بن البلال الى الرباط في خريف 1947 ، فمثل أمام جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، فقدم له بيعة الصحراء عموما بصفته أحد أعيانها ، وكل موقف للحق ومن أجل الشرف والدفاع عن المبادئ يمثل فيه كل فرد جميع الأمة ، وبصفة أخص ومن منطلق التمثيل الرسمي قدم بيعة الرقيبات ومن خلالها بيعة الصحراء للعرش العلوي ، فأتى ذلك الإجراء تجسيداً للإرادة المغربية بالجنوب لقمع النيات الانفصاليَّة التي استهدفتها مؤتمرات الدول المستعمرة من قديم .

ويعد هذه الوقفة الشجاعة ظل قادة الرقيبات في تيندوف وبئر أم كرين وشمال ءادرار وفي مختلف ربوع الأقاليم الجنوبية يجاهرون الاستعماريْن الفرنسي والإسباني بمغربيتهم وإخلاصهم لبيعتهم ، وكلما اشتد الخلاف بينهم مع حاكم من حكام الاستعمار ذكروه بانتمائهم لمولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه بصفته الجد الأعلى لهم وتمر به سلسلتهم العلمية ، ثم يجاهرون بأن ملك الدوحة العلوية ابن عمهم ولا يمكنهم استبداله بغيره ، وفور رجوع جلالة المغفور له محمد الخامس هو ووارث سره جلالة أمير المؤمنين أيده الله كان قادة الرقيبات من مختلف الجهات يؤدون البيعة لجلالته بإخلاص وشجاعة ، فقدم المرحوم القائد الحبيب ، والقائد الباعلي حمدي

ابن السالك ومولاي بن محمد البشير وغيرهم من رجالات أهل سيدي علال والفُقرة وأهلُ القاسم وإبراهيم والسلالكة وسلام وعلى رأس هؤلاء حميدي بن المحمود ، قدم جميع الشرفاء الرقيبات للرباط لتأدية البيعة ، ثم قدم المرحوم خطري ، وصيلة وصالح بن احنيني بن اللودى وأبناء الرّكَيْبِي كلهم مع أخيهم صيلة ، ثم محمود بن الخليل على رأس أولاد موسى وعلْي بُويَا وإخوته ، وكذلك مجموع شيوخ السواعد وعلى رأسهم المجاهد الكبيرُ أحمدُ بنُ حمّادي بن حْميميد ، ثم العلماءُ الأجلاءُ أبناء البصير وعلى رأسهم المرحوم اليوشع والحنفي ، وبائع العالم الجليل محمد محمود بن بيد الله الزاهد الصالح المصلح الذي ظل رافِضاً أي تعامل مع الإدارة الاستعمارية حتى خرجت من الأقاليم المغربية . ويترجم جهاد الرقيبات ضد المد الاستعماري ما قالوه هم أنفسهم في الكلمة التي ألقاها أحد أعيانهم في الجلسة الختامية لندوة البيعة والخلافة بالعيون سنة 1985 حينما قال : "فمن هذا الجهاد الذي قامت به قبيلة الرقيبات ضد الدولة الفرنسية الذي استمر ثلاثين سنة بالضبط دفاعا عن الوحدة الترابية وإخلاصا للدولة العلوية الشريفة ، فإليكم بعض هذه المعارك الشهيرة مرتبة حسب الزمان والمكان :

1 ـ معركة الكويشيش سنة 1912

2 ـ معركة التويدرارت سنة 1912

3 ـ معركة اكجوجت سنة 1912

4 ـ معركة المطلع سنة 1912

5 ـ معركة "يطن" سنة 1912

6 ـ معركة زويـزل سنة 1914
7 ـ معركة الكطـار سنـة 1914
8 ـ معركة الابيار البيض سنة 1914
9 ـ معركة ءاحيـميـم سنة 1914
10 ـ معركة الحفرة الاولـي سنة 1914
11 ـ معركة واد الم سنـة 1914
12 ـ معركة الكيدري سنـة 1916
13 ـ معركة الكليب سنـة 1916
14 ـ معركة الـوس سنة 1916
15 ـ معركة الخرفانيات سنة 1916
16 ـ معركة ام غوابة سنة 1922
17 ـ معركة الحفر الثانية سنة 1922
18 ـ معركة الطريفيات سنـة 1922
19 ـ معركة برميل سنـة 1922
20 ـ معركة ءازويك سنة 1923
21 ـ معركة ايمطلان سنة 1923
22 ـ معركة تينبكتو سنـة 1923
23 ـ معركة تيگيگيلت سنة 1924
24 ـ معركة المقالك سنة 1924
25 ـ معركة تجنيـن سنة 1925
26 ـ معركة الطريفيـة سنـة 1925
27 ـ معركة ميجك سنة 1926
28 ـ معركة دروم سنة 1928
29 ـ معركة العاگر سنة 1927
30 ـ معركة امبيقير سنة 1930

انتهى بالنص من كتاب البيعة والخلافة الذي أعدته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية .

وهذه المعاركُ بهذا الوصف أتتْ في كلمة الرقيبات المنشورة في صفحة 1236 من نفس الكتاب المذكور ، وهذه السلسلة من المعارك ليست بغريبة على جهاد الشرفاء الأبطال الرقيبات ، وتستوجب هذه اللائحة بعض الملاحظات الشكلية التي لا تمس من قداسة احترام النص الذي أدلى به أصحاب شرف القيام به ، والملاحظات هي :

يمكن أن يكون التاريخ فيما يرجع للسنوات فيه بعض التقديم أو التأخير لأن الكتاب انذاك يضبطون تاريخهم بالعدد الهجري ، ولذا فلا يستبعد أن تكون بعض المعارك وقعت في غير السنة التي نسبت لعام 1914 .

أما الملاحظة الثانية فهي أن كثيرا من أفراد قبائل أخرى ساهموا في هذه المعارك التي تعد رصيد الشرف الذي ساهم فيه أبناء الصحراء كلهم ، لكن الرقيبات كانوا أكثرية المجاهدين في كل تلك المعارك ، فليس بكذب نسبتها إليهم ، كما يحق لكل المجاهدين الذينَ شاركوا فيها أن يَنْتسبوا إليْها وينسبوها لأنفسهم ، لأنهم جميعا من بين أبطالها وصناع أمجادها ، فكل واحد من أهل بدر نسب إليها وانتسبت إليه .

وكذلك المعارك التي خاضها أولئك المجاهدون وفي مقدمتهم ومن أكثريتهم الشرفاء الرقيبات ، تمت صدا للمستعمر الفرنسي بما تملك فرنسا من عتاد وجحافل كما نابت فيه عن الدول المسيحية كلها ، لذا فإن الشرفاء الرقيبات شكلوا إما الانفراد ببعض هذه المعارك أو تشكيل الأغلبية العددية في

بعضها ، ولذا فلا تناقض بين نسبتها لأولئك الشرفاء ، أو نسبة بعضها لجميع مجاهدي قبائل الصحراء ، فإذا ما ذكرنا بعض هـذه المعـارك في المبحث المخصص لجهاد الكل من أجل الدفاع عن الإسلام والوحدة المغربية ، فيجب أن لا يفهم من ذلك تكرار أو تناقض مع نسبتها هنا لهذه القبيلة ، وعندما سيطر الاستعمار على جميع أجزاء الوطن وانقطعت مصادر التسليح وتوقفت معارك سوس التي ألجمت المد الاستعماري طيلة ثلاث وعشرين سنة بعد توقيع عقد الحماية وانقطاع موارد التسليح كما سيأتي ، عندها لم يبق أمام الصحراء بد من الاستسلام والدخول فيما دخل فيه جميع المغاربة ، فكانت قبيلة الرقيبات من السباقين إلى تسجيل ضرورة عمل سياسي ينظم أحوالها مع العهد الجديد على يد ملك البلاد جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، ولتوطيد عرى البيعة واستمرارها، كانَ القائدُ الحبيب بن البلال قائد رقيبات الشرق في حَضرة الملك المجاهد جلالة المغفور له محمد الخامس طيبَ الله ثراه ليقدم له البيعة سنة 1947 ، بينما كان قادة رقيبات الساحل يُنظمون مع نائب الخليفة في الصحراء جدنا العالم الشهير والولي الكبير الشيخ محمد الأغظف العمل السياسي ليجعل أحوال المنطقة كلها تابعة لخليفة السلطان بتطوان ، وستكون لنا عودة لتلك الإجراءات في فصل الجهاد المشترك لجميع قبائل الصحراء ، وإنما استشهدنا بهذه الجملة لنبين أن قبيلة الرقيبات ظلت وفية لعهد البيعة التي ربطتها بملوك الدوحة العلوية أعز الله شأنها وخلد في سجل الخالدين الصالحين ملكها .

ثم أن أبناء الرقيبات كانوا هم أول من أطلق رصاصة في وجه المتعنتين الفرنسيين سنة 1956 بأم العشار ومتركالة في معركة قادها المجاهد الكبير البطل الشجاع حبوهة ابن عبيد بمعية القائد الشجاع والمجاهد المخلص الكريم وابن الكرماء المرحوم ابَّا الشيخ بن السالك بن ابَّا علي ، وأيضاً ستكونُ لنا عودة إلى تلك المعارك في محلها .

أما عن الجانب الفكري ، فلدى أبناء الرقيبات فيه مشاركات جديرة بأن تتعرف عليها الأجيال القادمة ، فقد عم فيهم الاعتناء بحفظ القرآن من قديم ، وكذلك قراءة فرض العين، مع أن المنطقة قض مضجع أبنائها خلال القرون الأربعة الماضية تتابعَ تسللُ المهتمين الأوربيين باحتلالها ، ممّا جعلَ هَمَّ الكثيرين من أبنائها ينصب على الجهاد ومحاولة إبعاد الكفر عن بلاد الإسلام ، وهكذا تضافر عدم الاستقرار الذي يفرضه التبدي وشح المياه والأمطار بالمنطقة بصفة عامة ، والمناوشات التي لا يكاد يخلو منها وقت ، وبُعد المدن ، كل هذه العَوامل حَدَّتْ من انتشار التعليم على الصفة المطلوبة ، إلا أنَّها لمْ تُثَبِّطْ عزائم أصحاب الإرادة القوية من أبناء هذه القبيلة كغيرهم ممن اتجهت هماتهم للتحصيل من أبناء الصحراء ، ولذلك فقد أعطت علماء بارزين ، وحفاظا ماهرين ، ومثقفين مطلعين ، وبذلك فهي ليست أقل شأوا من بقية أقاليم المملكة ، اللهم ما كان من عدم اعتناء أهل الصحراء بالتدوين والكتابة بصفة عامة لثقتهم بالذاكرة القوية ، والتي إن انقطع مولاها تبعته محفوظاته .

هذا الواقع الذي يشكل قاسما مشتركا بين أهل الصحراء سيكون شفيعا لنا في عدم تقديم ما يناسب الرقيبات من كيفهم المعرفي لضياع الكثير منه وعدم تيسر الاطلاع على ما يعرفه الأفراد بنقل الرواية الشفوية ممَّنْ لم يتيسر لقياه ، فلم يمكن الاطلاع على ما اختزن في ذاكرته ، ورغم ذلك فإن أسرا متعددة عرفت بالعلم والاشتغال مثل أسرة أهل بيد الله من أبناء الشيخ ، وأهل إبراهيم بن سيد أحمد من البيهات ، وأهل البصير من المؤذنين ، وأهلِ الحميد من سلام ، أما حفظُ القرءان ومعرفةُ فرض العين فتلك حالة منتشرة في جلهم .

المبحث الثاني ـ قبائل تكنة

سيقسَّمُ هذا المبحثُ إلى الفروع الآتية :

الفرع الأول : معلوماتٌ عامّة حولَ هذه القبائل

الفرع الثاني : التعريف بتكنة ونَسَبِها

الفرع الثالث : الخصائصُ العامة لتكنة

الفرع الرابع : كيفَ استفادتْ تكنة من وضعها التجاري

الفرع الأول : معلومات عامة

هذه مجموعةُ قبائل تُكوِّنُ سكانَ وادي نول المعروف قديماً بكتب التاريخ دون تحديد تسمية القبائل التي تسكنه حتى عهد قريب ، حيث قيل إن قبائل المغافرة كانت تسكن فيه ، أما قبائل تكنة بتركيبتها الحالية فتمتد جنوبا حتى الضفة الشمالية للساقية الحمراء ، وتمتد من أقا شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا .

كما امتزجتْ معهم قبائلُ ءاية باعَمران ، القبائل المجاهدة المعروفة بالذب عن الوطن والإباء والشمَم ، فبجهادها ودفاعها عن الوحدة الوطنية أصبحت ءايةُ باعمران مرتبطاً اسمُها بتكنة، فلها معهم أحلاف ومصاهرات ، واندماج تجاري ، وجوار سكني ، فلا غرابة إذا شكل القوم مجتمعا واحدا .

لقد اصطلح على أن كلمة «تكنة» تشمل تَجَمُّعَيْن كبيرَيْن هما : ءايةُ بلَّة ، وءايةُ الجمل . وداخل هذين الحلفَيْن تنضوي عدة قبائل تجمعها كُلاً قواسمُ مشتركة تندرج في صلابة مقاتليها وشجاعتهم ، وإكرامهم للضيف ، والوفاء بالعهد ، واحترام أهل العلم والصالحين ، وقد تَميَّزوا منْ خلال نَشاطهم الوطني بكثرة انتمائهم لجيش المملكة عبر التاريخ .

وقبل الدخول في تفاصيل أحوال هؤلاء القوم لا بد من الإشارة إلى ملاحظتين :

الأولى هي أن قبائل تكنة تتوفر على رصيد كبير من الشيم الحسنة تُمَكِّنُ من الكتابة عنها دون النيل من أعراض وكرامة غيرهم من مشاهير الجهة أو قبائلها ، لذا فإننا ننتظر من شبابنا المثقف ، الذي نعتز بحسن أسلوب بعضه ، ننتظر منهم أن يلزموا أقلامهم العفة والترفع ، وعدم المَسِّ بأعراض الآخرين ، علما بأن كل قبيلة لها أبناؤها وكتابها ، وكلٌّ بإمكانه أن يُدَنِّسَ قلمه بأعراض الآخرين ، وقديما قال الشاعر :

«فَإِنْ سَتَرُوا عَيْبِي سَتَرْتُ عُيوبَهُمْ　　وَإِنْ بَحَثُوا عَنِّي فَفِيهُمْ مَبَاحِثُ»

فما هيَ يا ترى الفائدةُ من أن تُصْبِح الخزانات مكتظةً بكتبٍ صدرتْ عن مختلف شباب هذه القبائل ، ووجدتْ الأجيالُ القادمة نفسها أمام شتائم متبادلة ؟ فعلينا أن نعرفَ أن الكتابة للأجيال التي ما زالتْ في ضمير الزمَن ، فلْنرأفْ بهم ، ولْنَبعثْ إليهم رسالةَ السلام والاطمئنان والأخوَّة عند ما نكونُ جزءا من ماضيهم الذي عليه أن لا يسهم في عدم استقرار مستقبلهم .

أمـا النقطة الثـانيـة فـهيَ أن التـهـافت على الرجـوع إلى التمسك بالعصبية القبلية ومحاولة المرور إلى الاستحقاقات من خـلال نظمـهـا يُعَـدُّ تخلفـاً عن التطور الفكري والسـيـاسي والاجتماعي الذي توصلتْ إليه مجتمعاتٌ عدة ، فتمكنتْ من الوصول إلى توازنات اجتماعية متطورة علينا أن نسيرَ إلى ما وصلت إليه متمسكين بنظرة الإسلام الراقية في هذا المضمار، فاللّه قال : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾. وفي هذا الصَّـدَد لا بُدَّ أن يُدرِكَ الجـمـيـعُ أنَّ مـا تـخلَّتْ عنه الإنسـانـيـةُ بعدَ حروب وتجارب طويلة لن ترجع إليه استجابة لمطامع تنبئُ عن قِصَرِ أفق أصحابها .

أردتُ بهاتين الملاحظتين أن أنَبِّهَ إلى أن تاريخ هؤلاء القوم غنيٌّ بالبطولات ، زاخرٌ بالأمجاد ، مجهولٌ في كثير من فصوله، فأخلاقهم وعاداتهم وأعرافهم تكاد تُميِّزهم بقومية خاصة بهم تُغْنِي تنوع وتعـدد أنماط قـيم وتاريخ هذا الوطن ، فـلا داعي لكتابته بصحبة المسِّ بغيرهم .

أما عن دراسـة تاريخ ونشـأة وعادات هذه التجمعات فإن ذلك يسوقنا إلى الرجوع للقبائل الصنهاجية ، كما يتطلب هذا مـحـاولة تحديد صلتـهم بالدولة المرابطيَّـة ، وكذلك كيف دخلوا الإسلام ، والدور الذي لعبتْهُ مجموعة هذه القبائل التي شكلت عبر التاريخ جسراً رابطا بين شمال المملكة وجنوبها ، كما حمل أبناءُ هذه القبائل مشعل الجهاد لصدِّ المعتدين على الأطراف الجنوبية للمملكة ، وأيضـا ظلت قوافلهم تعمل على تحصـيل

الربح المادي عن طريق البضائع التي تتجر فيها ، وتحصل الربح الأكبر عند الله بحمل تعاليم الإسلام وكتبه إلى الأراضي التي وطئتها .

فمن هذه القبائل الصنهاجية انبثقت حملات الجهاد التي قادها عبد اللَّه بن ياسين ، فقضى بفضلها على الارتداد والوثنية ، وأسس دولة الإسلام العظيمة دولةَ المرابطين . وعلى ذكر هذه الدولة الصنهاجية أشيرُ إلى أن المثقف العربي تتملكه الدهشة عند ما يقرأ بعض المصادر العربية فيجدها عند الحديث عن المكونات الاجتماعية والظواهر التاريخية التي عُدَّتْ من أعظم إنجازات هذا البلد ، وهي إنجازات إسلامية عربية تُعَدُّ رصيدا تاريخيا يعتزُّ به كل مسلم ، ومصدر تلك الدهشة هو أن بعضا من كُتَّاب أبناء الأمة العربية لا يكتشفون عطاءات وتاريخ هذا البلد إلا في المجهر الذي صَوَّرَها به الكُتَّابُ الغربيون ، الذين يتقاسم تصوراتهم حقد الكنيسة على الإسلام، وطمع دولهم في السيطرة على مختلف القدرات العربية ، ومن بين الأساسيات التي رسموا لذلك محاولة تشويه كل المؤسسات الإسلامية . وإلى هذه الفئة أشار الأستاذ السوري علي الشامي في كتابه «الصحراء الغربية وعقدة التجزئة في المغرب العربي» عند ما قال : «الذين باتوا عاجزين عن رؤية التاريخ بدون نظارات الغرب» . ومن تلك الكتابات التي سعت إلى تشويه الحضارة الإسلامية ما نقله الأستاذ مصطفى نعيم عن الوثائق الفرنسية حول غزو شمال أفريقيا والأندلس ، ترجمة أكاتو ، المكتبة العربية الفرنسية ، 11 ، الجزائر ، في الكلام الذي نقله

عنها الأستاذ نعيم تحت عنوان ظهور الإسلام : «في البداية لم تقم السلطة العربية بأي إجراء سواء من حيث الأسلوب أو من حيث التخطيط ، فقد وصل القائد عقبة بن نافع إلى وادي نون حوالي سنة 682 م في طريقه إلى الصحراء ، حيث غنم وسبى بعض القبائل الصنهاجية بمنطقة الفرصية ، ورغم أن الشمال الأفريقي أصبح يعتبر نظريا من أجزاء الأمبراطورية العربية سنة 711 ، فإن الأمر لم يتجاوز إطار الاعتراف الضمني بالسلطة الأمبراطورية ، فبقي البربر على إسلامهم ينظرون إلى العرب نظرتهم لكل أجنبي دخيل ، وزاد من حدة ذلك أن سياسة الغزو العربية كانت تستلهم خططها من سابقاتها[1] ...» .

هذا الكلام يفرض الواجب الإسلامي تذكير القراء بعدم صدقه ، فالإسلام دخل فاتحاً القلوب للعقيدة السمحة لممارسة دين لن يُقْبَلَ من الإنسان دينٌ غيره ، فهوَ لم يأت لتركيز سلطة عربية ولا عجمية ، وإنما هاديا للناس كافة سَوَّى بينها في الحقوق ، وأخضعها أيضا لنفس التساوي لواجباته ، فنظامُ حكمه مسطر من عند الله على لسان نَبِيِّه ، فقد جعل الناسَ كأسنان المشط ، وأوضح أن اللون والجنس والعرق أمورٌ لا تشكل فارقاً يجعل إنسانا أفضل من إنسان ، فقد قال الحديث الشريف : «الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» الحديث ـ وأمر بالعدل ، وبقي هو شعار الفاتحين مطبقين قول الله : ﴿يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين

---

1) الصحراء من خلال بلاد تكنة للدكتور الباحث المثقف مصطفى نعيم .

شـهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاَّ تعـدلوا ، اعـدلوا هـو أقـرب للتـقـوى ، واتقـوا اللَّه ، إن اللَّه خـبـيـر بما تعملون﴾.

فالشريعة إذا لم يكن هذا موضوع استطراد مفاخرها ، وتوضيح منهجها القيِّم وعدلها وسماحتها ، فإنه يجب أن نحذر من إحياء كتابات أعدائها على صفحات كتبنا التي ستكُونُ بيَدِ أجيالنا القادمة.

أتينا بهذه النبذة هنا لأن كتاب «الصحراء من خلال قبائل تكنة» حاولنا أن نستخلص منه بعض أخبار القوم بشـهادة أنفسـهم عليهم لشحِّ المصادر من جهة ، ولأن الكتَابَ ينشرُ مفاخرهم ، ومن جهة ثانية لمكانة كاتبه في مجال البحث الجامعي . وعلى ذكر فتح عقبة لقبائل تكنة أو مروره بأرضهم نتساءل عن كيفية علاقته بهذه القبائل : هل كانوا من بين الوافدين معه ؟ أم وجدهم في أرض وادي نون ودرعة أمامه ؟ وإن صح الافتراض الأخير ، فهل كانت هذه القبائل مستقرة بأرضها الحالية وادي نون ؟ ، وأيضا هل هي من الصنهاجيين الملثمين ، أم من قبائل صنهاجة الأخرى ثم تزيت بزي الملثمين في فترة لاحقة ؟

بعد البحث عن أجوبة صحيحة عن هذه التساؤلات التي بقيت لديَّ - وأظن لدى غيري من المختصين في التاريخ - حلقة مفرغة في سلسلة أنسابهم الصنهاجية أو المعقلية ، لا للشك في انحدارهم من أحد الجذعين ، فذلك شيء مقطوع به وثابت ،

وتواترتْ عليه الحكايات من طرف الجميع . لكن لم تتحدث لنا الوثائق عن صلتهم بعبد اللّه ابن ياسين كيف تمت ، وكذلك لم نجد تسلسل شجرة توضح لنا من أي فرقاء صنهاجة هم ، فلم نجد أثرا لمواجهات تمت بينهم وبين جيوش دولة المرابطين كما جَرى معَ قبائل صَنهاجة الأخْرَى في رأس وادي دَرعة ، كما عثرنا على وقائع سيطرته على ماسة وتيزنيت وتارودانت ، فهل وجدهم عبد اللّه على دين الإسلام وأقرهم على حالهم ولم يحتج إلى مواجهة معهم ؟ وإن صح هذا فمعناه أنهم انفصلوا عن أصولهم الصنهاجية في رحلتها الأولى قبل الإسلام واستوطنوا مناطق وادي نون . ولما نتقصَّى ملخصاً من أخبار عبد اللّه بن ياسين لن نجد توضيحا كافيا لهذا التساؤل ، بل الثابت أنه لما اجتمعت لعبد اللّه بن ياسين ألف من أشراف صنهاجة سماهم لأول مرة المرابطين لاستقرارهم برباطه المنعزل عن القبائل الوثنية الصنهاجية المتناثرة فيْ أرجاء الصحراء ، ففقههم ورسخ فيهم الدين الاسلامي ، ورغبهم في ثواب الجنة إن جاهدوا في سبيل اللّه ، وحذرهم من عذاب الجحيم إن هم أحجموا عنه بعد قدرتهم عليه ، ثم ذكرهم بأنهم وجوه عشائرهم ورؤساء قبائلهم ، فأمرهم بدعوة ذويهم إلى الرجوع إلى الإسلام وإلا فليقاتلوهم ، وبعد أن أعذروهم سبعة أيام متتالية اتصل فيها كل وجيه من أتباع عبد اللّه بن ياسين بقومه فلم يأبهوا به، قام عبد اللّه بذلك بنفسه فلم يُجْدِ شيئا ، عندها أمرَ أتباعه بقتالهم ، فبَدأوا بقبيلة گدالة فهزَمَهم وسبَى منهم ودخلَ في جيشه منهم ما تضاعفت به قوته ؛ ثم ذهب إلى لمتونة فقاتلهم

حتى دخلوا في الإسلام ، فحَسُنَ إسلامهم وازداد بهم نصرةً ومنعة ؛ ثم قبيلة مسوفة ؛ فلما رأى ذلك سائر قبائل صنهاجة تسابقوا إلى الإسلام زرافات ووحدانا[1] .

لم يقف عبد الله عند هذا الحد ، بل إنه قدر واجبه الديني فانبرى يكتسح الصحارى متوجها من الجنوب إلى الشمال حتى وصل جميع أجزاء المملكة ، ففي هذه الرحلة كانت أرض وادي نون من بين المحطات التي مر بها وثبتَ فيها الإسلام ، والمؤكد أن سكانها استمر انحدارهم من القبائل الصنهاجية من قديم ، لكن أي مصدر موثوق لم يعين لنا لأية تلك القبائل كان انتسابهم ، لأن ضبط الوقائع التاريخية على أديم هذه البقعة سيتصل ابتداء من فترة ستأتي بعد هذه الفترة .

ونرى في الكتاب الذي كتبه أهل سجلماسة ودرعة إلى عبد الله بن ياسين وغياب ذكر هذه المنطقة ما يطرح عدة أسئلة ، فهلْ معنًى ذلك أن سكانَ وادي نول انضمّوا قبل ذلك لجيوش عبد الله ؟ أم أنهم لم يكونوا مستقرين في تلك المنطقة ؟ أم أن طريق الصحراء ءانذاك كانت تمر بعيدا منهم إلى الشرق ؟ على أي حال فإن هذا واقع يكرس ذلك الفراغ الذي عرفته السجلات التاريخية عن هذه المنطقة خلال تلك الفترة ، أما القبائل التي كانت بدرعة ءانذاك وسجلماسة فهي مغراوة بقيادة رئيسها مسعود بن وانودين ، فقتله وسبى أمواله ، وانتصر على بقية

1) انظر الاستقصا 2 : 10 ، اقتبسناه منه بالمعنى وليس بالحرف .

تلك القبائل . والاستنتاج الراجح أن المنطقة التي تقيم بها تكنة حاليا كانت محسوبة على الصحراء ، يؤيد ذلك أن المؤرخين لما تكلمُوا على غَزْو يوسف بن تاشفين معَ ابن عمِّه أبي بكر بن عمر الذي ولاه عبد الله بن ياسين مكان أخيه يحيى ، الذي استشهد في فتوحاته لبلاد السودان ، أقصد أن المؤرخين لما تكلموا على فتح المرابطين لبلاد سوس ، لم يذكروا إلا ماسة وتارودانت ، مما يوحي أنهما أول المراكز الحضرية السوسية لمن قَدِمَ من الجنوب نحو الشمال ، ومما يؤيد هذا أن الرحلات الأخرى لم تمر بأرض وادي نون ، وهذا ما قاله «الاستقْصا» ، فيما ورد أن عبد الله لما اهتم بالرجوع إلى الصحراء ذهب من أغمات وجعل طريقه على تادلة ، مما يظهر أنه سافر على المسالك الشرقية التي تمر على النجود العليا التي يتخللها وادي درعة ، ولكن الطرق الشرقية ستتحول في فترة متأخرة جدا بعد هذا بعدة قرون ، فتحدثت الوثائق المحفوظة عن ذلك ابتداء من عهد السعديين ، فاستعمال الطرق المارة بوادي نون حتى عهد مولاي إسماعيل الذي اتخذت فيه الأمور مظهراً أكثر جلاء وتحكمت الدولة في أيامه في الممرات العابرة للصحراء مروراً ببلاد نون ، وأصبحت تكنة معروفة بنفس الاسم ومتخذة نفس المميزات الاجتماعية المعروفة بها حتى الآن .

لا نريد أن يُفْهَمَ من هذا أن هذه البلاد التي تقطن فيها قبائل تكنة لم تكن محطة مهمة من محطات القبائل الصنهاجية أثناء تنقلها بين جنوب البلاد ووسطها ، بل ظل وادي نون مركزا مهما لتعاقب السكان لسهولة الحياة فيه ، إلا أن تسلسل

الوقائع التاريخية لم نعثر عليه على الطريقة التي تمكننا من تسجيله ، على أن انقطاع المعلومات في فترة من الفترات لا يبرر استنتاجات تصور وضع مجتمع أو قطر على غير حقيقته ، أقصد بذلك جملة رواها الكاتب العربي المحترم علي الشامي ، والذي تتسم تحاليله بشمولية المعلومات ودقة الملاحظة، إلا أن ما كتبه في صفحة 20 من كتابه حول الصحراء يتطلب التعليق بذكر بعض الحقائق لرفع بعض اللبس الذي حملته الفقرة الأخيرة من نفس الصفحة ، عندما قال : «الصراع الدائم حول السلطة في المغرب العربي بين قبائل مشرقية ومغربية تارة ، وبين قبائل مغربية تارة أخرى ، كان يدخل في مشروع توحيدي دائم التوتر وعدم الاستقرار ولكنه ثابت ، أن القبيلة الأقوى تملك هدف إخضاع القبائل الأخرى والسيطرة على السلطة الواحدة ، بديهي أن تناقضات تسمح بتفسير صعوبة استقرار وحدة المغرب العربي ، ولكن نتائجها وحركية انتقالاتها التاريخية وتناقضاتها لا تسمح بتاتا بتحويل مناطق النفوذ المؤقتة إلى حدود ثابتة كمقدمة لتشكيل وطن قبلي إسلامي في شرق المغرب أو غربه[1]» .

هذه النبذة تستحق التنويه والتعليق ، أما التنويه فلكونها نبهت الشباب العربي إلى أن الحركات الداخلية لا يمكن أن تفتح لها الفرصة لتمزيق جسم الأمة العربية بخلق كيانات مصطنعة تخدم مصالح أعداء الأمة الإسلامية والعربية ،

---

1) الصحراء الغربية وعقدة التجزئة في المغرب العربي 200 .

فالنتيجة التي خرج بها الكاتب المحترم تخلد له الرأي العربي والإسلامي الوطني المحترم .

أما الملاحظة فهي ترجع إلى أن المغرب الأقصى حل مشكلة تناحر قبائله على السلطة من عهد بيعته لسبط النبي عليه الصلاة والسلام مولاي إدريس رضي اللّه عنه ، فمن ذلك التاريخ إلى الآن انتهت والحمد للّه محاولة القبيلة القوية ، كما ذكر الكاتب ، لأن هذا البلد تجاوز مشكلة نشوب صراع القبائل من أجل الوصول إلى قيادة البلاد وذلك منذُ أن بايع سبط النبي عليه الصلاة والسلام ، جاعلا بذلك حدا لصراع ما سُلَّ سيف في الإسلام على أكثر مما سُلَّ في شأنه . نحن هنا لا نريد أن نفتح قوسا لإثارة حوار سياسي تجاه هذه المسالة ، فإن كل مسلم يدرك مدى أهمية أمر البيعة الذي تناولته ءايات قرآنية وأحاديث نبوية من أغناه اللّه عن تأويلها على غير محملها فليحمد اللّه ، ويكفي بأن نذكر بقول اللّه عز وجل : ﴿يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ ، وفي الحديث الشريف قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «من مات ولم تكن في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» ، وحديث حذيفة بن اليمان القائل : «كان الناس يسألون رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» من حديث طويل متفق عليه قال في ءاخره : «وإذا لم يكن جماعة ولا إمام » فردَّ عليه الرسول صلى اللّه عليه وسلم : «اعتزل تلك الفرق كلها ولو تعض بجذع شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» رواه الخمسة .

ولذا فإن بلادنا ولله الحمد يعتز سكانها بكونهم يسعدون بتطبيق أوامر النبي صلى الله عليه وسلم في انقيادهم لإمام مبايع بيعة شرعية وتقودهم الدوحة النبوية الكريمة ، وبذلك فلا مجال لصراع القبائل من أجل قيادة الأمة .

فمسألة الانقياد لسلالات ءال البيت في الدوحة العلوية الشريفة من الثوابت المغربية ، وليس من باب الخروج عن الموضوع إذا أثبتنا هذه الملاحظة في المبحث المخصص لمجموعة قبائل تكنة التي ظلت تشكل رافدا بشريا من روافد الجيش المغربي عبر التاريخ وركيزة أساسية من ركائز استقرار الدولة في هذا الجناح الغربي من الأمة الإسلامية .

الفرع الثاني : التعريف بتكنة

تتميز تكنة بعادات خاصة وممارسات للحياة متميزة عن أخلاق وعادات الملثمين الذين عاشوا جنوبهم وعن بقية القبائل البربرية المحيطة بهم ، مما يثير الملاحظة بإمكانية نعتهم بقومية خاصة داخل جسم هذه الأمة التي يعد تنوع عادات أبنائها واختلاف أساليب حضارة أقاليمها دليلا من دلائل ضخامة رصيدها الحضاري . ولعل هذا أيضا يكرس ما ادعاه بعض المؤرخين من أنهم خليط من المغافرة وصنهاجة ، إذ أورد المختار السوسي في الجزء التاسع من المعسول بأنَّ ءايةَ الجمل من تَكنة من نسل العرب المغافرة ، وبعضَ ءاية بَلَّة من نسل القبائل الصنهاجية ، ولا يستبعد أن يكون هذا الامتزاج أعطى خليطا بشريا متميزا جمع الشيم الفاضلة من الطرفين .

أما عن أصول قبائل تكنة ، وهل هم منحدرون من أصل واحد وعلاقتهم قائمة على العصبية الدموية ؟ أم أنهم ينتمون لعدة أصول وعلاقاتهم تعتبر حلفا عسكريا من حيث الدفاع عن النفس ، ونمطا حضاريا أعطى عدة مثاليات اجتماعية ، أنجبها مجتمع مدني هذب الإسلام أخلاقه ، واستفاد من مختلف طبائع ساكني جهات الوطن التي وضعه موقعه الجغرافي ، رابطا بين مختلف عادات وأعراف ساكنيها ؟

لعل هذا الافتراض الأخير هو الصحيح ، فجل المؤرخين وصفهم بالحلف ولم يعرج أحد على رفعهم لنسب واحد ، ومن بين أولئك المؤرخين الباحث مصطفى نعيم في كتابه عن تكنة وهو منهم ، والمرجح أنهم ينحدرون في جلهم من صنهاجة ، ويقال إن بعضهم من عرب المعقل ، وإليه ذهب المختار السوسي في الجزء التاسع من المعسول كما أسلفت ، وعنه أخذ محمد الغربي فرفعَ نَسَبَ ءاية الجمل إلى مَعقل، كما أنَّ المختارَ السوسي رفع نسب الصنهاجيين منهم إلى الأصل الجزولي ليرقى نسبهم عن طريق أولئك إلى بني هلال ، وحصر الغربي عدد قبائلهم في اثْنَتَيْ عَشرةَ قبيلة ، بعضُها يَدخلُ معَهم في أحلاف وليس بينه معهم نسب معروف[1] ، ونحن نرجح نسبتهم جميعا إلى المعقل معتمدين على عدة مبررات منها : اندماجهم في عادات وأعراف أولئك القوم ، ومنها توطن قبائل المعقل قديما في تلك المنطقة ، ثم انقطاع اتصال التاريخ لعدة

1) محمد الغربي ، كتاب الساقية الحمراء ووادي الذهب ، ص 121 .

قرون بيننا وبين تسلسل الوقائع من صدر الدولة المرابطية حتى ءاخر دولة الموحدين ، ومع ذلك فنحن ملزمون من حيث التوثيق بالاستناد إلى ما قاله المؤرخون في الموضوع ، فالسوسي يروي في بعض مقولاته عنهم أنهم جزوليون توطنوا وادي نون قبل الفتْح الإسلامي ، وهاؤلاءِ همْ ءايةُ عُثمان ، بينَما ءايةُ الجمل يرتفع نسبهم إلى عرب المعقل قدموا على الصحراء مع مطلع القرن الثالث عشرَ الميلادي . ومَهْما يكنْ منْ أمْر ، فإنَّ تداخُلَ مختلف انتماءاتهم التي يتكونون منها أعطى نسيجا اجتماعيا استحدث أنماطا من الاندماجية ذابت فيها السلالات المختلفة ، فأعطت قيما حضارية تعرف عليها الوافدون عبر التاريخ لوادي نون للاستفادة من مركزه التجاري، كما حملها تجارهم الذين ما صدتهم صعوبة الحياة ءانذاك عن التوجه لمختلف الأقطار الأفريقية لإيصال تجارتهم إليها والقدوم بما لديها من بضائع وذهب وعبيد وغير ذلك ، وكل رحلة كانت تنقل تعريفا بالمنطقة وساكنيها ، حتى اكتسب سوق كليميم شهرة في غرب أفريقيا لا يتمتع بها غيره من بقية أقاليم الجنوب بفضل أبناء تكنة الذين تعاطوا وضعا خاصا ميَّزَهُمْ بأخلاقيات حضارية رائعة ، وهذا لا ينفي أنهم من جذوع مختلفة ، وأن رحلاتهم تتابعت إلى وادي نون فاستقروا به من قديم . وبسبب جِدٍّ مجموع أبناء تكنة وخبرتهم في العمل وكدهم لتحصيل المال من طرق الحلال وإنفاقه في أوجه البر ، تعاونوا في حلف لحماية أنفسهم وأموالهم .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى توسيع دائرة تكنة لتشمل قبائل أخرى لا جدال في أصلها المعقلي ، مثل بني دليم المنحدرينَ منْ وديّ بن حسّان كما سيأتي ، لكنْ نظراً لوُجودهم بنفس المنطقة ، واشتغالهم بنفس الحرف ، واهتمامهم بنفس الاهتمام ، والدخول في بعض الأحيان في تحالفات عسكرية مع إحدى مجموعتي تكنة ، فمن خلال تعاطي هذه الحرف والاستقرار بنفس المنطقة في تاريخ متقدم جدا لا يستبعد أن تكون نسبة قبائل أخرى إليهم صحيحة ، ومنها كما قلنا أبناء دليم والعروسيون وأبناء تيدرارين ، مع أن هذه القبائل الثلاثة لم تبق على التشبث بالانتماء إلى تكنة ، فالتيدراريون ينتسبون إلى الأنصار ، والدليميون من عرب المعقل ، والعروسيون من الشرفاء الأقحاح كما سيأتي .

لكن هذه النسبة تذهب بنا إلى طرح بعض التساؤلات عن تسمية تكنة ، والتساؤل هو هل هذا المجتمع المتميز بأخلاق وعادات تخالف كثيرا من عادات القبائل التي احتكت بها بحكم الجوار ، أو التي اجتمعت معها في الأصول البعيدة ، فهل يمكن وصف تكنة بقومية خاصة انفردت بعادات وطباع تخص ذلك المجتمع ، وهل يمكن فصل تكنة عن غيرهم من الملثمين الصنهاجيين ، وهل التجمع التكني يشمله لقب الشناقطة ؟ ففي ما يرجع لتتبع تاريخ نزوح السلالات العربية البعيدة ، والتي ترجع إليها تكنة لا محالة ، فلا يستطيع الباحث فصله عن ظاهرة الممهدات البعيدة التي ظلت تنمو داخل تمايزات سلالية تتوزع اهتماماتها داخل الرغبة في الاستحواذ على المكتسبات،

في إطار تواصل لم يمكن الاستغناء عنه للدفاع عن النفس من خلال تحالفات قبلية سرعان ما تحولت إلى نواة تأسيس شبه قوميات داخل الأمة الواحدة ، على رأي من أجاز أن تضم الأمة الواحدة عدة قوميات ، فإذا ما أخذنا بمختلف المقولات التي نظر بها فلاسفة القرن التاسع عشر الآراء المتضاربة حول الأسس التي يمكن أن تبنى عليها أية قومية ، لتمكنا من القول إن القبائل المغربية الصنهاجية التي انتقلت إلى الجنوب المغربي شكلت قومية ضمت جميع المقومات التي لا تتطلب أي قومية سوى توفر واحدة منها ، بينما يلاحظ توفرها جميعا في أولئك السكان المغاربة الذين انحدروا إلى الجنوب ، فلقد توفرت على الملامح العامة التي اشترطتها نظرية القومية اللاواعية ، فلقد توفرت الجماعات البشرية المشار إليها على ملامح عامة اشترك فيها أغلبية السكان وفق ما اشترطت مدرسة الشرح على المتون بزعامة «جانجاك روسو» ، ثم توفرت وحدة اللغة واللهجة التي قال بها الفيلسوف الألماني «هيردر» ، فقد رأى أن اللغة تعبير حي عن امتزاج تصورات وإحساسات أي شعب من الشعوب ، فالقومية عنده كائن عضوي ظاهرتُه الأساسية اللغة البدائية للشعب[1] .

من خلال هذه الملامح يسهل القول إن القبائل الصنهاجية التي نزحت إلى الجنوب جمعتها قواسم مشتركة وحدت وجدانها وتصوراتها ، وظلت توجه انتماءها وولاءها للوطن الأب المغرب الذي لعبت دورا كبيرا في استقراره .

1) تاريخ الحركات القومية 1 : 6 ، نور الدين أحاطوم .

ليس هدف هذه العجالة أن نتعمق في تحليل نشوء القوميات أو محاولة عكس مستلزماتها على التركيبة السكانية لهذا البلد الذي عانى من المحاولات الأجنبية ما يوازي ما عانته قارة بأكملها ، ولا بد أن يبقى التذكير لازما لأبنائه بملازمة الحذر من كل المستجدات التي تحاول تمزيق وحدته أو إشاعة الخلافات بين مختلف سكانه ، فإذا ما تذكرنا بأن الحركة القومية في فجر عهدها مكنت شعوبا متعددة جمعتهم قومية واحدة ، حتى ولو ضمت مناطق متباعدة ، إلى الاتحاد في دولة واحدة لنبهنا ذلك إلى نبذ أفكار الدعوة إلى الانفصال والتمسك بعصبية ضيقة ، فلقد بقيت ألمانيا لعدة قرون مقسمة على عدة دول وصل عددها 38 دولة ، فمع مطلع سنة 1815 حيث نمت روح الرغبة في التضامن والوحدة التي وصلت إليها بتدرج كانت خطوته الأولى قيام فيدرالية هيأتها التشريعية الأولى هي «الدياط» ، وقد تألف من مجموعة مندوبين عن حكومات الدول الثمانية والثلاثين ، كل واحدة منها لا تلزم بأي قرار من قرارات الدياط إلا بما أحبت أن تلتزم به .

وقد بقيت عطيات هذا النظام عديمة الفائدة ، إذ لم يستطع سن قوانين وتنظيمات تنقذ البلاد من نتائج التشرذم الذي أدى إليه عدم تضافر جهود الأمراء الموجودين على رأس هرم تلك الدول ، فاستمر غياب المكانة الألمانية تجاه الآخرين ، ومن جهة أخرى استمر الشعور بضرورة الخروج من استفحال المشاكل الاجتماعية والسياسية ، فانعقد مؤتمر الأمراء الكونفدراسيون الجِرْماني في شَهْر دُجنبر سنةَ 1850 ،

غير أن المنافسة التي ظلت قائمة بين بروسيا والنمسا في داخل الدياط ارتقت إلى خلافات شخصية بين «الكونت تون» الذي كان ممثلا للنمسا ، وبين «بيسمارك» ممثل بروسيا، فاستمرت الأوضاع الألمانية في عَدَم الاسْتقرار حتّى يوليوز عام 1867 حينَ استطاع بيسمارك توحيد ألمانيا الشمالية ضمن وحدة واحدة أساسية أكسبتها احترام الآخرين ، ومكنت البلاد من استثمار العلم والمعرفة على أحسن وجه .

أشرت إلى هذه النبذة من تاريخ نشوء القوميات الأوربية وبالأخص الألمانية ، لأشير إلى أن هذا التحرك والمواجهة من أجل الوحدة ، والذي أدى إليه واقع الأمة المؤلم ، اتبعته ألمانيا في الوقت الذي كانت الجهود تبذل على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط لتمزيق الدولة العربية والإسلامية ، رغم أنها تجمعها كل المرتكزات التي اعتمدها المصلحون مثل «بيسمارك» لاقتلاع جذور الوحدات الصغيرة وصهرها في الدول الكبيرة التي تستطيع تحقيق المكتسبات والدفاع عنها ، بينما كان عندنا يقع الدس والتوجيه وتفكك القومية والرجوع بالمجتمع إلى حالة التشرذم والضعف التي كانت سائدة في أوربا ، مسببة حروبا أهلية وتناقضات إقليمية وجهوية تقاسمناها معهم في نفس تلك الفترة ، ولكن تخلصوا من عواقبها ، وبقيت رواسب التفكير فيها جامدة في نفوس بعضنا ، علما بأن إنجازات دولتنا الإسلامية العظيمة حالت دون التقوقع في كثير من السلبيات التي انتقلت إلينا من عندهم فيما بعد ، فعندما انصهرت القبليات في القوميات ، والقوميات في جسم الدولة الإسلامية

في المشرق ، ويضرب لها المثل بالدولة العباسية والشطر الأول من الخلافة العثمانية ، في مقابل تماسك نظام الدولة في المغرب من عهد مولاي إدريس حتى اليوم والحمد لله ، مرورا بدولة المرابطين التي قضت على السلبيات التي كان يغذيها تباعد أطراف الدولة ، وخصوصا إلى الجنوب اعتبارا لضعف وسائل الاتصال ءانذاك ، لأن هذه الدولة جاءت مظهرا من مظاهر استثمار العقلية الإسلامية لكل المواهب ، لبسط هيبة الدولة على جميع أراضي المملكة ، فدوى إشعاعها منيرا أرجاء العالم .

نريد أن نستدل من خلال هذا على أن الرجوع إلى العصبية القبلية ضمن دولة المؤسسات ما هو إلا محاولة لإزالة قَدَمِ الأمة عن قاطرة التقدم التي كافحت من أجل أن تضع فيها قدمها سعيا للوصول إلى نهايته ، وقد أتينا بهذه الجملة في صلب كلامنا على تكنة لترجع بنا الذاكرة جميعا إلى عهد ذوبان كل الفصائل السلالية في جسم الأمة أيام قيام الدولة المرابطية التي أكسبت الأصول الصنهاجية شرف إنجاب دولة من أعظم ما عرف التاريخ من الدول ، ولنصل من خلالها إلى نتيجة أساسية هي أن ما كان صالحا بالأمس لا يمكن أن يبقى على نفس الصلاحية اليوم ، ولذا فذِكْرُنا لمحاسن أسلافنا لا يعني بالضرورة بأن نتمسك بنفس التنظيمات العرقية التي سادت جميع أقطار الدنيا في زمنهم ، ثم تخلت عنها الكثير من الجماعات أو الجهات الواعية ، فنحاول نحن اليوم تطبيقها على أساليب أكثر قتامة مما كان عندهم بالأمس .

سقنا هذه الملاحظات داخل هذا المبحث ليذكرنا بتلك النظم الاجتماعية التي عاشت عليها تكنة التي كونت مجموعات بشرية يندمج فيها من رغب في العيش المشترك معها وحسب العادة المتبعة عندها في ذلك ، فاهتمام مجموع قبائل تكنة بالاستقرار وتأسيس نواة للمدنية ، وجمعهم لأحلاف قوية تواجه من رام المس بمكتسباتهم ، تجعلهم نبذوا العصبية من قديم ، وهم التجمع الأمثل للتشبث بإيجابياتها اليوم ، وشن حرب على سلبياتها .

أما عن تسميتهم باسم تكنة ، فحولها راجت أساطير كثيرة منها : التباهي بالانتصار أثناء حروبهم مع قبائل سملالة وتردد كلمة تكنا عليهم ، ومن ذلك بعض الحكايات التي لا يمكن أن تركن إليها النفس فلا نضيع وقت القارئ بكتابتها . ومن خلال تتبع المعاجم نجد في لسان العرب ما نصه : «وتقن اسم رجل من عاد ؛ «وابن تقن» رجل ؛ وتقن اسم رجل كان جيد الرمي يضرب به المثل ولم يكن يسقط له سهم وأنشد فقال :

«لأكلَـــةٌ مِـــن أقَـــطٍ وَسِمْـنِ وشـرْبَتَان منْ عَكِيٍّ الضَّأْنِ»
الين مَسّاً فِـي حَوَايـاَ البَطْنِ مِـنْ يَثْـرَبِيَّاتٍ قـدَاذٍ خُشْنِ
يَرْمِي بِهَا ارْمَى من ابنِ تِقْـنِ

وأضاف ابن منظور : الأصل في التقن ابن تقْنٍ هذا ، ثم قيل لكل حاذق بالأشياء تِقْنٌ ، ومنه يقال : أَتقن فُلاَنٌ عمله إذا

أحكمه ، وأنشد شمر لسليمان بن ربيعة بن دباب بن عامر بن ثعلبة بن السيد كلاما قال فيه :

أهلكن طَمْساً وَبَعْدَهُمْ قَذِيَّ بهم وذاجدون
وأهل جَأْشٍ ومأربَ وَحَيٍّ تِقْنٍ والتُّقُونْ
واليُسْرُ كالعُسْرِ والغنى كالعدم والحياة كالمنون

فهل هم ينتسبون إلى ابن تقن هذا ، وعندها يرتفع نسبهم إلى عاد ، وإن صح فقد جرى على الكلمة تحريف سنتعرض له قريبا . قد يجوز هذا ، لكن نجد تعريفا لغويا ءاخر أقرب إلى طبيعة حياة القوم وتركيبتهم القبلية ، قال القاموس للفيروزبادي عند استعراضه لمادة «التُّكْنَةُ» بضم التاء وتسكين الكاف وفتح النون بعد ذكره لأشياء كثيرة يطلق عليها اسم تُكنة قال : «ومكان مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم وإن لم يكن هناك لواء ولا علم» ، القاموس ، مادة «تُكْنَةُ» .

الراجح عندي أن تسميتهم أتت من هذا المعنى ، خصوصا وأنهم أهل الحرب وحملة السلاح والتفاخر بالرماية والشجاعة ، فكم من مرة هَزَمَ واحدٌ منهم جماعةً من المعتدين ذبّاً عن حريمه وماله ، وكم نبغَ منهم رامٍ لا يخطئ له سهم ، وقد تأصل فيهم حمل السلاح ، فشكلوا أفواجا مهمة داخل جيش المملكة عبر التاريخ حتى الآن ، ولا يستبعد أن يكونوا من بين الجيوش التي صحبت عبد الله بن ياسين في إحدى جولاته ، ثم تخلفوا عنه بأرضهم الحالية ، ونعني بذالك مَنْ أصله منهم من قبائل صنهاجة .

هذه الاحتمالات لا بد أن يكون هؤلاء القوم أتت تسميتهم من إحداها : فإذا كانوا منحدرين من ابن تقن المذكور فمعنى ذلك أن نسبهم يرتفع إلى عاد ، علما بأن بعض النسابين أرجع نسب جل قبائل صنهاجة لنفس الانتماء ، وإذا صح هذا فستكون كلمة «تقن» عرفت تحريفا بسيطا مع استمرار التداول، وإذا صحت نسبة بعضهم إليه فلا يستلزم ذلك انحدار كل قبائلهم من نسله ، فاسم القبيلة لا يستلزم انحدارها من صلب واحد ، فيمكن أن تكون من عدة انتماءات سلالية ارتضت الانتماء إلى شخص أو وقعة أو جهة «فانضوت تحت اسم قبيلة واحدة» .

أما الاحتمال الثاني وهو أنهم يسمون «بتُكْنة» فيؤيده أنَّا لم نعثر على من نَسَبَهُمْ لأصل واحد ، فالثابت أن تكنة تجمعٌ بشري يرجع إلى سلالات مختلفة، منها منْ أصله معقلي، وءاخر صنهاجي ، وبعض السلالات الشريفة . وبحكم ممارستها لنمط حياة مختلف شيئا ما عن قبائل الملثمين التي حسبوا عليها ، واختلاف عاداتهم مع عادات القبائل البربرية المجاورة لها ، أطلقَ عليهم هذا الاسمُ تَمْييزاً لهم عن غَيْرهم منْ قَبائل الملثمين الذين ألحقهم بهم ابن خلدون ، وذلك بقوله : «إن بلاد الملثمين تمتد من بلاد وادِ نَوْلْ حتى الجبال الحاجزة مع السودان جنوبا».

وهذا يرجح أنهم استقروا بتلك المنطقة بعد الرجوع الأول لصنهاجة مع عبد الله بن ياسين ، على أن الجذوع المنتمية منهم

للصنهاجيين لا نَدري هلْ هيَ منْ لمتونة ، أمْ كدالة ، أمْ منْ مسوفة ، بل الثابت أنهم خليط من عرب المعقل وصنهاجة ، وأنهم تمسكوا بأخلاق إسلامية عالية .

إن جهلنا بانتمائهم لأي جذع من جذوع صنهاجة يجعلنا لا نستطيع بدقة وَصْفَ الحالة العقدية التي وجدهم عليها عبد الله بن ياسين ، فإذا سلمنا بأنهم دخلوا الإسلام على يد عقبة بن نافع رضي الله عنه ، فإن ذلك يدفع أيضا إلى سؤال ءاخر : هل هم من القبائل التي ارتدت وعبدت الأوثان من جديد ثم رجعوا إلى الإسلام خلال فتوحات عبد الله بن ياسين ؟ أم أنهم بقوا على إِسْلاَمِهِمْ ؟

فإذا سلمنا بالمقولة التي ادعت بأنهم استقروا في مضاربهم الحالية قبل الإسلام ، وأن عقبة بن نافع مر بهم أثناء رحلته التي قادته إلى وَلاَتَةَ باذلا نفسه وراحته في سبيل الله ، إذا صحت هذه الرواية فإن المصادر لم تحدثنا عن ارتداد هذه المنطقة ، ولا عن المواجهات التي نشبت بين جيوشها وبين أي فاتح إسلامي بعد حملات عقبة الأولى . والذي نميل إليه أن قبائل تكنة من بعض صنهاجة استقرت قبل الإسلام في نفس تلك المنطقة ، وأن استقرار الإسلام فيها ارتبط بحالة استقرار العقيدة السمحة في سوس لقربه منها ولارتباط قبائلها به ، حتى إن بعض الحكايات تدعي أنهم نزحوا لتلك المنطقة بسبب معارك جرت بينهم وبين بني سملال بسوس ، والشيء المرجح أن هذه القبائل منذ أسلمت حسن إسلامها ، وبقيت متمسكة

بعقيدتها ممارسة لواجباتها الدينية ، متحملة كل واجبات الجهاد وإقامة شرائع الدين الحنيف .

أما عن ربط نسب جلهم بجذوع صنهاجة التي تقدم ذكرها فهو أمر ثابت بالتواتر عندهم ، غير أن الشيء الذي يلاحظ فيه اختلاف كبير هو القرون التي تلت سقوط الدولتين المرابطية والموحدية ، فالتحليل المتحري للصدق لا بد أن يعترف بأن مرحلة من مراحل تاريخ الجنوب فيها حلقة تكاد تكون مفقودة ، فضبط الحديث عن كيانات معروفة يمكن وصف الحالة التي كانت عليها والانتماءات التي ترجع إليها ، خصوصا على الساحل الأطلسي منْ الحدود الجنوبيّة لبلاد ءاية باعمران حتّى جنوب مدينة الداخلة - غير متأتية حسب اطلاعاتنا ، فما وصل إلينا من الأخبار عن ساكني هذه المنطقة قبل سنة 1603 م ، وهي سنة وفاة السلطان السعدي المنصور ، قليل جدا ولم تتواصل حكاياته ، ولذا فيجهل عن تلك المدة الكثير ، ويبقى الحديث عنه ظنيا .

ورغم ذلك فالمحقق أن قبائل تكنة استمر زحفها من سوس إلى الصحراء خلال حقب ممتدة على فترات طويلة خضعت للمد والجزر ، فإذا سلموا من المواجهة فيما بينهم أو تركتهم الاعتداءات الخارجية كانوا يزحفون إلى الجنوب المغربي ، وكلما احتشدت جماعات منهم في نقطة أصبحت تراكمات أوضاعها الاجتماعية تتطلب حضور سلطة الدولة لضمان توازن العلاقات الضرورية لاستمرار تعايش السلالات المتعددة ، وهذا

ما نتج عنه مصاحبة الإدارة المخزنية لكل تجمع تكني مهما شطت به الدار التي نزل بها ، كما سعى كل تجمع تكني تمسكا بالسلوك الإسلامي ونبذا للانحرافات التي يسهل تفشيها في الأماكن النائية والتي تسلل إليها رجال مخابرات الكنيسة من قديم ، لمواجهة كل الاحتمالات ، اعتاد هذا المجتمع على تشجيع العلماء والصالحين على تأسيس الزوايا بين ظهرانهم ، وقد منحوا العلماء والصالحين اعتقادا كبيرا ، ملتزمين بحدود فتواهم ، ممتثلين توجيهاتهم الدينية ، مطبْقين أحكامهم ، مرجحين ما رجحوا ، مضعفين ما ضعفوا ، فإذا ما وقع عمل بضعيف أو تفسير خاطئ لبعض الأحكام ، فإن مسؤوليته تقع على العلماء وشيوخ الزوايا لشدة اعتقاد المجتمع التكني في فتواهم وسلوكهم ، وفي هذا المجتمع التكني تأصلت أعراف جمعتهم استخلصوا منها قواعد سلوكية ءاية في النظام والدقة، فهم ميالون إلى المساواة والمشورة والعمل برأي الأكابر ، إذ سَنّوا نظامَ «ءاية أربعين» توارثاً من أصْلهم البَربري ، وهوَ مجلس يضم أربعين رجلا من الأكابر والأغنياء والشجعان والرؤساء ، ينظر في جميع ما يهم الفرق التي يتكون منها . وعادةً يكونُ في تكنة مَجلسان من هذا التنظيم : جَماعةُ ءاية بلة ، وجماعةُ ءاية الجمل ؛ ويُلجأ لهذا المجْلس حَسَبَ الغالب أيام الحروب الأهلية ، إذ تنتقل الكلمة من شيخ القبيلة إلى مجموعة شيوخ القبائل المتحالفة مع قبيلته .

ويشملُ هذا الحلفُ من قبائل ءاية الجمل القبائلَ التالية :

1) الزرقيون
2) ءاية الحسن
3) ءاية موسى وعلي
4) يكوت
5)أولاد بوعيطة
6) ءاية الخمس من ءاية باعمران
7) مجاط التي ترجع إلى قبيلة مجاط الكبيرة المعروفة في سوس
8) الأميار
9) الفيكات
10) وتارة أبناء دليم في بعض الحالات وتخليهم عنه في فترات أخرى
11) أبناء تيدرارين
12) العروسيون

بينما يضم حلف ءاية بلة قبائل كثيرة منها :

1) ءاية وسة
2) الزوافيط
3) ءاية ابراهيم
4) ءاية حماد
5) ءاية ياسين
6) صبوية من ءاية باعمران
7) ءاية عثمان
8) ءاية بوه
9) ءاية بْرييم

هذه بعض أسماء القبائل التي كونت الحلفين ، بينما ظلت قيادة كل قبيلة من هذه القبائل بيد أسر تسلسل فيها الحكم . إلا أن ضبط توارث القيادة وثق بشكل منتظم من عهد السلطان المقدس المرحوم المولى إسماعيل حتى الآن ، غير أن بعد ديارهم وصعوبة شق الطرق إلى السلطان يصعب تلقيهم الأوامر المخزنية يوميا بل حتى أسبوعيا أو شهريا ، ولتزاحم ظهور الإرساليات الأوربية على الشواطئ ونشوب المواجهات من حين لآخر بين هذه القبائل نفسها ، وبينها وبين جيرانها ، نقلوا سلطة التسيير العام لشؤون السكان ، وخصوصا أيام الحرب ، إلى جماعة ءاية أربعين ، وهوَ إجراءٌ يسوقُ إلى أنَّ هذا المجتمعَ طَبَّقَ الديمقراطية - على الأقل في هذا المجال - بطريقة متقدمة ، فهذا المجلس يستطيع إعلان الحرب مع أية قبيلة أو تجمع خارج الحلف المتكونة منه تلك الجماعة ؛ ثم إن هذا المجلس له حق وقف الحرب ، وإلزام القبائل التي يتكون منها بأي تعويض نتج عن الصلح من ديات وذعائر ومكافآت ؛ كما له أن يصدر الغرامات الملائمة على الشخص أو القبيلة المنتسبين إلى قبائل الحلف إذا صدر إخلال بالمبادئ التي تكونت الجماعة للدفاع عنها ؛ وفي مرحلة متأخرة من تاريخ تأسيس هذا النظام أصدرت ءاية أربعين قبائل ءاية الجمل وثيقةً نظمتْ كيفَ تُعامل البواخر التي قذف بها المحيط الأطلسي على الشواطئ الممتدة من فم أساكا إلى أبي الجدور جنوبا ، وكيف يُعامَلُ النصارى الذين تم إلقاء القبض عليهم حتى يتم تسليمهم لملك البلاد بفاس أو مراكش ، كما تأصلت في قبائل تكنة عادات وأعراف ميزت

دورهم الحضاري بكثير من الإعجاب والتقدير لدى كل من تتبع حكايات التاريخ الذي بقي كثير مما يعنيهم منه ينقل من سلف إلى خلف بصفة شفوية ، إلا أنها في كثير من تفاصيلها جديرةٌ بالثقة لضبْط نُقَّالها وسَنَدِهم للأخبار التي يَتحدثون بها .

فَذِكْرُ ما لهذه القبائل من شمائل حسان تكفل لأصحابها الاحترام ، وينبغي أن لا يمر حتما إلى القارئ عبر النيل من أعراض الغير أو اختلاق وقائع لها لا تستند على كثير من التحري والدقة ، فكل له دوره ومزاياه ، وأحفادهم يشرفهم أن تصل إليهم أنباؤهم بطريقة لا تعكس تشنجات لن تكون أيامهم قابلة لتكرارها .

أما عند دراستنا للحالة السياسية والإدارية لقبائل تكنة ، فنرى أن وصفهم بكونفدرالية متميزة لا يتعدى جزءا من طبيعة التسيير الإداري لمختلف أرجاء المملكة التي كانت طبيعة المواصلات تفرضه فيه على عمومه في كل الأقاليم المغربية كغيرها من بقية دول العالم آنذاك أسلوبا معينا ، فكانت اتصالاتها بعواصم حكمها تمر عن طريق سبل بطيئة تبرر اتخاذ كثير من الإجراءات المحلية على شكل استقلال في الرأي يمكن وصفه بالكونفدرالية التي كررها الأستاذ نعيم عند تعرضه لطبيعة تسيير الشؤون المحلية لمختلف قبائل تكنة ، لكن الحقائق التاريخية تثبت أن هذه القبائل من أكثر قبائل مُختلف أنحاء المملكة تشبثاً بالتبعية المطلقة والدائمة لسلطة الدولة في

العاصمة التي استقرت فيها سواء في فاس أو مراكش أو مكناس .

وفي صدد الكلام على تكنة لا بد من التذكير بما سبق أن قلناه بأن هذه القبائل تجمعها قواسم مشتركة موحدة ، بينما لكل قبيلة منها خصائص تنفرد بها سبق لي أن بينتها في سلسلة من المقالات كنت كتبتها سنة 1966 في الجريدة الأسبوعية «صحراؤنا» التي كانت تصدر بالرباط ، وبعد نهاية هذه الخصائص العامة سأضَمِّن كثيرا منها في هذا المبحث .

الفرع الثالث : الخصائص العامة لتكنة

المراجع العربية نادرة في هذا المجال ، وما عثر عليه من المراجع الأجنبية يكون تجنياً على هؤلاء القوم أَخْذُ كلِّ الارتسامات التي تُعَرِّفُ بهم عن طريقها ، فبسبب انتشارهم على امتداد مساحة مهمة تشكل ممرات حيوية تربط بين شمال إفريقيا وجنوب غربها ، وعلى امتداد سواحل تفوق خمسمئة كلم تمتدُّ من فَم أساكة حتى أبي الجدور على ساحل المُحِيط الأطلسي ، وتمتد شرقا إلى الطرق التي تخترق وادي درعة من المنطقة المعروفة بآقة ، كل ذلك مكنهم من القيام بعمليات مواجهة متكررة صدوا من خلالها مختلف التسللات الأجنبية التي حَاولوا غيرَ ما مَرَّةٍ كبْتَ جماح أطماع أصْحابها ، تُضافُ إلى ذلك عَلاقةٌ بالسلطة المركزية ظلتْ مُتنامية ، وظلَّ ملكُ البلاد يعتبرهم من أخلص رعاياه ، وها هم اليوم يحتلون نفس المكانة عند أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله .

أما عن البلاد التي استوطنوها ، فهي المعروفة بوادي نون جنوب الأطلس الصغير ، وعلى إثر ما عرفته الصحراء من جفاف تحدثت عنه المراجع ، بقي واد نون أخصب الأراضي الجنوبية ، فأصبحت مدينة گليميم عاصمة الجنوب المغربي التجارية ، تتمتع بمكانة خاصة عند جميع سكان الجنوب بدون استثناء ، ويترجم أهمية هذه المدينة والمنطقة بصفة عامة ما قاله الناصري في الاستقصا ، إذ أورد أن السلطان مولاي عبد الله بن مولاي إسماعيل خرج من مكناسة متوجها إلى مراكش ، ومنها إلى سوس ، ومنه إلى وادي نون ، حيث نزل على أخواله المغافرة ، وهذا يدعم ادعاءَ بعض المؤرخين منْ أنَّ ءايةَ الجمل أصلهم من عرب المغافرة ، ثم قال الاستقصا ، لأن مولاي عبد الله أمُّـهُ خناثةُ بنتُ بكار ، ومكثَ بهذه البلدة ثلاث سنوات ، فخرج منها عام 1141 هجرية قاصداً عاصمة الملك .

هذه الرواية ترجح أن سكان تكنة خليط من الأجناس الصنهاجية والمعقلية والمغفرية ، لأن تتابع الحروب القبلية يسبب إقصاء بعض القبائل من مكانها ، واندماج قبائل فيما بينها ، وطمس بعضها نسبته إلى غير أصله خشية ما تجره الغلبة في بعض الأحيان ، وهذه التبريرات تؤكد عدم إمكانية إطلاق أصل سلالي واحد على مجموعة قبائل تكنة ، فهي فصائل ارتضت الانضواءَ تحتَ هذا الاسم اعتباراً لأحَدِ الافتراضات السالفة ضمانا للمَصالح المشتركة ، وحماية للمَكاسب ، والمؤكد أنهم متمسكون بعقيدتهم الإسلامية ، متشبثون بإخلاصهم لبيعة الملك، وإن تتبع مراحل حياتهم التاريخية يعزز ما نميل إليه من

أنهم لم تشملهم الردة التي تفشت في القبائل الصنهاجية في جنوب المملكة والتي حاربهم عبد الله بن ياسين ليرجعهم عنها وليهديهم إلى الإسلام ؛ واستنتاجنا هذا مبني على معطيات موضوعية تسوق إلى هذا الانطباع ، فعبد الله بن ياسين تلميذ وجاج بن زلو الذي ظلت مدرسته قائمة على قرب من هذه المنطقة ، ومن ثم لا يقبل أن تترك معقلا لوثنية المرتدين قريبا منها ، كما أن عدم ذكر المراجع لعمليات جرت بين سكان هذه المنطقة وبين جيوش عبد الله بن ياسين أو غيره من الرؤساء الذين خلفوه على الملثمين اللمتونيين خير شاهد على أن سكانها لم يرتدوا . على أن المصادر بصفة عامة لا تمدنا بمعلومات متصلة عن أخبار القبائل التي أرجعها عبد الله بن ياسين للإسلام ، أو تلك التي أدخلها فيه بهذه المنطقة ، وذلك على امتداد القرون الفاصلة بين ءاخر القرن الخامس وحتى منتصف القرن التاسع الهجري ، على أنه لا ينبغي تفسير هذا بأن هناك انقطاعاً في استمرار الوُجُود السُّكاني حتَّى نهايةِ الحدود الطبيعية جنوبا ، ولكن يستنتج منه أن اختفاء واضحا أصاب قسطا كبيرا من الوثائق ، إما لإهمال الناس ءانذاك للتاريخ ، أو أتى نتيجة الحروب المستمرة التي ظلت المنطقة مسرحا لها ، كما ساهم في ذلك عدم وجود وسائل الطبع ، فلا بد أن يكون أحد هذه العوامل أو هي مجتمعة عرضت كثيرا من سجلات التاريخ للضياع ، يضاف إلى هذا اختفاء الاهتمام بالعلم في كثير من الانتماءات السلالية لانتشار توارث المهن الذي انتقل إلى الانتماء القبلي ، فجعل بعض القبائل تهتم بأشياء

أخرى كواجب عليها ضمن النشاط العام لاستمرار بقاء المجتمع ، ومن هنا لم تتمكن سلالات عدة من كتابة تاريخها ، ولم يحل غيرها محلها ليكتبه عنها ، وهذا ما يشفع لنا في عدم الإحاطة بعدة جوانب ما يتطلب التاريخ المنصف والكتابة عنه بتفصيل ، ولا نحتاج تكرار القول بأن جميع جذوع تكنة عرب ، فلا يخرجُ نسبُهم عن عَرب المعقل الذين استقرّوا في وادي نون مدة طويلة أو إلى صنهاجة ، وقد تقدم ما يكفي لعروبتهم ، نضيف إليه أن كثيرا من المؤرخين ورجال الفقه والنسابين ورجال اللغة كل في مجال تخصصه عند ذكر صنهاجة أكد أنهم عربٌ حِمْيَريُّون ، فإليه أشارَ الرشَّاطي في كتابه اقتباس الأنوار ، والإمام عبد الحق الأزدي المالكي في اختصاره ، ومجد الدين الفيروزبادي في القاموس ، وابن خلكان في الوفيات ، والهمداني ، وابنُ الكلبي ، والإمامُ أهل اللغة القاسم بن سلام ، والزبير بن بكار كما نقله عنه صاحب الحلل الموشية ، وصاحب القرطاس»[1] .

إذن فإن التردد في الحكم بعروبة تكنة يعد مكابرة في المحسوس ، وتنكُّراً لواقع لا يرفعُ بالادعاء ، وإن إباءَ هم وغيرتهم لشرفهم وحفظ ذمارهم لَهِيَ أقوى الأدلة على أصالة محتدهم العربي الذي لن تنطمس شواهد عروبته بإذن الله .

---

1) انظر كتاب **الفكر الأصولي عند علماء شنقيط** ، رسالة لنيل ديبلوم الدراسات العليا للعالم السفير عثمان ولد العالم الجليل والمربي الكبير الشيخ أحمد أبي المعالي ، ص 74 ، طبع استانسيل بخزانة المؤلف .

فأصل البربر إذا كان شهد قرونا من التباعد والتقاطع وتبدل الطباع والعادات واللهجات ، فإن شمولية العقيدة ، وتقارب الديار بسرعة الاتصال ، ونشاط الجامعات ، واكتشاف الآثار ، واتحاد المصالح ، والرغبة في العيش المشترك ، وضرورة التلاحم للحفاظ على مكتسبات الوطن ، ستعيد الامتزاج والتلاحم بين العنصرين البربري والعربي بعد قطيعة طويلة كاد أن يُنْسى فيها أن البربر أصلهم من العرب ، فقديما تغيرت الملامح ، وتبدلت اللغة ، وانقطع التواصل ، حتى أتى الفتح الإسلامي حاملا راية العدل والسلام ، وألوية الأمن والاحترام ، فقاد العنصرين إلى اندماج لا يستند على الأصل المشترك ، ولكن ينطلق من إشعاعَ الإيمان الواحد والهدف الموحد والحقوق المتساوية ، فشكَّلَ الطرفان قوةً قادرةً على فرض إرادتها ونشر سيطرتها ، ونقل بشائر الدين المقبول عند الله إلى الشمال بيد القبائل العربية والبربرية المستقرة في المناطق الأولى التي استقر فيها الأجداد القدامى أيام هجرتهم قبل الإسلام ، كما حمله إلى الجنوب إخوانهم الملثمون من صنهاجيين ومعقليين تعاونوا مع مَنْ وصل إليهم من المسلمين العرب حَمَلَةُ شرف رفع راية الإسلام ، فأسس الطرفان مجد الدولة الإسلامية حاملة راية الجهاد والعدل دولة المرابطين وما بعدها من إشعاع حضاري تميز به المغرب .

إن ما قدمناه في الفصل الأول أثبت بما لا يقبل البينة المعاكسة أن أصل جميع سكان الصحراء انتقل إليها من المغرب ، وأعجب شيء يثير الاستغراب هو تجاهل كثير من

الكتاب لحقائق المسار التاريخي لقبائل الصحراء ، إذ لم يكلفوا أنفسهم استفسار كتب التاريخ ليتأكدوا من بعض المقولات التي يبدو أنها أحيانا تكون شبه مفروضة بسبب من الأسباب على أصحابها ، ونضرب مثلا على هذه الظاهرة التي ابتدأت مع أواخر عَقد السِّتينيَّات عندَ ما أحدثت الجزائرُ فكرةَ طلب انفصال صحراء المغرب عن وطنها رغم أنف الأغلبية الساحقة من أبنائها ، ومن بين الكتاب الذين صادفوا الصواب في تحليلاتهم لكنهم جمح بهم القلم في بعض الحالات حتى كتبوا افتراضات لا تستند على أي مبرر ، مثلا علي الشامي الذي كتب بأسلوب أكثر احتراما من كتابات بعض الكتاب الذين كتبوا في تلك الفترة ، ففي صفحة 72 تحت عنوان : «البنية القبلية ومراحل التمركز» قال: «حركة الانتقال نحو الصحراء والأساس التاريخي للأصول القبلية لسكان الساقية الحمراء ووادي الذهب يتمتعان بوفاق الباحثين، عند ما تبدأ عملية تحديد الانتماء السياسي الراهن لهذه القبائل تطفو كل التناقضات على السطح ، وبدون نفي للتاريخ المتفق عليه فإن الباحث عن هوية سياسية معينة يعمل في التاريخ تأويلا من المفترض أن يوصل إلى إثبات هذه الهوية ، الأصل متفق عليه ولكن التفسير والتطور مجال نزاع»[1] .

هذه الجملة تنتابها ملاحظات لا بد أن نحلي بها هذا المبحث عن قبائل تكنة التي لا يستطيع أي مكابر في المحسوس أن يجادل في مغربيتها ، كما لا يمكن لأي كان أن يشكك في انتمائها للساقية الحمراء ووادي الذهب .

---

1) علي الشامي ، **الصحراء عقدة التجزئة في المغرب العربي** .

أما الملاحظة الأولى على هذه الجملة فهي خجلها من أن تبين حتى غرض كاتبها الذي أحترم ثقافته ومكانته وكتابته ، وهذا سبب ملاحظاتي على بعض ءارائه ، عكس كثيرين تطارحوا على فتات نفايات بترول النظام الجزائري ءانذاك ، فدنسوا أقلامهم باختلاقات أحط مستوى من أن يشتغل مَنْ يحترمُ نفسَه منا نحن المغاربة بالرد عليها ، لأن الأجيال ستدرك تدني مستوى أصحابها .

أما الملاحظة الثانية فهي ما يمنع الكاتب عندما صدح بالحقيقة أن ينهي بها جملته ، فحكمه بأن الأصل متفق عليه كان عليه أن يتعامل مع جميع المصادر التاريخية والحكايات الشفويةِّ والإرادة الجماهيريَّة ليُدركَ أن الانتماءَ أيضاً متفقَ عليه .

ولو وضع أمامه جملة من التصورات للماضي البعيد والقريب لهذه القبائل لتوصل بذكائه المعروف وتحليله القيم إلى أن هذا الانتماء ظل دائما للمغرب قبل الاستعمار ، ومدة حكمه ، وبعد رحيله ، وما قرأه في عمليات جيش التحرير خلال الخمسينيّات جديرٌ بإقناعه ، وحُكمه بالإجماع أيضاً حولَ الانتماء مثل الأصول .

الفرع الرابع : كيف استفادت قبائل تكنة من دورها التجاري

قد تحاشينا استعراض بعض المراحل التاريخية البعيدة لعدة أسباب : فهي ستخرجنا عن دراسة التركيبة البشرية التي نتكلم عنها ، كما أن ما لدينا عليها من معلومات كلها تقريبية

وجلها افتراضات لا نرى فائدة من تتبع الأقدمين فيها بإعادة أحاديثهم ، أو سلوك افتراضات أخرى أقل تثبتا مما عندهم ، ولذا فسنبدأ بالفترة التي تسلسل من بعدها الظهور الفعلي لمجموعة القبائل التكنية على بنيات اجتماعية لا تبعد بكثير عن التركيبة المعروفة اليوم ، لأن اتباع هذا المسلك يجعل الأخبار التي نتعرض إليها في هذا الموضوع أكثر انسجاما مع العنوان ، والتحول الجديد الذي ساهمت فيه عدة مؤثرات داخلية وخارجية صهرت مجتمعا اندمجت فيه سلالات من عرب المعقل مع مجموعات من صنهاجة ، فتشكل من الخليطين مجتمع متميز في كثير من مقومات حياته برز إلى العالم على هيأة ذات دلالات عميقة .

فكل المصادر أثبتت أن الموقع الجغرافي لقبائل تكنة أهلهم لوضع اجتماعي ممتاز جعل من تلك القبائل جسرا رابطا تعبره رحلتا الجنوب والشمال للقبائل الصنهاجية ، مما جعل محطة وادي نون كأول مَراكز الحضارة للقادم من الجَنوب تَجذبُه وسائلُ الاستقرار مدة تخلصا من وعثاء السفر ، وءاخر محطة للمتوجه إلى الجنوب يمكث بها فترة تمكنه من اتخاذ العدة لقطع مجاهل الصحراء التي ينوي الهجوم عليها ؛ إن التقاء هذه الجماعات في مَكان وادي نون أهلَّهُ لدَوْرٍ اجتماعي عظيم وقديم ساهمتْ من خلاله تكنة أرضا وساكنة في الموروث الحضاري الكبير لهذه البلاد ، فبسبب قوافلهم التجارية لتينبكتو وولاتة وغيرها من بلاد الغرب الأفريقي حصل لكثير من أبناء تكنة شرف حمل الدعوة الإسلامية ، بنشرها في كثير من الأقطار ، وبحمل كتبها إلى من هداهم الله للدخول فيها .

أما عن علاقتهم مع عبد الله بن ياسين فإن أي مؤرخ لم يشر إلى نشاط يذكر وقع إما للجهاد فيهم لإرجاعهم إلى الإسلام ، وإمّا إلى دَوْرٍ لعِبُوهُ بجَنْبه لتنفيذِ رسالتِه التي وهبَ نفسه من أجلها .

إلا أن انطباعا عاما يمكننا من استنتاج خاص : أما الانطباعُ فهوَ أن هذه الأرضَ ذاتَ المكانة التجارية والفلاحية لوْ لم تكن بقيت على إسلامها لكانت لجيوش عبد الله بن ياسين مع أهلها جولاتٌ جهادية ؛ أما الاستنتاجُ فهوَ أن أبا عمران الفاسي عندما وجه سنة 1035م إلى تلميذه وجاج بن زلو ليرسل أحد العلماء مع يحيى بن إبراهيم الكدالي ، ثم تذكرنا كيف كانتْ عظمةُ مَدرسة وكاك وقربُ مَنطقة وادي نون منها لقُلْنا إن أهل وادي نون لو كانوا مرتدين ءانذاك لقاتلهم وكاك وتلاميذه . ثم إن دعوةَ يَحْيَى بن إبراهيم بفَتْوَى رفيقه عبد الله بن ياسين لينشر العلم في قبيلة لمتونة ، فإن أي مصدر لم يذكر لنا أن دخول قبائل لمطة وجزولة في الإسلام من جديد قد أدى إلى سريان هذا المجهود المرابطي على تكنة ، بل الذي بين أيدينا أنهم ءانذاك كانوا من بين أحسن البلدان إسلاما ، ففيهم «المحاضر» وشيوخُ العلم ، واللمطي نفسُه خيرُ شاهد على ذلك ، لكن أصبحَ وادي نون بصفته بابَ الصحراء التي أصبحتْ الجسرَ الرابط بين الجحافل المرابطية في الجنوب وأصولها في الشمال الذي لم يستطيعوا كتم حنينهم إليه ، وكلما قويت الحركة لربط شمال المملكة بجنوبها تجلت أهمية التجمعات البشرية المستقرة في سوس ووادي نون كسوق تجارية ومراكز حضارية ، بها المدارس العلمية ، وبها كثير من أصول القبائل

التي انحدرت إلى الجَنوب على امتدادِ فَتَراتٍ قديمة ، ومنْ هُنا أتتْ أهميةُ الدور التجاري لتكنة .

إن المجتمع التكني لم يكد يرى النور على الحالة التي هو عليها اليوم حتى وجد نفسه وجها لوجه مع التسرب الغربي الذي جعلَ منْ مَنطقة وادي نون هدفاً أساسيّاً من أول الأهداف التي طمعت في السيطرة عليها لعدة مبررات ، منها جعلها معبرا للسيطرة على المغرب كله ، وأيضا تريد أن تجعل من تلك المنطقة حاجزا واقيا بين المغرب وأفريقيا السوداء التي شكل وادي نون المعبرَ الأساسيَّ إليها ، كأقرب نُقط الحضارةِ إلى تلك البلاد في ذلك التاريخ ، لأن الاستقرار الحضاري يجلب النشاط التجاري .

يحدد الأستاذ نعيم سنة 1416م ليجعلها فترة نشاط المحاولات الإيبيرية إلى الشواطئ الصحراوية مهتمة «بحصر الموارد والتعرف على الطاقة الاستيعابية للأسواق ، فعلى أساس اكتناز الذهب والعبيد والعاج امتدت المحاولات البرتغالية[1]» وغيرها من البضائع المستجلبة من داخل المملكة أو المستوردة من أفريقية السوداء ، وازدهرت بلاد تكنة خلال هذه الفترة بسبب الاتجارَ مع مختلف الجهات ، سواء مع البواخر القادمة من أوربا ، أو مع الدول السوداء ، وحتى مع سكان المملكة الآخرين ، وامتدت الأمور حتى بلغت التجارة في الذهب بوادي نول أوجَها خلالَ القَرن السادس عشر .

---

1) نعيم بصفته مصدرا خصص لأحوال تكنة ص 107 .

واستمرتْ وادي نون وسوقُ كلميم بالخصوص تُكَوِّنُ قُطباً اقتصاديا وتجاريا في الجنوب المغربي ، تتقاطر عليها قطعان الكسب ، ويقصده التجار من مختلف الجهات بصفته عاصمة تكنة بقسميها ءاية بلّة وءاية الجمل ، إلى أن اشتدّت المحاولاتُ الأوربية على تلك الحدود ، فانقلبت المنطقة من دورها التجاري إلى مركز لتسليح المجاهدين ومستقر لهم ومأوى لجيوشهم ، فانخرط التكنيون كلهم في فيالق المجاهدين، تارة لصد المعتدين من الجنوب ، وأخرى من الغرب ، وءاونة من الشرق ، وأخرى لينضموا إلى الجيش النظامي إذا دعاهم ملك البلاد إلى ذلك ، فهم لُحْمَةُ الجهاد وسدى الاقتصاد ومن الروافد الممتازة لجيش البلاد عبر التاريخ .

ولضبط الأمور عُيِّنَ قائدُ مدينة كلميم عاصمةِ وادي نون من الأسرة المحترمة ، ذؤابة المجد وأهل النبل والنخوة والكرم ، ءال بيروك ، ثم عَيَّنَ المخزنُ في فترة لاحقة قواداً من كلِّ قبيلة كما سنرى في الفصل المخصص لجهود العرش والأمة في المحافظة على الوَحدة ، فلما تسلَّمَ ءالُ عُبيد الله وسالم زمامِ القيادة نشروا الأمن وخدموا الوحدة وأخلصوا للعرش فسادوا بفضل حنكتهم وإخلاصهم فشيدوا البناء إلى أن التحق بهم زملاؤهم من كل قبيلة فتضافرت جهود الجميع لخدمة الدين والوطن والعرش .

يتحصل من كل ما سبق أن تكنة حلف وليست من أصل واحد ، فمنهم من ينتسب إلى صنهاجة ، ومنهم من ينتسب إلى المعقل ، وأكثرهم من المعقل المنتسبين إلى جعفر بن أبي طالب ، فقد وجدتُ في مخطوط أعَدَّهُ السيد بشر بن أحمد بن حيدار فرقة شتوكة إحدى أهمِّ جنوع قبيلة المجاهدين في سبيل الله

وتحصيل العلم وإكرام الضيف والقوة في سبيل الدفاع عن الحق والخضوع للعدل واحترام أهله ، وهم الزرقيون ، وجدتُ في تلك المخطوطة بأنهم جعفريون ، ونحن نرجح ذلك انطلاقا من المخالطة والمجاورة ، ففيهم من الكرم والشجاعة والسلاقة وحب ءال البيت ما يزكي نسبتهم لآل البيت ، قال عنهم العلامة عبد العزيز ابن عبد الله في معلمة الصحراء : «ومن المعاقلة تكنة ، ومنهم الزرقيون الذين عرفوا بالديانة المتينة والنجدة وكرم الضيافة والعصامية وحفظ القرءان ، وقد أنجبوا علماء أجلاء برزوا في علوم الشريعة وحمل مشعل السنة في الصحراء[1]» .

ثم إن السيد بشر المذكور ضمن مؤلفه سلسلة نسب الجد الذي أطلق اسمه على قبيلة الزرقيين فقال :

وهذه سلسلة نسب أَزَرْكْ المغفري الحساني المعقلي :

أزرك ابن بلّة بن الغازي بن كزيل بن بلة بن محمد بن داود بن محمد بن عثمان بن مغفر بن أُودي بن حسّان بن المختار بن محمد بن عقيل بن معقل بن موسى الهداج إبن جعفر الأمير بن إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بحر الجود بن جعفر الطيار بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف بن قصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن

---

1) **معلمة الصحراء** ، الملحق 1 ، ص 197 و198 ، وقد ضمن السيد بشر كلامه مؤلفه . وقد أخذت هذه النبذة بالحرف من عند الأستاذ بشر بن أحمد بن حيدار أحد قواد الزرقيين الأماجد .

مـالك بن النضـر بن كِنانة بن خُـزيمة بن عـامـر بن إليـاس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

هذا ويثـبتُ رواةُ سلسلة أنسـاب تَكنة أنَّ الزرقـيـين وءاية موسى وعلي وءاية حُسَين إخوة ، وبـهذا يتضحُ أن جلَّ السلالات المنضوية تحت حلف تكنة من أصل مَغْفَرِيٍّ ، ومما يـترجم هذا الانتسـاب علاقتهم المتميزة بقبائل المغافرة وغير ذلك من الشيم العربية التي بقيت متوارثة فيهم إلى اليوم .

إن أخلاق تكنة وعاداتهم ونمط حياتهم وجـهودهم لحـفظ القرآن وتمسكهم بتعاليم الإسلام لهي خصال اجتمعوا عليها وتنافسوا فيها ، ففيهم العلماء والصلحاء . والملاحظة التي نختم بها هذه المعلومات العامة أن دور تكنة الاقتصادي والاجتماعي والجهادي والثقافي بوأهم المكانة المحترمة لدى جميع من تعرف عليهم داخل الوطن وخارجه ، كما أنهم يمثلون شبه قومية بشدة تمسكهم بأنماط عيش تخصهم وحدهم .

المبحث الثالث ـ عرب المعقل

هذه مجموعةٌ من السُّلالات انضوتْ تحتَ هذا الاسم لما كان لقبائل عرب المعقل من الغلبة والسيطرة خلال القرن السادس الهجري ، فأصبحت دراسة شؤونهم رغم اختلاف انتماءاتهم غيرَ مُمكنة إلا تحتَ هذه الاسم ، لأنَّ مَن دخلَ فيهم من غير أصلهم انطمس أصله فيهم .

ومما يجب لفت النظر إليه هو أنَّ المعاقلة ثلاثة ، وهم الذين سبق أن أشرنا إليهم بتفصيل موجز ، لكن الذي يعني سكان الصحراء منهم وعلينا أن نتكلم عنه هو القليل ، نظرا لأننا لم نتعرض لتداخل الأنساب أو لحياة القبائل الخارجة عن منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب ، فإن ذلك سيكون شفيعا لنا في عدم تتبع جذوع كل عرب المعقل في الأقطار المجاورة ، وكذلك فإن حديثنا في هذا الشأن سينحصر في أبناء حسان من عرب المعقل ، وهاؤلاء أيضا خرجت جل فروعهم عن الساحة المخصصة لدراستنا هاته .

ذلك أن بني حسان منهم : البرابيش ، وأولاد دليم ، وأولاد رزگ ، والمغافرة ، وأولاد عروگ ، وأولاد اعمر بن حسان ، ومن هاؤلاء إيجمان ، وإيديقب من تشمشة[1] . هذه تقسيماتهم العامة وفروعهم الكبيرة التي شكل كل واحد منها قبيلة تفرعت إلى عدة جذوع ، كل واحد منها قد انقسم إلى تفريعات ، ومنها

1) **حياة موريتانيا الثقافية** ، ص 85 ، للمرحوم العالم المؤرخ المختار بن حامد الديماني .

من أصبح يشكل قبائل . ورغم انتمائهم لحسان فإن ممارستهم لشؤون الحياة في المنطقة تباعدت شيئا ما ، فمثلا هاؤلاء الذين استوطنوا الصحراء المغربية منهم من تعاطى العلم تحصيلا وتدريسا فغلبت عليه تسمية الزوايا ، حسب التقسيمات المحلية التي أشرنا اليها في تمهيد هذا الكتاب ، بينما مزج بعضها بين المهنتين مثل البرابيش ، ففيْهم العلم ، وهم أيضا من أمهر حملة السلاح والرماية والفروسية وعدم التبعية لأي قبيلة أخرى ، وبقيت القبيلة الرئيسية المنتمية إلى حسان من المقيمين في هذا القسم من عرب المعقل في الصحراء وهم بنو دليم الذين تمسكوا بطابعهم العربي الذي يبدو أنه ظل انعكاسا للعادات والأخلاق التي قدم بها المعاقلة من منطقة المشرق إلى المغرب ، حمل السلاح وحماية الذِّمار وقوة الشكيمة وحمل شعار العروبة في المنطقة بكل ما تستلزمه من مفاخر وتفرضه من احترام وتضع من أعباء ، كما سنشاهد في الفروع التي يشتمل عليها هذا المبحث ، لذا فسنحاول أن نتكلم هنا عن الهجرة الأولى لعرب المعقل من الشرق إلى المغرب ، ثم نحاول تتبع مسيرتهم التي أوصلتهم إلى الصحراء المغربية من خلال إجابتنا على سؤال هو : مَنْ مِنْ عرب المعقل دخل إلى المغرب ، ومَن الذي يقطن منهم في الصحراء المغربية ؟

وللإحاطة بهذه المواضيع سنُقَسِّمُ هذه التساؤلات وما توصلنا إليه من الإجابة عليها إلى الفروع الآتية :

- الفرع الأول : معلومات عن عرب المعقل ووصولهم إلى المغرب .
- الفرع الثاني : سبب استقرار عرب المعقل في الصحراء المغربية .
- الفرع الثالث : البطون التي تسكن في الصحراء من عرب المعقل .

الفرع الأول : قدوم عرب المعقل على المغرب

لا شك أن القارئ الكريم سيلاحظ تداخل معلومات هذا الفرع مع المعلومات التي سقناها في الفصل الأول المتعلق بقدوم قبائل صنهاجة إلى المغرب ، وكذلك لا تختلف طرق قدوم هذه القبائل إلى الأقاليم الجنوبية المغربية عن طرق وصول غيرهم من القبائل الأخرى إلا في مسائل قليلة ، ولذلك فسيلاحظ شبه تكرار في السرد الذي سنتبعه في هذه الفقرات ، وذلك من خلال تعريفنا بعرب المعقل الذين قدموا للمغرب ، وبالأخص أولئك الذين انتقلوا منهم إلى صحرائه في فترات متفاوتة ولأسباب مختلفة نتجت عنها أوضاع متباينة .وعليه فإن استقرار هاؤلاء البطون من السكان في الأقاليم الجنوبية يمكن تتبعه من خلال معلومات موثقة تتسم بالضبط ، لأن طرق وصولهم إلى المنطقة ظلت محفوظة وأسبابها معروفة ، ولذا فسنتعرض إليها من خلال المبادئ العامة ، معتمدين كمصادر على ابن خلدون في المعلومات القديمة ، والناصري في الذي جد بعد ذلك ، والحكايات المتواترة فيما لم نعثر عليه مكتوبا ، وذلك من خلال الملخص الآتي :

تنقسم المعقل إلى ثلاثة جذوع كلهم يطلق عليه معقل وهم: ذوي عبد الله ، وذوي منصور ، وذوي حسان ، فأما بنو حسان فتمتد مضارب أحيائهم من رأس وادي درعة حتى المحيط ، ويستقرُّ شيوخُهم ببلاد نول[1] ، وهذه المقولةُ تُؤكدُ نسبةَ ءاية الجمل لعرب المعقل ، وكانوا في فترة حياة ابن خلدون مسيطرين على بلاد سوس الأقصى(تسمية سوس الأقصى كانت تطلق على جميع الصحراء المغربية) ، ثم قال ابن خلدون إنهم كانوا ينتجعون مواقع القطر حتى يصلوا إلى بلاد الملثمين من كدالة ومَسُّوفة ، وكانَ دخولُهُم إلى المغرب معَ عرب الهلاليين[2].

هذه هي التقسيمات التي تكلم عنها ابن خلدون حول جذوع عرب المعقل وتتبع مراحل انتقالهم إلى الجنوب المغربي، وتجدرُ الملاحظةُ إلى أنَّ نفسَ المعلومات نقلَها عنه (الاستقصا) عند كلامه عن أولئك القوم ، وقد حدد (الاستقصا) أماكنَ سكناهم في أيامه من جبال ءاية باعمران على امتداد الساحل جنوبا حتى نهاية الحدود المغربية مع نهاية الصحراء نحو الجنوب ، ثم ذكر الناصري بأن هاؤلاء العرب شكلوا أهم أفواج جيش الوداية ، فذكر بأن فرقتين من ذلك الجيش انتقلتا إلى الجنوب حتى سوس ، واستقرت في أولاد جرار ، وفيها أولاد مطاع وزرارة ، وكلهم من عرب المعقل .

---

1) هكذا كان يسميه ابن خلدون عندما يتعرض إليه .

2) **تاريخ ابن خلدون** 6 : 85 .

ثم إن عرب المعقل بعد انتشارهم في الصحراء رجعوا للجيش أيام السلطان الجليل مولاي إسماعيل قدس الله روحه ، فكونوا جيش الوداية بجَمْع قام به أبو شفرة المعروف ، وبعد ذلك من هاؤلاء المعقل من استقر نهائيا داخل الوطن ، وهم المعاقلة المنتشرون في نواحي مراكش وسيدي قاسم تحت نفس اسم معقل الصحراء ، أبناء دليم ؛ ومنهم من رجع إلى الصحراء ، لكن الصلة ظلت قائمة بينهم حسبما سنبينه في الفرع الآتي :

الفرع الثاني : سبب قدوم عرب المعقل إلى المغرب

لقد تضاربت الروايات في شأن دخول عرب المعقل إلى المغرب ، وهنا نسوق رواية ابن خلدون في ذلك دون التقيد بعباراته ، فقد رجح أنه لما بويع أبو جعفر ابن القادر من خلفاء الصدر الثاني من الدولة العباسية إبان ضعف الدولة ، كانت بطون هلال وبني سليم ومن انضم إليهم من المعاقلة يتنقلون في بادية الحجاز ، فتتابعت غاراتهم على الحجيج ، وكانت التدابير تتخذ في بيت الخلافة للقضاء عليهم وربما دفعهم ذلك لموالاة القرامطة في بعض الوقت . وأثناء هذه الاضطرابات أنزلهم بصعيد مصر في العدوة الشرقية من بحر النيل ، فعاثوا أيضا في الأرض فسادا ، وأثناء حكم المنتصر بالله المعز الملقب بالطويل ـ لأنه مكث في الحكم ثلاثة وسبعين سنة على الأرجح فلم يمت إلا على رأس المئة الخامسة من الهجرة ـ وللتخلص من مناوشات قبائل المعقل أشار عليه الوزير أبو محمد الحسن

ابن علي اليازوري أشار على الخليفة المعز بالله باصطناعهم والتقديم لمشائخهم وتوليتهم أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها وحرب صنهاجة ليكونوا عند نصر الشيعة ، فإن انتصروا وصدقت[1] المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء الدعوة وعمالا بتلك البلاد القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها ، وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة[2]» .

ثم إن قبائل العرب بسبب هذه الحيلة زحفت نحو إفريقية فخاضت عدة معارك صاحبها فيها النجاح ، فقويت شوكتها واستقدمت أنصارها من بني عمومتها ، فتغلغلت في الشمال الأفريقي مستعملة خبرتها القتالية ، وسيطرت على كل المناطق التي وصلت إليها ، كما صاحبها عدم الخضوع للسلطة ، فتكونت بسبب ذلك مشاكل بينها وبين كل الإمارات التي مرت بها في طريقها إلى مقرها النّهائي المغرب .

وأخذ ابن خلدون يتتبع رحلات المد والجزر التي سلكتها البطون العربية في زحفها إلى إفريقية حتى تغلبوا على المغرب وأخذوا يزحفون على مختلف معاقله إلى أن وصلوا إلى المهدية ، فقال بالحرف : «وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة ، ومن أشجع أحياء كثيرة ، وفيهم الشظمة من كرفة ، والمهاية من عياض ، والشعراء من حصين ، والصباح من

1) **التاريخ الكبير** 6 : 14
2) نفسه ، ص 14

الأحمر إلى غير ذلك» ، من البطون التي انقرضت مسميات بعضها وبعضها ما زال محتفظا باسمه ، وبعضها طرأ عليه تحريف بسيط مثل الشظمة أصبحت تعرف بالشياظمة إلى غير ذلك ، وادعى بأن بلاد المعقل تمتد من سجلماسة جنوبا حتى بلاد السوس ، فحكموا بالعدل وفرضوا سيطرة كاملة بالقوة ، فألزموا السكان بأداء الضرائب ، ثم نسب إليهم عدم إذاية أحد من سكان المغرب جميعا سواء من خضع منهم لسلطتهم أو من وقع تحت حكم زناتة :«لما كان بالمغرب من اعتزاز بالدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم[1]» .

هذه الجملة الأخيرة التي أوردناها بالحرف تثبت أن عرب المعقل رجعوا إلى الصحراء مباشرة بعد سقوط دولة المرابطين التي انبثقت من أرضهم ، فهل يا ترى ظلوا مقيمين بالصحراء ؟ أم إنهم كانوا يجوبونها في ترحالهم فتشكل معبرا لهم ؟ الروايات المؤكدة تثبت أن قبائل المعقل ظلت صامدة بالصحراء تنتقل داخلها ولم تبارحها لجهة أخرى .

أما عن نسبهم فتضاربت فيه الروايات ، فهم يدعون أنهم من ءال البيت لكونهم ينحدرون من صلب جعفر بن أبي طالب ، إلا أن ابن خلدون اعترض على هذا مبررا اعتراضه بأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بوادي[2] ، ولكن هذا الاستنتاج رُدَّ بمقولة أخرى أوردها هو نفسه في الصفحة

1) نفسه ، ص 14

2) نفسه ، ص 59

الخامسة من الجزء السادس في كتابه «التاريخ الكبير» لما تعرض لدخول بني هلال وبني سُلَيم للمغرب ، قال : «وبقي في مواطنهم ببرقة إلى هذا العهد أحياء بني جعفر ، وكان شيخهم في أواسط المئة الثامنة أبو ذؤيب وأخوه حامد ابن حميد» ، هذا الخبر الذي ذكره هنا بالتأكيد ينفي الاستنتاج الذي قال به في صفحة 59 ، فهو قال في كلامه الأول عنهم أنهم خرجوا من المدينة بسبب خلاف بينهم وبين بني عمومتهم بني الحَسَن ، ثم يسكت عن ذلك ويدعي أن انتسابهم لجعفر مردود لأن أبناءه لم يسكنوا البادية .

ولقد ناقش المرحوم المختار بن حامد هذين القولين نقاشا جيدا نلخصه هنا لنبين الأصول العليا لعرب حسان من المعقل الذين يهمنا أمرهم في هذا الفرع .

فلقد أثبت عمر رضا كحالة في كتابه معجم قبائل العرب أن بطنا من الجعافرة أقام بمصر وغلب عليهم اسم علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر ، ويستخلص من كلام ابن خلدون وعمر رضا كحالة والمختار بن حامد أن طائفة من بني جعفر الطيار لا يستبعد أن تكون التحمت ببني هلال أثناء زحفهم إلى الشمال الأفريقي ، ثم إلى الصحراء المغربية بصفة خاصة .

ولقد أثبت الناصري في نسبهم ضمن كتابه «طلعة المشتري ، في إثبات النسب الجَعفري» أكدَ فيه نسبتَهم إلى جَعفر الطيار ، واعتمد على طلعة المشتري الفقيه بن محمد المختار بن محمد يحيى الولاتي مفندا استنتاج ابن خلدون من خلال نقط نقتطف منها ما يلي :

1) كون عددهم قليل فهذا يؤكد نزوحهم إلى المغرب ، لأن الجعفريين أنفسهم لم يكثر عددهم حتى ذلك التاريخ ، والثابت أنهم انتقلوا تحت قيادة أميرهم جعفر بن إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزيني بن عبد الله بن جعفر ، انتقلوا من الحجاز إلى صعيد مصر ، ومنه انتقلوا مع الهلاليين إلى المغرب.

2) كونهم الْتَفَّتْ عليهم قبائل كثيرة فهذا دليل على أنهم من ءال البيت ، ولو كانوا من بني مُعَقِّلْ الحارثي اليمني لما انضم إليهم أحد .

3) نسبتهم إلى جعفر بن أبي طالب ما زالوا عليها حتى الآن .

4) أنهم لم يكونوا من أهل البداوة فهذا تكذبه الحرب نفسها التي وقعت بين بني جعفر وبين بني الحسين فما وقعت إلا لكونهم كانوا أهل بداوة .

5) مَعْقِلْ الذي من ذرية جعفر ينطق بفتح الميم وكسر القاف كمسجد ، ومُعَقِّلْ الذي في بني الحارث بن كعب بضم الميم وفتح العين وكسر القاف مشددة بوزن معظم[1] .

وكتب عنهم عمنا العلامة الشيخ محمد الإمام في كتابه الجأش الربيط ما مضمونه :

إن أبناء حسان بطن من بطون معقل ، ثم تعرض لفرق المعقل الثلاثة وهم :

---

1) انظر **حياة موريتانيا الثقافية** للمختار بن حامد ، ص 102

1) معقل جعفري يرفع نسبه إلى جعفر ابن أبي طالب .

2) ومعقل قضاعي يرفع نسبه إلى كعب ابن عيلم بن جناب من قضاعة .

3) ومعقل كهلاني يرفع نسبه إلى معقل بن كعب بن ربيعة.

ثم ذكر أن المعاقل الثلاثة نزحوا إلى صعيد مصر فعاشوا فيه تحت اسم المعقل ، فيما جعل بعض المؤرخين لا يميز بين أنسابهم فيطلق عليهم عرب المعقل دون معرفة أصل كل فريق منهم ، وقد أصبح من الصعب اليوم تمييز بعضهم عن البعض ، ما عدا الجعفريين ، فإنهم حافظوا على أصلهم بانتسابهم لجعفر بن أبي طالب ، وأكثرهم معروف بحسان .

إن بني حسان أَجْلَتْهُمْ دولة بني مرين إلى الصحراء ، فتكاثروا فيها وقويت شوكتهم ، ولكن ظلوا على ولائهم لوطنهم يحمون ثغوره ، ويؤازرون ملوكه ، تسرع نجدتهم لأي إقليم هدده غزو خارجي ، وتركن نفس ملك البلاد إلى عدم إمكانية تسرب أية محاولة خارجية عن طريق الثغور والسواحل التي ينتشرون فيها لصلابة مقاتليهم وحسن درايتهم بأساليب حرب ذلك الزمن.

إن هذه الفرق تفرعت إلى فروع تفرقت إلى إمارات قسمها عمنا العلامة الفذ الشيخ محمد الإمام من خلال ما ننقل عنه بالحرف فيما يلي :

«قبائل حسان في شنجيط تنقسم إلى أقسام ، كل قسم منها في جزء من أرضه ، وفيه بيت الإمارة على ذلك الجزء

متوارثة لا يطمع فيها غيرهم من الأقسام» إلى أن قال : «فقسم يقال له أبناء يحيى بن عثمان في الأرض المعروفة بأدرار ، وبيت الإمارة منهم في بيت أحمد بن عيدة ؛ وقسم يقال لهم الترارزة، وهم سكان البلاد المعروفة «بالقبلة» ، وبيت الإمارة منهم في أبناء محمد الحبيب بن عمر بن المختار وقسم يقال له البراكنة، وهم سكان الأرض المعروفة بشمامة ونواحيها وبيت الإمارة فيهم أولاد اعريشي من أولاد السيد ؛ وقسم يقال له إدوعيش في الأرض المسماة تكانت ، وبيت الإمارة فيهم في أبناء بكار إبن اسويد أحمد بن محمد بن مَحمد شين ، وهاؤلاء بالخُصوص من بقية إمارة لمتونة ؛ وقسمٌ يقالُ له أولاد مبارك في الأرض المعروفة بالحوض ، وبيت الإمارة منهم في أبناء الفحفاح ، وقد انقرضوا ؛ وقسم يقال له أولاد الناصر ، وبيت الإمارة منهم في أبناء شبيشب ؛ وكانت الإمارةُ العامةُ في الحوض لأولاد مبارك حتى تغلبَ عليهم مَشظوف في القرن الماضي ، وبيت الإمارة فيهم هم أبناء المحيميد ،وقسم يقال له البرابيش ، وبيت الإمارة منهم من أبناء سليمان .

الفرع الثالث : مَنْ سكنَ الصحراء مِن عرب المعقل (بنو دليم)

هاؤلاء من الجعفريين الذين يرفع نسبهم بتواتر روايات مؤرخيهم الشفهية إلى جعفر ابن أبي طالب ، ولهذا الانتساب شهوده من نمط حياة أبناء دليم ، فحبهم للشرفاء يسمو على

إمكانية الوصف ، وشجاعتهم المتأصلة وكرمهم الحاتمي وقوة شكيمتهم وأنفتهم ، وجهادهم وتأصل الخصال الحميدة في مختلف جذوعهم وعدم استكانتهم لآية قوة عبر التاريخ وتصديهم للغزاة في كل زمان ومكان ، كلها شواهد عملية تعزز صحة انتمائهم لحبٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنِ عمِّه الشّهيد جعفر بن أبي طالب . وينقسمُ أبناء دليمُ إلى قسمين كبيرين : هما أولاد سنان ومضارب أحيائهم في الجانب الشرقي من بلاد شنقيط ، وذكر المختار بن حامد أن بطونهم هي أولاد المولاة وأولاد الدرعي ابن سنان ، وكلاهما قسمه إلى عدة فروع تحاشينا التطويل بسردهم لعدم تعرضنا لقبائل المنطقة الساكنين بها .

أما الطائفة الثانية فهي ما أطلق عليه المختار بن حامد «دليم الساحل » وهم أولاد معرف ، وقسمهم إلى أولاد الشويخ وأولاد الرميثية .

فمن أولاد الشويخ : أولاد اللب ، وأولاد سحوم ، ثم الوعران المندمجون في الديكات من أبناءِ الرميثية ، ثمَّ أولاد سالم وبعضُ أسرهم ما زالَ مقيماً فيَ توات ووادي درعة ، والبعض منهم يقيم بالحوض الجانب الشرقي من بلاد شنقيط ، ومنهم الكرعُ المستقرون بينَ وادي الذهب ونواذيبو .

أما أولاد رميثية فهم : الديكات ، وأولاد بعمر ، وأولاد تگدى ، وأولاد الخليگة ، والسراحنة .

فمن الديكات : أهل الشيعة بن منصور ، وأهل علي بن بكار ، وأهل الخطاط ، وأهل أحمد بن ابراهيم ، وأهل الفراح ، وبعض الفروع الصغيرة التي لا يتسع المقام لتتبعها .

ومن السراحنة : أهل حيه ، وأهل بيداها ، والمحاميد ، وأهل عمار ولد مبارك ، وأهل الوالي .

ومن أولاد باعمر : أهل الشيخ مبريهي ، وأهل الفقير سويد ، والسواعيد ، وأهل الفقير بريك ، والعمامرية ، والمحاميد ، وغيرهم .

أما أولاد تگدى فمنهم : أولاد ابراهيم ، وأهل على بن سويد ، والزبيرات (أهل الزبير) ، وأهل علي ولد بابا ، وأولاد إبراهيم ، وأهل عثمان بن حم ومنهم أهل براي .

ـ أولاد الخليگة ومنهم : الشگاگفة ، وأهل عمر ولد بركة ، وأهل محمد بن السيد ، والسكاتيم ، والشباهين[1] .

قال عمنا الشيخ محمد الإمام : «وقسم يقال له أبناء الرميثية ، ومنه قبائل دليم ، وأبناء اللب اخوانهم يسكنون في منطقة وادي الذهب ، ولم يجمعهم حكم أمير واحد ، بل لكل فخذ منهم بيت رئاسة متوارثة[2]» .

هذه الإمارات التي ذكر المؤلف ذكرها ضروري لمعرفة البطون التي تنتسب لعرب المعقل ، ويسوقنا ذكرها إلى أن

1) أخذنا هذا التقسيم بتصرف من كتاب **حياة موريتانيا** ، ص 86 و87
2) **الجأش الربيط** لعمنا الشيخ محمد الإمام ، ص 20 ، وهو من أكبر علماء الصحراء وأول من كتب في تاريخها .

سكان شنقيط أو الملثمين الممتدين من واد نون جنوبا ، سواء كانوا من لمتونة أو من بني هلال أو بني سليم أو من عرب المعقل بكل فروعها وأصولها الثلاثة ، وسواء تعرضنا لهذه المجموعة البشرية تحت هذه المسميات التي هي أصولها أو تكلمنا عنها تحت اسم الزوايا والعرب والزناكة فأمجادُها ومفاخرُها وعطياتها الحضارية وإنجازاتها التاريخية في شتى الميادين تشرف من كتبها ، ويعتز بها من قرأها ، ويفخر بها من انتسب إليها ، وظلت جذوع حسان من أوفرها حظا في الذب عن الحمى ، وجميع المؤرخين أجمعوا على أن مستقر سكناهم كانَ في وادي نون ، وأنهم انتقلوا منهُ إلى الصحراء أيامَ دولة المرينيين ، إذ أجْلاهم إليها السلطان أبو بكر ، ثم أجمعت الروايات على أن الأمير المريني أجلاهم في القرن السابع الهجري عن وادي نون إلى الصحراء .

وإذا كانت هذه المقولة جرت على أقلام جميع المؤرخين فإنني استنتجت غير ذلك ، فنظرا لما وصفهم به عمنا مؤرخ الصحراء العالم الفذ والشاعر المجيد والمطلع الشيخ محمد الإمام انطلاقا من دراسات مستفيضة موثقة وشفوية ، دعمتها معايشة طويلة لأحوال المنطقة التي تربى فيها متابعا لشؤونهم ، ففي كنف والده الذي كان نائبا للسلطان في تلك المنطقة لمدة تربو على خمسين سنة ، شب الشيخ محمد الإمام في فترة منها كانت فيها الصمارة عاصمة للمنطقة تحيط بها وتسكنها قبائل الشرفاء ، وتتردد عليها قبائل تكنة والمعقل وغيرهم من قبائل

صنهاجة مما أصبحَ يُطلقُ عليه الزوايا والعرب والزناكة ، فلا غرابة إذا تكونت مَلَكَةُ استقصاء المصادر وذكر الحقائق عند المهتم الناشئ في هذا الجو ، أحرى إذا كان بمثل ذكاء الشيخ محمد الإمام ، ولقد أفاض في ذكر شمائلهم فوصفهم بالشجاعة والكرم والجهاد وحفظ العهد وحسن الولاء واحترام أهل الله ، ولذا نستطيع القول إن زحف قبائل المعقل برؤسائها إلى الصحراء كان توجيها ولم يكن إجلاء ، فهذه أراضي مترامية الأطرف تتطلع إليها نفوس المهتمين المسيحيين الراغبين في السيطرة على المغرب بجميع الوسائل ، خصوصا أن هذه هي فترة بداية الاهتمامات المسيحية بالساحل الأفريقي، والتي سينتج عنها استعمار الجزر الخالدات والتغلغل في الغرب الأفريقي ، فلا يستبعد أن يكون ملوك بني مرين أدعموا المتبقي من الأمراء الصنهاجيين في المنطقة بأفواج قبائل المعقل ليتعاون الاثنان على صدِّ من سولت له نفسه المس بالسيادة الإسلامية ، ويدعم هذا الاستنتاج التلاحم والتعاون الذي تميز به جهاد الأصلين بتلك الاصقاع ، على أننا نستخلص من هذا كله ما يشاهد من أن سجل أبناء دليم غني بالمواقف التاريخية التي شرفت أسلافهم ويعتز بها خلفهم في كل فترة ، فلقد خاضوا حربا جهادية ضد المد الاستعماري ألجموا فيها المتسللين بشواظ من نار أسلحتهم ، كما برهنوا من خلالها للعالم أنهم جناح المغرب الذي لا يكسر وجيش ملك البلاد الذي يقهر ، يصدق فيهم المثل القائل : «يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع» انحصرت اهتماماتهم في حمل السلاح

والذب عن الوطن والجهاد في سبيل اللّه ، فعليهم يصدق قول السَّموأل :

«فَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ   وَلاَ طُلَّ منا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ»

ومع ذلك فإنَّ فيهم أفراداً اشتغلوا بالعلم والصلاح ، فمنصور مثلا جد كثير من الديكات كانَ مجاهداً عظيماً انتشرَ نفوذه على كثير من أراضي الساحل الجنوبي للبلاد حتى كاد يصل للسينغال ، ومع ذالك فإنه كان وليا صالحا ؛ وأيضا خلفه ابنه الشيعة في حمل راية الجهاد والصلاح . وعثمان بن حم في أولاد تگدي عرف أيضاً بصلاحه وجهاده ، وأسرة أهل الطالب عمار من أولاد بعمر عرفت بانقطاعها لتحصيل العلم والعمل الصالح .

لكن تبقى الشجاعة والفروسية والتصدي لمن حاول النيل من سيادة المغرب هي سماتهم البارزة ، والتي كتب عنها جميع المؤرخين عرب وغير عرب ، وسبق لي أن كتبت عنهم مقالا سنة 1968 نشر في جريدة «صحرائنا» التي كانت تصدر بالرباط خلال النصف الثاني من عقد الستينيّات ، نقتطفُ جُملا منه هنا فقلت : «لما حاول المستعمر بشتى وسائله الاستيلاء على الشواطئ الممتدة من أبي الجدور جنوباً حتى الگويرة وعلى امتداد القرنين الماضيين ، فإنه كان يصطدم بمقاومة بني دليم التي لا تَلِينُ ولا تقهر ، ففي سنة 1884 عند ما حطت إحدى الشركات الإسبانية على الساحل في نقطة مكان الداخلة اليوم ، ووجهت إسبانيا مذكرة لمختلف الدول المهتمة بالمسألة المغربية

تذكر فيها أنها تم استيلاؤها على الجنوب المغربي ، فلم يتركهم مقاتلو أبناء دليم يستقرون في المنطقة فبرهنوا للعالم على عدم صدق ما كتبوا ، بل إنهم انقضوا على تلك المنشآت وأسروا إسبانيا وقدموه للسلطان على يد خليفته في الصحراء جدنا الشيخ ماء العينين .

ثم تتابعت معاركهم مع جميع المتسللين ليظل وادي الذهب وغيره من المواقع الجنوبية ضمن الوحدة المغربية ، ولا يمكن لأيٍّ محاول أن يخصها بطيش أو تحكم لا يقره سلطان البلاد ، فلا يفتخرُ الدليمي إلا بالشجاعة ، ففيهم أنفةُ العرب وإباؤهم واحترام حقوق الضعفاء ، ويقال إن الأسرة الدليمية كانت لا تحزن على عزيز سقط في ميدان الجهاد ، بل بعضهم كان يضرب الدفوف ويأمر أسرته بالظهور بمظهر الابتهاج ، لأن ولدا له مات في سبيل اللّه .

أما عن حياتهم الخاصة فقد اشتغلَ أبناءُ دليم بتنمية الإبل نظرا لعدم إمكانية غير ذلك من وسائل التنمية في تلك المنطقة ، لكن كرمهم حال بين كثير منهم مع جمع المال والتكسب ، ولقد ظلت الصلة قائمة بين مجموعتي بني دليم : المجموعة المتمركزة بوادي الذهب وأختها المجموعة المنتشرة داخل الوطن ، بعضها بنواحي مراكش إذ يطلق عليها أبناء دليم ، والبعض في نواحي سيدي قاسم . والملاحظ أنه رغم صعوبة التواصل خلال أول هذا القرن بسبب الحواجز المصطنعة التي وضعها المستعمر فإن التواصل بين الطرفين لم ينقطع ، فأبناء كل فريق استمروا في زيارة الفريق الثاني .

أما عن المسؤوليات التي تقلدها أبناؤهم فهي كثيرة ومهمة ، سنتعرض إليها بتفصيل في المكان الذي خصصناهُ لنضال العرش وقبائل الصحراء من أجل استتباب الوحدة وصد المعتدين . وبنو دليم كثيرون منتشرون في مختلف أنحاء الوطن المغرب وكذلك في مختلف جهات موريتانيا ، فمنهم بطون اندمجت في قبائل عربية أخرى ، ومنهم أسر تولت قيادات القبائل التي اندمجت فيها ، وتسلسلت فيها قيادة تلك القبائل إلى اليوم .

ولا غرابة في ذلك ، لأن نسبتهم جميعا إلى حسان تسهل انصهار بعضهم في بعض ، فيجتمع معهم البرابيش في أنهم جميعهم ينحدرون من حسان ، وكذلك أولاد رزگ والمغافرة وأولاد «عروگ» وأولاد عمر ، بن حسان» .

فهذه الجذوع كلها من حسان ، لكن ليست موجودة في الصحراء التي نتكلم عنها ما عدى أولاد دليم وبعض من البرابيش وبعض الأصول المغفرية التي دخلت في مجموعة صنهاجة فغلبت عليها النسبة إليهم مثل الكثير من قبائل تكنة التي نُرجح أن جلها من عرب المعقل عكس ما يدعيه بعض المؤرخين المعاصرين .

وإن ما أشرت إليه من كون سلالات من بني دليم اندمجت في قبائل أخرى لكنها استلمت قيادتها هو خير دليل على نزوع أبناء دليم إلى المجد ، فزهدهم في التكسب وشجاعتهم ورمايتهم وقوة شكيمتهم سهلت عليهم المرور إلى القيادة في

القبائل التي انتسبوا إليها ، وقبل أن ننهي الكلام على بني دليم نشير إلى أنهم تحت هذا الاسم شكلوا كما سلف عددا كبيرا ينقسم إلى قسمين كبيرين هما :

1) أولاد سنان
2) أولاد معرف

أما الطائفة الأولى فلا يوجد منهم في الصحراء المغربية سوى أسر قليلة جدا من أولاد المولاة ، وكذلك أسر من أولاد الدرعي بن سنان في أبناء موسى من الشرفاء الرقيبات ، وباقي جذوع[1] أولاد سنان متناثرة في مختلف الربوع الموريتانية .

وبينما أبناءُ معرف هم أبناءُ دليم الذين ينتشرونَ كما قدمنا في وطنهم المغرب ، وقسم منهم استوطن في الصحراء المغربية فأسسوا مدينة الداخلة ، وهم الذين بنوها ، وبها خاضوا معارك كثيرة مع الجيوش الأوربية حفاظا على مغربيتها فحالفهم النصر في جميعها كما سيأتي في فصل كفاح العرش والصحراء من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية واسترجاع ما تبقى من الأرض الوطنية التي تأخرت تحت حكم المستعمر .

وتنقسم طائفة أبناء سنان إلى بطنين كبيرين هما أولاد الشويخ وأولاد الرميثية فمن أولاد الشويخ : أولاد اللب ، وأولاد سدوم وليس منهم إلا قليل في الصحراء إذ تسكن أحياء منهم

---

1) انظر **حياة موريتانيا الثقافية** ، ص 86

في بادية الداخلة في أرض ءادرار صطف وأما جذوع أبناء دليم الأخرى فقد سبق التعريف بها .

وقد حمل بعض عقلاء هذه القبيلة ظهائر علوية تزكيهم على مجدهم المتوارث وتحملهم مسؤولية تسيير شؤون قبيلتهم وسنتعرض إلى ذكرها تباعا بحول اللّه . وقد بقي أبناء دليم يدافعون من أجل الحفاظ على مغربيتهم ، حتى انتزعوا الداخلة بشجاعتهم وحنكتهم سنة 1981 وأعادوها إلى الوطن الأب تحت القيادة الحكيمة والتوجيهات الرشيدة لأمير المؤمنين أيده الله ونصره .

المبحث الرابع ـ القبائل المنفردة

وجدنا أنه من باب تسهيل مهمة القارئ عدم تكثير الفصول والمباحث بمواضيع إذا لم يكن يجمعها قاسم مشترك فإن تخصيص مبحث مستقل لكل واحدة منها يتكون من عدة فقرات لا داعي له ، لذا جمعنا القبائل التي تنتمي إلى مجموعة تشترك في أصل واحد مثل ما عليه حال الشرفاء الرقيبات وقبائل المعقل ، أو تسمى باسم واحد مثل قبائل تكنة ، فخصصنا لكل مجموعة مبحثا خاصا بها . ولذا فالقبائل التي لم تكن لها تبعية في حياتها السياسية والاجتماعية ولم تكن مندمجة في إحدى المجموعات التي تكلمنا عنها سنبحثها في هذا المبحث ، على أن نخصص لكل واحدة فرعا مستقلا بها ، وأيضا لا بد من التنبيه إلى شح المعلومات التي بأيدينا عن بعضها بسبب قلة المراجع في هذا الموضوع ، فما سنكتب عنها نتمنى أن يكون حافزا للذين بيدهم معلومات أكثر شمولا أن يكتب ، على أن لا تكون الكتابة عن الفتن المحلية أو المنابزات الكلامية التي أوضحنا غير ما مرة أننا لا نعتبرها مادة تاريخية بقدر ما نعتبرها إثارة للضغائن والأحقاد .

وهكذا سنقسم هذا المبحث إلى سبعة فروع هي :

الفرع الأول : الشرفاء العروسيون

الفرع الثاني : أهل الشيخ ماء العينين

الفرع الثالث : أبناء تيدرارين

الفرع الرابع : فلالة

الفرع الخامس : تبالت

الفرع السادس : أبناء أبي السباع

الفرع السابع : قبائل الزوايا

الفرع الأول : قبيلة الشرفاء العروسيين

تقطن هذه القبيلة بإقليم أبي الجدور ، وتتكون من عدة جذوع ، ويرتفع نسبهم جميعا إلى الولي الصالح الشيخ سيدي أحمد العروسي دفين الساقية الحمراء ، وهو ولي صالح اشتهر بانقطاعه للعبادة ، وقد ظهرت على يده كرامات كثيرة تحدث عنها من اهتموا بالكتابة عن الحياة الصوفية .

نشأ الشيخ سيدي أحمد العروسي بمدينة مراكش أيام دولة السعديين ، ويقال إنه تتلمذ على الولي الصالح سيدي رحال البدالي إما مشافهة وإما أخذا عن أحد أتباعه ، إذ لم نعثر على سند مشيخته ، أما نسبه فيرتفع للدوحة النبوية الكريمة مـــــرورا بمولاي إدريس رضي اللهّ عنه ، وبذلك فالعروسيون لم يختلف النسابون في شرفهم ، ومن سلوكهم اتخذ الناس أعظم دليل على ذلك الشرف ، إذ يمتازون بالكرم ولين العريكة لمن لم يمس من كرامتهم ، وإذا أثيروا فهم الأشداء الشجعانُ والفرسانُ المغاويرُ والأبطالُ الذين لا تلينُ شَوْكتُهم ، فالأخبار المتواترة عنهم أن الرجل العروسي إذا توفر على سلاح وذخيرة لا يأبه بكثرة منازليه ، فواحد منهم يحمي ذماره مهما بلغت كثرة المعتدين عليه ، وخلال تاريخ المواجهات المحلية التي ذكرْنا ما نراهُ أسباباً لها لمْ يُسجَّلْ عليهم تَسلُّطٌ على أحَد ، كما لم يسجل عليهم الخضوع لأحد مهما بلغت شوكته ، ومن هنا يجب أن يدرك كل قارئ أن من قال إن العروسيين دخلوا في حماية أحد أو أنهم تبعوا لتجمع معين أو قبيلة ما مهما كانت

قوتها ، فذلك محض افتراء ، فلقد حافظوا على شرفهم واستقلالهم عن مجموعات القبائل المحيطة بهم ، إلا في حدود التعاون والتنسيق لمواجهة أعداء المغرب ، فغير ما مرة طارح فرد من هذه القبيلة جيشا من المعتدين دفاعا عن نفسه وماله ، فيحمي منه ماله وأهله ، ولقد امتد جهاد العروسيين إلى أقصى جنوب بلاد موريتانيا ، وقد تتابعت الروايات الشفوية على أن إبراهيم إبن الشيخ سيدي أحمد العروسي قاد حملات الجهاد بنفسه ضد التسلط الفرنسي الزاحف من شمال السينغال على جنوب موريتانيا خلال فترة ءاخر حكم السعديين ، كما يحكى أنه كان يزعم الدخول في حرب «ببه» حتى عاجله الأجل قبل الدخول فيها ، وهي حرب شبت بين من يطلق عليهم الزوايا مع من تطلق عليهم تسمية المغافرة ، وأرجح أن تلك الحرب كانت من دسائس المخابرات الفرنسية ... .

وقبيلة العروسيين اشتهرت بحفظ القرءان وتعليمه ، وفي حياتهم المهنية يشتغلون بتنمية الحيوانات والحرث وتقل فيهم التجارة ، ولم يتمكنوا من الاستقرار المدني إلا في عقود الستينيات ، لكنهم يَسكنونَ نقطةً مَحدودةً يتنقلون فيها هيَ نواحي بوجدور ، والعروسي بطبعه متكتم ومنزو على نفسه ، لكنه طيب النفس إذا خولط ، وقد حملوا السلاح في وجه المد الاستعماري بشرف وإخلاص وشجاعة ، ونفس الشيء فعلوه مع جيش التحرير خلال الخمسينيات والستينيات ، فدافعوا عن الوحدة المغربية داخل ذلك الجيش دفاع المجاهدين الأبطال .

توجد مضارب أحياء هذه القبيلة في بوجدور ونواحيه ، وتتكون تلك القبيلة من عدة جذوع ، كل جذع عليه شيخ ، وكانت مشيختهم العامة في القائد محمد بن سيدي إبراهيم ، وهو من أهل التقوى وحفظ القرءان ، وكذلك أبناؤه لهم مشاركة في حفظ القرءان وبعض النصوص الفقهية ، وفي كل فرع من فروع تلك القبيلة أسر تعاطت العلم ، ويكثر فيهم حفظ القرءان قديما وحديثا ، وينحدرون من الولي الصالح أحمد العروسي بن عمار بن موسى بن يحيى بن الحسن بن سعيد بن عبد القادر بن صالح بن عمر بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الصادق بن عبد الكريم بن عبد الكامل بن علي بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه وأمه خير نساء العالمين سيدتنا فاطمة بنت سيد الوجود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لم أعثر له على سلسلة مضبوطة إذ وصلتني ورقتان كلتاهُما تَحملُ أسماءً تُخالفُ الأخرى ، ووجدتُ أن إحداهما ناقصة أسماء عن الأخرى ، فكملت الأسماء المحذوفة فكانت الحصيلة هي هذه السلسلة التي لا محالة ستكون ناقصة من ستة إلى سبعة أسماء ، أخذا بعين الاعتبار بعض الضوابط التي يحددها المؤرخون ، وهي تقريبية لا تعتبر قاعدة ثابتة ، إذ تدخل عليها الأيام تغيرات ترتبط بالأعمار ، وتلك القاعدة هي أن كل قرن يعيش فيه ثلاثة رجل وولده وولد ولده ، وإذا طبقنا ذلك على ما في أيدينا لوجدنا أن ثمانية أشخاص تنقص هذه

الشجرة ، ولذا فإنها لا تعتبر شجرة كاملة ، وإنما تبركنا بأسماء أصحابها واعتمدنا فيه على النقل الشفوي لبعض أبناء قبيلة العروسيين ، ونطلب ممن لديه منهم لائحة صحيحة أن يُمِدَّنا بها لنُدرجَها في الطبعة الثانية لهذا الكتاب بعَوْن الله .

كان الشيخ أحمد العروسي من علماء مراكش والصالحين المشهورين بها ، ويحكى أن خلافا نشأ بينه وبين بعض معاصريه ، فتشيع للشيخ أحمد العروسي شيخه البدالي ، فأخرجه من مراكش بطريقة تروى في قصة كلها خوارق للعادات بأسلوب ليس مستحيلا ولا صعبا على فضل اللّٰه على عباده ، وليس أدبا مع التشريع الظاهر استعراض تفاصيله على العامة ، وعلى من ينظره بنظرة تخرجه عن دائرة الجواز شرعا أن لا يظن أنه مستحيل على قدرة اللّٰه وجوده .

المهم أن العارف العامل الولي الصالح العابد المتمسك بظاهر الشرع حسب المتواتر عنه الشيخ أحمد العروسي نزل بهَضَبَةٍ قربَ مدينة الصمارة تسمَّى إلى اليوم «الطبيلة» ، وما زالت ءاثار على الحجارة تمثل نقوشا وصورا لأقدام وحروف ، كل ذلك على الحجارة الصلبة يقال إنها من ءاثار تعبده رحمه اللّٰه وأسكنه فسيح جناته .

وتتواتر الأخبار أن سكان تلك المنطقة تَلَقَّوْهُ بكثير من الفرح والتبجيل والإكرام ، فاستفادوا من علمه وورعه وصلاحه وتوجيهه ، وبقي ينشر الدين ويعلم الناس القرءان وغيره من علوم الشرع إلى أن وافاه الأجل المحتوم عام 1002 هجرية

بالساقية الحمراء غرب مدينة الصمارة في مكان أصبح يطلق عليه اسمه ، وقد خلف أبناء تنتسب إليهم الآن فروع قبيلة العروسيين .

إن نسبة الشرف في العروسيين عليها شواهد كثيرة ، ففيهم شجاعة علي ، وكرم جدهم عليه الصلاة والسلام وحِلْمَهُ وصفحه ، ويعمهم حبٌّ الجهاد والشجاعة ، فيحفظون حكايات نادرة عن بطولات رجالاتهم ، إذ فيهم من يكبح جماح جيش بأكمله ، فقد تعددت الحكايات التي يروي أصحابها أن فردا من العروسيين أغار عليه جيش فانتزع منه ماله ، وصده عن بيته أوْ حَيِّه ، فهذه الشيمة لا يخلو أي فرع من فروع العروسيين من أحد أبطالهم سبق أن حققها .

وكل واحد منهم عصامي، لا يعتمد بعد الله إلا على نفسه، فيشتغلون بتنمية الحيوانات والفلاحة كما قلنا .

ورغم بسالة مقاتليهم لم تتحدث روايات تاريخ المنطقة أنهم بادروا أحدا بالعداء ، ولا اعتدى عليهم أحد إلا انتصروا عليه ، وطبيعة العروسي الانزواء على نفسه ، والظهور بمظهر أبهة تكفل له الاحترام ، لكنها تقلل من إمكانية الانفتاح عليه بسرعة، غير أنه إذا خولط اكتشفت دماثة أخلاق ولين عريكة وميل إلى الصحبة ، مع حفظ العهد وصدق المحبة ، مما يكفل للعروسي استمرار العلاقة الحسنة مع جميع من خالطه .

وهم فرسان شجعان ووطنيون مخلصون ، لم يستطع الاستعمار الإسباني طيلة وجوده في الصحراء بأن يكسب

موالاتهم له ، بل ظلوا حذرين منه مبتعدين عن مخالطته أو التقرب منه ، وعندما اندلعت التعبئة الوطنية في المنطقة لم يتخلف عنها ولو فرد واحد من أبناء الشرفاء العروسيين ، وعندما تأسس جيش التحرير في الصحراء انخرطوا فيه جميعهم كما سيأتي في فصل الكفاح الوطني للصحراء المغربية .

ومن رجال العروسيين من لعب دورا كبيرا حتى خارج المنطقة ، فهذا سيدي إبراهيم بن الشيخ أحمد العروسي قاد حملات الجهاد إلى الجنوب محاولة منه لصد تسللات الدول المسيحية إلى جنوب الصحراء ، فوصل جنوب موريتانيا ، ويروى أنه ساهم في بعض وقائع حرب «ببه» المشهورة في تلك الجهة، والمؤكد أن إبراهيم قاد حملة كبيرة للجهاد في النصارى كما سبق أن ذكرت .

واستمر في ذلك إلى أن وافاه الأجل المحتوم في أحد سفراته على رأس جيش من المجاهدين ، ثم دفن بمكان يسمى «دومس» بوادي الذهب .

لقد جمع سيدي إبراهيم ابن الشيخ أحمد العروسي جيشا كبيرا جدا من مختلف قبائل المنطقة ءانذاك ، وحاول تأسيس نواة لقوة قادرة على حماية الجنوب المغربي من أي تسلل للنصارى ، وحتى يتمكن من ذلك تاقت نفسه لحماية الضفة الشمالية لنهر صنهاجة ، حتى مات شهيدا في سبيل الله شادا الرحال لإعلاء دين الله وحماية حوزة الإسلام . والمرجح لدي أنه

عقب ولدا اسمه شنان اشتغل بنفس المهمة ، ودليلي على ذلك ما قاله صاحب الحسوة البيسانية ، فقد نص على أن أحد الشرفاء انتقل إلى ولاتة مجاهدا اسمه شنان ابن إبراهيم ، ثم قال إنه شريف .

إن قتل شنان بن إبراهيم العروسي بولاتة سنة 1040 لدليل على سعة الرقعة التي انتشر فيها جهاد الشرفاء العروسيين ، فإبراهيم ابن الشيخ سيدي أحمد العروسي انتقل إلى الجنوب مجاهدا حتى وافاه الأجل ، وولده شنان ذهب إلى الشرق للقيام بنفس الهدف الديني .

يقول صاحب الحسوة البيسانية أنه لا يعرف تسلسل نسبه ، إلا أنه قطع بشرفه، ثم ذكر بأنه نزل على ولاته في محلته، وفرض الضرائب على كل شيء حتى على حطب الطبخ ، فشق ذلك على السكان نظرا لقوة جيشه وعدم طاقتهم على قتاله ، فلقد نزل على عين ماء جارية توجد شرق المدينة اسمها عين النخل ، وأدار على جيشه حائطا ، فاحتال عليه أولاد يونس بأن انقسموا فريقين أظهرا خلافا مصطنعا ، فانضم إليه أحدهم ، فأدخله معه في قصبته ، فهجم عليه الفريق الآخر ، فلما خرج لقتالهم أخذه الفريق المهادن من الخلف ، فأوقعوا في جيشه القتل والنهب ، ثم قُتِلَ هو ، قتله رجل من أحلاف أولاد يونس[1].

---

1) **الحسوة البيسانية** ، ص 13 ، مخطوطة بمكتبة العلامة الفذ والشاعر المغلق المجاهد الغيور الداعية الشيخ ماء العينين لارباس بن الشيخ محمد الأغظف رئيس المجلس العلمي بالعيون .

لقد ظل أبطال الشرفاء العروسيين واقفين في الصف الأمامي مع المدافعين من أبطال قبائل الصحراء لصد التسللات الأجنبية برتغالية كانت أو إنجليزية أو فرنسية أو إسبانية ، فكل المعارك التي تتابعت في المنطقة ابتداءاً من القرن السابع عشر حتى وضعت الحرب أوزارها سنة 1934 في الصحراء المغربية كان رجال العروسيين من أصلب مقاتليها وأشجع مجاهديها ، ولما تحكم الاستعمار الإسباني ظل شيوخ العروسيين من أقوى المدافعين عن الشريعة الإسلامية المجاهرين ببيعتهم للعرش العلوي المجيد ، حتى انعقد مؤتمر «أم اشكاگ» في أبريل سنة 1956 بدعوة من نائب الخليفة الولي الكامل والعالم العامل والقائد المحنك الصالح المصلح الشيخ محمد الأغظف الذي دعا لذلك المؤتمر فترأسه ومولّه ووجهه ، فكان أبناء العروسيين من أكثر الناس الذين حضروا فيه ، فهبت مجموعة منهم في الوفد الأول الذي مثل الصحراء فبايع جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، واستمروا في مقدمة العمل الوطني بالمنطقة إلى اليوم .

الفرع الثاني : قبيلة أهل الشيخ ماء العينين

في إطار تعميم نسبة الأصول على فروعها المستعملة في هذه الدراسة مع بعض المجموعات التي تعرضنا لها ، تفرض علينا الأمانة العلمية والظاهرة المعرفية أن نتعرض لمختلف فروع القبيلة التي ينتمي لها أهل الشيخ ماء العينين لتسهل لنا ، كما

فعلنا مع غيرهم ، الإحاطة بما يعني من يوجد منهمْ في الحيز الترابي المخصصة له هذه المحاولة .

ينتمي الشيخ ماء العينين لقبيلة الجيه المختار ، وهي من أوفر القبائل الإدريسية عددا ، إذ تُوجد في بلاد الحوض (شرق موريتانيا) أربع بلديات لتلك القبيلة هي بلديات :

1) بيري پاپي
2) اكوينيت
3) حاسي اتيلة
4) جيدي

تلك المدن لهم ، وجل سكانها منهم لكثرة عددهم ، هذا بالإضافة إلى أسر تنقلت منهم إلى أماكن أخرى فأصبحت كل واحدة منها تكون قبيلا جهويا نذكر منهم :

- أهل الشيخ محمد فاضل بن محمد في الجريف شمال ءادرار .
- أهل مصباح الذين في خليج السينغال .
- أهل الشيخ سعد أبيه في النمجاط جنوب شرق نْواكشوط .
- أهل المَّمّ ، وأهل سيدي هيبة في ءادرار .
- أهل الشيخ المحفوظ في كاصاماصة في السينغال .

هذه البلديات والمراكز والمجموعات إضافة إلى أهل الشيخ ماء العينين في المغرب وموريتانيا ، الكل يكون قبيلا واحدا يطلق

عليه في المغرب : أهل الشيخ ماء العينين ، وفي موريتانيا يعرف باسم «الأشياخ» أو أهل الجيه المختار ، ومن أهل الحوض من يفضل أن تطلق عليهم تسمية أهل الطالب مختار . وكل تلك التسميات ترجع إما للقب أو اسم أحد أجدادهم ، لكنها إن أطلقت تضم هذه القبائل ، علما بأن ءال محمد ابن عبيدي وأهل الشيخ ماء العينين وءال الشيخ سعد أبيه كلهم تميز باسمه الخاص به .

أما عن أوصافهم العامة ومميزاتهم التي عرفوا بها ، فقد تميزوا بتعلم العلوم وتحصيلها وتدريسها وتأليفها وامتهانها ، كما أوقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله والذب عن حوزة الإسلام وحمل أعلام الدفاع عن شرع اللّه ، متشبثين بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية ، وأصبح بعض مشايخهم اليوم يجاهرون بتمسكهم بالطريقة القادرية ، وإن كان الشيخ ماء العينين نسب إلى والده الشيخ محمد فاضل عدم التقيد بأية طريقة معينة ، بل أثبت في ملفاته أن والده لم يلقنه طيلة حياته وقراءته عليه ورداً نسبه إلى طريقة خاصة ، كما ذكر أنه لم يسمع أو يشاهد ما يجعله يجزم بأنه يفضل طريقة من طرق أهل اللّه على أخرى حتى يكون ذلك قال الشيخ ماء العينين ترجيحا لها على غيرها يمكنني أن أقلده فيه ، هذه الفكرة أوردها الشيخ ماء العينين في كثير من مؤلفاته مثل كتاب «إظهار الطريق المشتهر على قصيدة اسمع ولا تغترر» ، وكذلك كتابه «منتخب التصوف على مبصر المتشوف» ، وكتابه «إبراز اللآلئ المكنونَاتْ» .

غير أن أهل الجيه المختار تعاطوا جميع العبادات ، فامتهنوا الخلوة ، ومجاهدة النفس ، والاستقامة الدائمة ، والتقرب إلى الله بتلاوة كل أسمائه الحسنى ، مع قراءة القرءان الذكر والخشوع والزهد والتقوى وعدم إذاية عباد الله ، إضافة إلى قوة في الله لا تلين وجبروت لا تقهر ، فما استطاع فاجر ولا متسلط ولا لص ولا غادر أن ينتهك حرماتهم ولا حرمات من انتسب إليهم ، حتى إن كل الإمارات التي تعاقبت على أرض الحوض التي نزحوا إليها بعد نكبة الأدارسة لم تسول لأحد أبنائها نفسه يوما ما أن يمسهم فيها بسوء ، أو يأخذ عليهم أو على من معهم أي شيء من الإتاوات أو المغارم أو التكاليف التي تعارف عليها الناس واعتادوا إعطاءها لكل إمارة من إمارات المنطقة عبر التاريخ ، إلاَّ هذا المحتد ، فما لم تتكفل لهم العناية بالانتقام من أهله إن مسهم أحد منهم بسوء مكنتهم بفضل من الله من القوة المادية التي سحقوه بها ، وهكذا استمر احترام من انتسب إليهم أو تسمى باسمهم ، وَلعلَّ هذا من بين العوامل التي جعلت الكثيرين من أقطابهم كلهم لما ينزل بأرض ينظم فيها قبيلا يخصه ، وما الولي الصالح والعالم الكبير ، من لازمه خرق العادات بفضل الله ، وأجرى الله الاستجابة على لسانه : الشيخ محمد فاضل بن محمد ، إلا مثلا أعلى لهذا ، وكذلك الولي الصالح والداعية الكبير الشيخ الجليل صاحب التآليف الكثيرة ، والأشعار الرقيقة ، من انتشر ذكره في جميع أقطار غرب أفريقيا فهدى الله به الضالين وأرشد به الحائرين ، الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل ابن مامين ، وما أظهر الله

اليوم من أنواره الربانية وتجلياته التي يخص بها من يشاء من عباده الشيخ اعلي الشّيخ بن الشيخ محمد المامون بن الشيخ محمد تقي اللّه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين ، ما هؤلاء إلا دليل على عظمة هذا المحتد المنتسب للرسول صلى اللّه عليه وسلم احتسابا وانتسابا ، لأن سلوكهم السُّنَّةُ وشعارهم الدفاع عن الإسلام .

وكلهم ظلت وشائج المحبة والحنين تشدهم إلى الدوحة النبوية الكريمة الأسرة العلوية المجيدة لإعلان البيعة الشرعية لها هروبا من الوعيد الوارد فيمن مات ولم تكن في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ، وإذا كان هذا الموضوع لا يتسع لدراسة ذلك المجال ، فإن أشعارهم وأنظامهم وكتبهم فيها ما يكفي من ذلك .

ثم إن أهل الجيه المختار حملوا راية جهاد النصارى بتوجيه من والدهم وعالمهم وشيخهم العَلَمَ الذي لم يشاهد في زمنه مثله علْماً وسلوكا وبذلا وتربية ومكانة شيخ الإسلام الشيخ محمد فاضل بن مامين ، أما ابنه الشيخ ماء العينين وأتباعه فلا يَحتاجُ إلى كتابتنا نحنُ عليه ، بل يَكفي ما شهدتْ به أعداؤه عليه ، إذ صاحبته عناية ربانية غريبة ، ذلك أنه ما واجه أحد النصارى بأكثر مما واجههم به ، ولا كتبت أقلامهم تدون معارك أحد بصدق في مجملها أكثر منه ، ولذا أصبحت كتابة تاريخ جهاده تعتبر تكرارا لكثرة ما يملأ الساحة من الكتابات الأوربية وحتى الأمريكية عنه .

ثم إن أبناء إخوته تقاطروا عليه هجرة في سبيل الله لحمل راية الجهاد معه ، ولا يجهل أحد من جنوب المغرب وموريتانيا جهاد المرحوم «وجاهة» وأخيه محمد المامون وابن عمه الشيخ محمد المامون بن الشيخ محمد فاضل بن محمد بن اعبيدى ، ومامينا بن سداتي ابن الشيخ ماء العينين وغيرهم ممن لو تتبعنا لائحتهم لخرجنا عن موضوع هذه الدراسة .

أما عن مؤلفي هذه القبيلة فأكثر بهم ، ومنهم أيضا على سبيل المثال لا الحصر :

- الشيخ محمد فاضل بن مامين نفسه وأبناؤه ومنهم :
- الشيخ ماء العينين
- الشيخ محمد المامون
- الشيخ محمد تقي الله
- الشيخ الحضرامي
- الشيخ مصباح الدين
- الشيخ الطالب بويا
- الشيخ حسنا
- الشيخ سعد أبيه
- الشيخ سيدي علي
- الشيخ سيدي الخير
- الشيخ التراد بن العباس بن الشيخ الحضرامي
- الشيخ احمد الهيبة بن الشيخ سيدي الخير
- وكذلك الشيخ محمد فاضل بن محمد بن اعبيدي وأبناؤه

إضافة إلى مجموعة من أبناء الشيخ ماء العينين كلهم لهم مشاركات جيدة ، وقد تركوا كُتُباً نافعة ستسهم في إغناء المكتبة الإسلامية إن رأت طريقها إلى الطبع ، أما الشعر فجلهم يجيد قرضه ، وهو متداول في المنطقة على ألسن العامة .

هذه المبادئ العامة التي شكلت قاسما مشتركا تميز به أهل الجيه المختار ، وهي تتلخص في كسب العلم بالجد في تحصيله وتعليمه ، وصرف الطاقة لتعميم التربية الإسلامية ، وانشغال القلب بالله ، وحمل شرف راية الجهاد والدفاع عن حوزة الإسلام ، ومهادنة جميع المسلمين ، فما سجل التاريخ عليهم مواجهة دموية مع قبيلة أخرى ، رغم شيوع تلك الظاهرة خلال القرن الماضي وأول هذا القرن ، فما تسلطوا على أحد ، وما كتب على أحد أن تسلط عليهم ظلما إلا كان انتصار الله لهم يكفيهم شره ، كما أعطاهم الله الانتصار على من واجهوه لكسر شوكة ظلمه .

هذه المعلومات العامة التي توضح لنا البعد البشري لأهل الشيخ ماء العينين ، علما بأن الروح الدينية والرباط الجهادي الذي نشأوا فيه يصرف نظرهم عن التمسك بفكرة القبلية الضيقه ، فبعدهم الديني والحضاري ينصهر في الوطن بدون تلك النزعة العصبية ، لكن في إطار ما لا بد منه فإننا نعرف بهم فيما يلي :

هذه القبيلة مؤسسها هو الشيخ ماء العينين ، ولد في الحوض (أرض تقع بشرق بلاد موريتانيا) ، وتلقى دراسته على

والده الشيخ محمد فاضل وعِلْيَةِ أَسَاتِذَةِ مدرسته التي شكلت قاعدة إسلامية نشرت إشعاع الإسلام وعلومه في كثير من أقطار غرب أفريقيا التي انتشر فيها أتباعه وكثر بها تلامذته ، ولكونه سلك طريق السلف الصالح في ممارسات الطاعة وحرب البدعة وتطبيق السنة ، ولانتشار الطرق الصوفية في أرضه وزمنه ، ولما لم تجده العامة متحيزا إلى طريقة بعينها أصبحوا يطلقون على سلوكه السني المتميز الطريقة الفاضلية ، ونظرا أيضا لانتشار الطريقة القادرية فإن الكثيرين نسبوه لها، ولم أجد لذلك دليلا موثقا ، بل كل ما أستطيع ترجيحه هو أن الشيخ محمد فاضل كان عالما سنيا سائرا على منهج السلف الصالح ، وأنه لقن هذا المنهج والسلوك لأبنائه من بعده ، وقد أشرت إلى هذا بما فيه الكفاية في كتابي عن الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والسلفي .

أما عن نسب أهل الشيخ ماء العينين: فهم قبيل يتكون من خليط من جميع السلالات ، إلا أن من خرج من عقب الشيخ الذي تحمل القبيلة اسمه هم شرفاء أدارسة حسب سلسلة نسبهم الآتية : هو محمد المصطفى الملقب بالشيخ ماء العينين إبن الشيخ محمد فاضل بن مامين بن الطالب اخيارين بن الطالب محمد بن الجيه المختار بن الحبيب بن علي بن محمد بن يحيى بن عالي بن شمس الدين بن يحيى بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمان بن أران بن اتلان بن أجملان بن إبراهيم بن مسعود بن عيسى بن عثمان بن اسماعيل بن عبد الوهاب بن يوسف بن عمر بن يحيى بن عبد

اللّه بن أحمد الأغر بن عبد اللّه بن إدريس بن عبد اللّه بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ، وأمه فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

هذه سلسلة نسبهم الشريف ، وقد تواتر عليها المؤرخون والنسابون ، ودونت نظما ونثرا على صفحات الكتب وفي عقود شجرتهم المنتشرة عند كثير من أبنائهم ومحبيهم ، وقد نقلتها هنا من نظم العالم الجليل أحمد العلمي الشريف الإدريسي الفاسي ، طبعها على الصفحة الأولى من كتّاب نعت البدايات في التربية الإسلامية للشيخ ماء العينين رحمه اللّه ، وزدت فيها محمد بن الطالب اخيار قبل الجيه المختار لأن ذلك هو الصحيح .

ولد الشيخ ماء العينين عام 1246 هجرية ، وتوفي سنة 1328 هـ ، قال فيه العالم الدكتور عثمان بن الشيخ أحمد بن أبي المعالي ما نصه :

«لقد ظهرت على الشيخ ماء العينين مخائل النبوغ مبكرا ، وتفرس فيه والده ، صاحب الفراسة النورانية ، ما سيصير إليه شأنه ، فجاءت فراسته موافقة للواقع . وبعد أن تعلم في مدرسة والده وتخرج عليه في جانبي مدرسته العلمي المعرفي ، والعلمي السلوكي ، أذن له بل أمره بالخروج معلما وداعيا ، مرشدا وهاديا ، متعدد المواهب ، متنوع المعارف ، ولذلك تعددت المجالات التي شملها عطاؤه[1]» .

1) كتاب العالم الجليل نؤابة المجد سلسلة المشائخ عثمان بن الشيخ أحمد ابن المعالي ص 242 تحت عنوان **الفكر الأصولي من موريتانيا** .

لما صدره والده خرج متوجها إلى الحج وعمره تسعة وعشرون سنة ، فقصد السلطان المنعم مولاي عبد الرحمان ، فقدم عليه في مكناسة عام 1274 يوم 27 من رمضان ، فأحسن وفادته وأكرم مقدمه ، وبسط عليه من أردية التبجيل والاحترام ما لم يفعل لأحد من رعيته أو غيرها قبله ، وبعد أداء فريضة الحج رجع إلى السلطان المنعم مولاي عبد الرحمان خلال شهر رمضان من سنة 1275 فأحسن وفادته وأرسله إلى ولي عهده خليفته على مراكش سيدي محمد فطلب منه المكوث عنده .

ومن هذه السنة استحكمت وشائج الإخلاص والمحبة بينه وبين ملك البلاد ، فأخلص الشيخُ ماءُ العينَين للعرش أشدَّ ما يكون الإخلاص ، وأنعم عليه العرش غاية الإنعام ، فصادفت الثقة أهلها ، وأسندت المسؤولية لمن أحسن القيام بها . من هذا المنطلق تكونت قبيلة الشيخ ماء العينين في الساقية الحمراء بالصمارة، فهي تجمعٌ نشأ من أجل حفظ الحدود ، ونشر العلم، وتأسيس أولى نواة للحضارة في منطقة نائية تشكل نقطة وصل بين الجنوب والشمال ، ويكفيها أنها تكونت استجابة لطموحات شيخها الشيخ ماء العينين الذي بينتُ بعضا مما أعرفه عنه في كتابي عليه ، وليس المجال الآن مجال الحديث عن الأشخاص ، ولو تأتى لنا ذلك هنا لتكلمنا عن مجالات إنتاجه المتعددة التي قدمها الشيخ ماء العينين للإنسانية ، فتآليفه تجاوزت 360 كتابا ، ومنهم من أوصلها إلى 400 كتاب ، وجهاده استمر مدة خمسين سنة ، قَضَّ خلالها مضجع المسيحيين وصدهم رغم أنفهم عن الاستقرار في كل الجنوب المغربي طيلة حياته ،

ومنهجه السلوكي في التربية الإسلامية كان متميزا ، إذ ارتقى بممارسة الطاعة اليومية إلى عهدها السني الصافي ، عهد سلوك الصحابة رضوان الله عليهم ومن حذا حذوهم من رجال السلف الصالح ، هذا إضافة إلى تحمل أعباء الدولة في مناطق نائية وشاسعة ، قربها بنشاطه لعاصمة الدولة ، وأخرجها بحكمته من حياة الفوضى والسيبة ، ثم أسس حاضرة كبيرة لم يُشهد مثلها قبلُ ، كما أنه صرف جل وقته في تدريس العلم لأفواج تلاميذه الكثيرين ، هذه المجالات كنا كتبنا عليها كتابا فلم نفِ بها ، وكتب عليها غيرنا ، وما زال بعضها لم يكتب لحد الآن .

أما هنا فكلامنا مخصص للقبيلة التي كونها الشيخ ماء العينين كأي عظيم في تلك الفترة يعمل على تكوين تجمع بشري ينشر من خلاله دعوته ويبثُّ علومه ويطبق برنامجه ، ويحمي به ذماره ، وأحرى إذا كان على المكانة الرسمية التي أضفاها عليه العرش العلوي المجيد ، فخلال مدة عشرين سنة من استقرار الشيخ ماء العينين في الصحراء بلغ عدد من معه عشرة آلاف نسمة ، مكثوا محيطين به في تلك البلدة ثلاثين سنة ، يدافعون عن مقدسات هذا البلد ، حتى ضيقت عليهم الجيوش المسيحية الخناق ، فرحلوا كلهم إلى تيزنيت حيث استقروا جميعهم في وطنهم المغرب ، وحتى نبقى في التحليل الموثق دون أن نُسَامَ بعاطفة ما في هذه الكتابة ، فإني سأضمن ما قاله عنه محمد الأمين الشنقيطي في كتابه الوسيط ونصه : «الشيخ ماء العينين

هذا لقب اشتهر به ، واسمه محمد المصطفى[1] بن الشيخ محمد فاضل بن مامين ، هو العلامة الوحيد ، له معرفة بعلوم الشرائع من الحديث والتفسير والفقه ، وغير ذلك .

وما جاء بعد الشيخ سيديَّى مثله في إقبال الناس عليه وإنفاقه ، حج في أيام السلطان مولاي عبد الرحمان رحمه اللّه ، وتردد على السلطان سيدي محمد ، وكان حظه في أيام السلطان مولاي الحسن أحسن منه في أيام أبيه ، وهو في أيام مولاي عبد العزيز أحسن منه في أيام أبيه وجده» إلى أن قال : «ورأيت منه ما حيرني ، لأني أقدر مَنْ معه في وادي الصمارة من الساقية الحمراء بعشرة ءالاف شخص ، ما بين أرملة ومزمن وصحيح البنية وكل أصناف الناس ، وكل هاؤلاء في أرغد عيش[2]» .

هذه شهادة باحث لا تهمه سوى الحقيقة وحدها ، وهذا الجمع الغفير رحل من الصمارة ونزل بتيزنيت كما قلت قبل ، ثم حمل راية الذب عن حوزة الوطن بقيادة أبناء الشيخ ماء العينين الذين كونهم تكوينا خاصا ، فقد عكف على أن يخرجهم علماء صالحين مجاهدين مخلصين لهذا الوطن ، ذابين عن حوزته ، متفانين في محبة ملكه ، فقاد الجهاد من بعده ابنه الشيخ أحمد الهيبة ، ثم أخوه الشيخ امربيه ربه لمدة عشرين سنة من بعده ، ثم إن أفراد هذه القبيلة قادوا مع إخوانهم أبناء الصحراء جميع المعارك التي قام بها المجاهدون لصد المستعمر وحفظ استقلال المملكة الشريفة .

---

1) اسمه محمد المصطفى (وتنطق باللهجة المحلية في الحوض بِمُحَمْدْ المُصْطَفْ) .

2) كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، ص 366

ولما تحكمت قوة الاستعمار في جميع التراب المغربي تفرقتْ قبيلةُ أهل الشيخ ماء العينين في جميع أنحاء المغرب ، دفاعا عن الوطن تحت ظل العرش العلوي المجيد .

فمثلا العالم الجليل والمؤلف الكبير الشاعر المبرز البطل الغيور من ضرب الرقم القياسي في الفروسية والرماية ومطالعة الكتب واقتنائها الشيخ اشبيهنا بن الشيخ ماء العينين انتقل إلى وادي درعة وبقي لأكثر من عشر سنوات يدبر الجهاد من هنالك، فألجم الزحف الفرنسي من الجنوب الشرقي على المملكة الشريفة حتى وافاه الأجل سنة 1934 ، وقد استشهد ولداه البطل محمد ماء العينين وأخوه سيدي بويا في تلك الملاحم الجهادية . ولما تحكم الاستعمار في جميع الأجزاء المغربية استقرت مجموعات هذه القبيلة في مختلف جهات المغرب ، إذ منهم من استوطن بني ملال ، وهم أهل الشيخ سيدي علي بن الشيخ محمد فاضل ، ثم أهل الشيخ حسنا بطَاطَة ، بينما استوطن أهل الشيخ الجيه أبي زكارن ومجموعة من مختلف أسر هذا القبيل سكنت في كلميم ، وسكنت مجموعة في إيفني برئاسة العالم الجليل والمؤلف الكبير الشيخ محمد الإمام ، بينما ظلت أكثرية القبيل مع نائب خليفة السلطان الولي الصالح العالم الجليل والداعية الكبير الشيخ محمد الأغظف ، وكذلك استقرت مجموعة أخرى في الداخلة مع المجاهد العظيم العالم الشيخ الولي وأخيه العالم الصالح الشيخ الطالب بوبكر ، في حين انتقلت مجموعة أخرى إلى موريتانيا فسكنتها تحت قيادة الولي العالم الشاعر السياسي العظيم حاتم عصره الشيخ

الطالب أخيار ، كما أقامت مجموعة في طنطان مع الولي العالم الصالح الشيخ عبداتي بن الشيخ ماء العينين ، والكل ظل متشبثا بوحدة وطنه المغرب مخلصا لبيعة الآباء والأجداد وللعرش العلوي المجيد أبقاه الله .

هذا بعد أن ظلت فيالق كثيرة من هذا القبيل وغيره مع العالمين الجليلين الشيخ أحْمد الهيبة والشيخ مُربيه ربُّه بسوس لجهاد النصارَى ومن أبطال الجهاد وما زالَ أبناءُ الجنوب يتذكرون المعارك البطولية التي خاضها العالم الجليل الشيخ مامين بن الشيخ سيداتي بن الشيخ ماء العينين خلال العشرينات من هذا القرن ، وبهذا ندرك مدى العدد الكثير الذي ينتمي لهذه القبيلة التي انتشرت في جميع الأقاليم المغربية ، إلى أن منَّ اللّه برجوع الصحراء على يد أمير المومنين الملك العادل الحكيم العظيم الذي لم تعرف له الإنسانية شبها ، عبقري الزمن أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره اللّه ، عندها رجعت جميع فصائل أهل الشيخ ماء العينين إلى الصحراء كبقية إخوانها أبناء الصحراء الذين عادوا إلى ديارهم بعد خروج الاستعمار منها ، وهم اليوم مستقرون بها يبنون مستقبل وطنهم صحبة إخوانهم جميع أبناء الصحراء المغربية .

وبفضل الاستقرار والأمن والسياسة الرشيدة لصاحب الجلالة الحسن الثاني أمد اللّه في عمره يلاحظ أنه ليس في قبيل الشيخ ماء العينين اليوم أمي ، وقليل منهم شاب إلا ويحمل إجازة ، وليست فيهم أسرة إلا وفيها مجاز أو مجازان ، وهم يعملون داخل الطاقات المغربية الحية ، تحت القيادة الرشيدة لأمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله ، وهم كغيرهم من أبناء الصحراء يجسدون شهادة حية على استمرار الوحدة المغربية منْ طنجةَ إلى الكويرة .

الفرع الثالث : أبناء تيدرارين

هذه قبيلة ترفع نسبها إلى الأنصار ، وهي تسكن في منطقة «ايمريكلي» بادية مدينة أبي الجنور التي يكونون الآن جل سكانها ، وهم من أقدم السكان في المنطقة ، بحيث تواصلت إقامتهم من عهد الدولة السعدية ، إذ مَدْفَنُ صلحائهم وأوليائهم بالمكان المعروف «بالزريبة» قربَ مركز «المْسِيدْ» على بعد حوالي ثمانين كلم شمال أبي الجدور ، تواصلت المعلومات عنه من ذلك التاريخ حتى الآن مع حكايات شفوية ترجع تاريخهم بنفس المنطقة إلى عهد الموحدين كغيرهم من بني حسان .

أما الشيءُ الذي عليْه الإجماعُ أنَّ أبناءَ تيدرارين وُجِدوا بالمنطقة في الفترة الأولى التي استقر فيها المعاقلة ، وأنهم إذا لم يتيسر لنا الحصول على شجرة نسبهم إلى أحد جذوع أولئك العرب فإنهم من الأصلِ العربي الذي لا جدال فيه ، وأن نسبتهم إلى الأنصار هي ثابتة بتواتر الروايات الشفوية ، وذلك يؤكد ما أشرت إليه في المبحث الخاص بالمعاقلة عند ما قلت : إن كثيرا من بني عمومتهم في الجزيرة العربية سافر معهم أو التحق بهم واندمج فيهم ، فاختفى أصله العربي فيهم .

أما عن قبيلة الأنصار أبناء تيدرارين فمن المؤرخين من ألحقهم بتكنة مثل علي الشامي عند ما قال : «التكنة : في بداية القرن السادس عشر تقريبا وفي منطقة تدعى

«تاراجيجة[1]» الواقعة قربَ أكدير تشكلُ تحالفاً يضمُّ حوالي 12 قبيلة من القبائل المحاربة لمواجهة تحالف ءاخر يضم قبائل السماليل ، الحلف العسكري المناوئ للسماليل أطلق عليه اسم تكنة ، ويضم كلا من الزرقيين وأولاد تيدرارين ، والعروسيين، وءاية الحسن ، وءاية موسى وعلي ، وءاية الخمس ، والزوافيط ، وءاية يوسة ، وءاية حْماد، وأولاد بوعشرة، وءاية مَسعود[2]...» .

رغم ما تحمله هذه الفقرة من أخطاء في النطق في الأسماء وعدم ترتيب الأسماء على ضابط معين ، فإنها تفيدنا بشَيْأيْن اثنَين : الأول هوَ كونُ أبناءِ تيدرارين والشرفاء العروسيين انتميا لحلف تكنة أيام تكوينه ، والثاني هو تاريخ تكوين هذا الحلف ، إذ قال إنه في بداية القرن السادس عشر المسيحي .

أما عن انتماء أبناء تيدرارين له فهو شيء تمليه عدة مبررات ، منها أن الاستقرار في تلك الفترة لا يمكن إلا لمن ينتمي إلى مجموعة تحميه من تسلط الآخرين ، مع أن نمط حياة أبناء تيدرارين وغيرهم من قبائل تكنة المقيمة في المنطقة متحد في كل شيء ، وأيضا الاندماج البشري الحاصل بالمصاهرة والمجاورة ، كلها شواهد تثبت الانضمام إلى هذا الحلف الذي أثبتنا في المبحث الثاني من هذا الفصل أنه لا ينتمي لأصل واحد ، بل إنه تجمع ارتضى العيش تحت عادات

---

1) لعلها هي المعروفة اليوم «بتغاجيجت»

2) علي الشامي ، ص 75 ، الصحراء عقدة التجزئة

معينة وأعراف تخصه ، تضمنها رعاية أبناء تلك القبائل الذين شكلوا حلفهم لهذا الغرض .

وخلال القرون الماضية شبت حروب بين أبناء تيدرارين وبعض القبائل المجاورة لهم ، فكانوا يجدون المؤازرة من طرف بعض القبائل التكنية ، وبما أننا تحاشينا ذكر تلك المواجهات ، فلن نتوسع في موضوعها هنا ، إلا أن أبناء تيدرارين كانوا يجدون خلالها من إخوانهم التكنيين مناصرة الحليف المخلص، حتى إن الحلف كان يتواجه فيما بينه بسببهم ، كما نشأ في كثير من الحالات بسبب قبائل حلف تكنة الأخرى .

ويرى مؤرخون ءاخرون أنهم من قبائل الزوايا حسب المصطلح المحلي ، ومنهم من يرى أن ينسبهم نسبة أخرى ، غير أن سلوكهم وعاداتهم ونمط حياتهم جدير بأن ينسبهم إلى أنصار النبي صلى الله عليهم وسلم ، فحبهم لآل البيت وكدهم لتحصيل المال الحلال وإنفاقه في أوجه البر، وتمسكهم بحفظ القرآن ، وحسن عبادتهم وما اشتهر فيهم من الأولياء الصالحين ، وهم الذين ءامنوا وكانوا يتقون ، جدير بأن يمكن من الحكم بأنهم من عقب الأنصار ، فبيوتهم عامرة بتلاوة كتاب الله ، ومَحاضرُهم (مراكز التعليم) لا تنقطعُ عن تدريسه ، لا يظلمون ولا يتسلطون ، وقد نزل بهم كثير من ظلم غيرهم ، مما يدخلهم في الوعد المنسوب إلى الحديث والقائل «اصبروا حتى تردوا علي الحوض[1]» .

1) كلام تواترت نسبته للحديث ولم أعثر عليه فيما وصلته مطالعتي المتواضعة لكتب الحديث الشريف .

أما عن هجرتهم إلى المغرب فإذا لم تكن تمت على الطريقة التي أشرت إليها ، أي أنهم اندمجوا في المعاقلة ثم قدموا معهم ، فيمكن أن يكون ذلك تم حسبما ذهب إليه المختار بن حامد عندما تكلم عن أصل المجتمع الشنقيطي ، فقال إن من بين القبائل من تكونت من نسل أفراد قدموا من أجل الجهاد زمن المرابطين وقبلهم ، ومن هذه الطبقة من ينتسب إلى الأنصار[1] ، فإذا صح هذا فتكون نسبة أبناء تيدرارين لا جدال فيها للأنصار ، ويؤيده أن أبناء تيدرارين ما انصهروا انصهار ذوبان في إحدى المجموعات القوية من صنهاجة أو معقل بكل فروعها .

إن نسبتهم لحلف تكنة تدخل في البحث عن الأمن داخل مجتمعات تكثر بينها الحروب المحلية ، ولكن بقيت مميزاتهم العامة تلحقهم بالزوايا مهما كانت النكبات القهرية التي تعرضوا لها ، إذ يكثر فيهم التحكم في النفس عندما يتعرضون لاستفزاز الظلمة إذا ما قيسوا بغيرهم ممن يعيش في البيئة التي عاشوا فيها ، فبحثهم عن الحلال وهروبهم من الحرام وانزواؤهم على أنفسهم ، كلها دلائل تؤكد نسبتهم للأنصار وامتهانهم لحرف الزوايا .

أما عن وطنيتهم فهي راسخة وقوية ، فطيلة تحكم الاستعمار في الصحراء المغربية بقي أبناء تيدرارين هم أبعد القبائل منه ، فلم يلتمسوا نفعا ماديا منه ، ولم يمتهنوا العمل

---

1) **الحياة الثقافية لموريتانيا** ، ص 28 ، دون التقيد بعباراته .

معه ، باستثناء أفراد قلائل ، بل لما تحكم انزووا في الأرض التي يسكنون فيها واشتغلوا بالفلاحة وتنمية الكسب ، من أتاهم أحسنوا إليه ، ومن لم يسأل عنهم لا يهمهم ، حتى إذا ما خاض المغرب معركة التحرير خلف قائد التحرير ملك القلوب جلالة المغفور له محمد الخامس كان أبناء تيدرارين من الأوائل الذين أسرعوا جميعهم للدخول في الخلايا الوطنية ومدها بأموالهم والعمل فيها بأنفسهم ، وعندما انعقد مؤتمر أم اسكاگ الذي ذكرته في مكان ءاخر من هذا الكتاب ، كان أبناء تيدرارين من أكثر القبائل التي شاركت فيه ، وذهب في الوفد المنبَثقِ عنه اثنا عَشَر رجلا من أعيانهم من بَينهم قائدُهم المرحوم محمد بن عبد اللّه ، إذ شكلوا أكثر أفراد قبيلة في ذلك المؤتمر ، وظلوا متشبثين بوطنيتهم إلى اليوم ، فهم من أخلص رعايا صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أيده اللّه ونصره .

وهم اليوم والحمد للّه بفضل توجيهات جلالته ، أصبحت فيهم نخبة من المثقفين حاملي الشهادات ، علما أنهم لم تمض مدة إلا وفيهم حفاظ وعلماء ، ومن بينهم كثير من (المغنين) ممن أصبح يطلق عليهم الشعراء باللهجة الحسانية .

أما عن مميزاتهم العامة فهم أهل كسب وفلاحة ، وأكثر تعليمهم ينصب على حفظ كتاب اللّه ؛ يمتازون بالهدوء والتكتم وحسن التعبير ، وفيهم الحكماء الصالحون ، وكلهم وطنيون معتزون بمغربيتهم ، متمسكون ببيعتهم التي يعرفون قول اللّه فيها «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسنوتيه أجرا عظيما» .

الفرع الرابع : الشرفاء فلالة

هذه قبيلة يرفع نسبها إلى الدوحة النبوية الكريمة ، إذ انتقل أجدادهم إلى الصحراء من عهد مولاي إسماعيل حيث تمركزوا أولا في منطقة وادي نون ممارسين مهنة التوجيه الديني والإصلاح بين الناس والتمسك بالمذهب المالكي والطريقة القادرية والعقيدة الأشعرية ، فمنحهم الجميع ثقته وأسلمهم قيادة توجيهه ، فطبق مختلف السكان فتواهم ، وعمل بإرشاداتهم ، وأنزلهم منزلة التكريم واعتقاد الخير في جميعهم.

ثم تسلسل فيهم العلم ، وبالخصوص في أسرة ءال سيدي أبو بكر الذين توارثوا تحصيل العلوم وإصدار الأحكام وتسوية النزاعات التي تنشب بين القبائل ، فصاحبهم الذكر الحسن والسمعة الطيبة .

لقد تأسست بفضل أقطاب الشرفاء العلويين ءال سيدي أبو بكر زوايا في مُختلِفِ أقاليم الجَنوب ، منها زاويةُ «الكطوع» التي ما زالتْ مَنارةً من مَنارات الهداية والتوجيه الديني النقي الصافي ، تلقن كتاب اللّه ، وتوجه أتباعها لخدمة الصالح العام، تستل جرثومة الخلافات والتطرف والانحراف ، المشرفون عليها لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، منحهم اللّه بمحض كرمه نور النبوة ، وهيبة التقوى ، وتجليات ءاثار العبادة . ولقد كرس شيوخ زاوية ءال سيدي أبو بكر جهودهم عبر التاريخ لخدمة وحدة الوطن وضمان عقيدة وسلوك أبنائه من شوائب التطرف أو المغالاة .

ولقد تخصص علماء فلالة في علوم القرءان والفقه والنحو، كَمَا عَمَّ في أكثر علمائهم حفظ مختصر خليل والتعامل مع شراحه ، فظلت مدرستهم تحسن استخدام الفروع المالكية لحل المشاكل الاجتماعية التي تتوارد عليها ، وقد كتبوا على مختصر خليل عدة طرر ، من بينها طرة أبو حمرة المشهورة في المنطقة، وهي من المخطوطات المهمة التي ينبغي أن تعمل جهة ما على طبعها ، وفيهم النظامون الذين لخصوا جل معارفهم في أنظام يسهل حفظها وحملها واستخراج الفتوى منها ، مثل العالم الجليل والداعية الكبير محمد يحظيه بن عبد الباقي ، ومن بينهم العلماء المشاركون مثل سيدي أبو بكر وأبناؤه .

وخلاصة القول إن فلالة قبيلة محترمة تيمزت بحسن السيرة ودماثة الأخلاق وعدم الدخول في أية خلافات قبلية ، وبذلك حظوا بثقة الجميع ، وكسبوا الاحترام المطلق ، بيوتهم عامرة بالذكر ، يعم الصلاح والاستقامة رجالهم ونساءهم ، شغلهم فيما يعنيهم ، لا تستفزهم الحوادث ، ولا تنتهك حرمتهم، ومن رامهم بسوء انتقم اللّه لهم منه عاجلا ، بيوتهم ظلت مدارس متنقلة لتعليم القرءان والصلح بين الناس ، يلتمس الجميع دعاءهم الصالح ، ويعتقد في أن اللّه الفاعل في أمره ما يشاء الواحد بلا شريك حباهم من فضله وكرمه استجابة الدعوات في كثير من الأمور منها الرقيا ، إذ خصهم بتحقيق المأمول في كثير منها ، وملخص أمرهم أنهم ينطبق عليهم قول اللّه عز وجل «أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّه لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ، الذين ءامَنُوا وكانوا يَتَّقُون ، لَهُمْ البُشْرَى فِي الْحيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الأَخِرَة» الآية .

ويظهرُ ذلك جلياً في الوافدين على زاويتِهم بالگطوعة جنوب غرب كلميم ، وكذلك في أختها زاويتهم بالحگونية التي يفسرها السكان حسب اللهجة المحلية أنها تترجم كلمة «الحق والنية» ، فهي في صحرائنا المسترجعة ظلت تحديا للاستعمار ، وقاعدة إسلامية تقف في وجه الإنحراف والعصيان ، لعلمائها كلمة الفتوى والمكانة العليا ، انتزعوا اعتراف الكل لهم بالفضل بسبب ممارستهم لكل الطاعات وابتعادهم عن جميع المخالفات ، هم كعبة الزوار ، مأوى عابري السبيل وسند الفقير والضعيف ، فلا شبيه لهم في الابتعاد عن جميع المشاكل السياسية والاجتماعية في كل الأسر والقبائل المحيطة بهم ، وبذلك فلا غرابة إذا أصبحوا محل ثقة مختلف السكان .

الفرع الخامس : الشرفاء تبالت

هذه قبيلة تنتسب إلى الشرف ، إذ يرتفع نسبهم إلى الولي الصالح سيدي وسيدي دفين مدينة تارودانت ، ويتواتر روايات نسابيهم فإنه يرقى نسبه إلى مولاي إدريس رضي اللّه عنه ، وهمْ يَنتشرون في الصحراء ابتداءاً من ءاية باعمران جنوباً حتى العيون ، وتوجد جذوع منهم في الصويرة .

تمتازُ قبيلةُ تبالت بمُسالمة أبنائها وعدَم إثارةِ أيٍّ مشكلةٍ مع الجميع ، واندمجت طباعهم وعاداتهم مع طباع وأخلاق القبيلة المجاهدة المناضلة العظيمة ، قبيلةِ الزرقيين من تكنة ءاية الجمل ، فلقد انصهرت فيهم قبيلة تبالت ، مع احتفاظها بنسبها الشريف والتمسك بتعريفها السلالي ، ولذلك فذكر ما يربطهم

بإخوانهم الزرقيين من روابط اجتماعية لا يعني أنهم نسوا نسبهم أو ابتعدوا عن أصلهم ، أو أنهم اندثر دورهم بصفتهم من أعرق قبائل الصحراء وأكثرها اهتماما بحفظ القرءان الكريم ، حيث كانت قبائل متعددة تتعاقد مع حفاظهم لتعليم أبنائها كتاب اللّه ، ومن أبرز الأدلة على ذلك أن أسرة منهم توجد الآن في مدينة أبي تلميت في الجنوب الموريتاني ، انتقل أحد أجدادهم إليها بطلب من العالم الجليل الداعية المنفق في سبيل اللّه ، من لم يشهد الناس مثله قبله في تلك البلاد ، الشيخ الجليل الشيخ سيديا رحمه اللّه ، ففي مدرسته كان أحد أبناء الليلي يدرِّسُ القرءانَ الكريم بمُختلفِ القراءات ، وما زالت اليومَ تلك ميزتهم ، وبسبب ذلك استوطن جذع من ءال الليلى بأبي تلميت[1] .

ثم إن قبيلة تبالت نبغت فيها أسرة الليلي في شتى العلوم، فتصدرَ جميعُ أبنائها للتدريس في المحاضر المنتشرةِ في جَميع أنحاء المنطقة الممتدة بين وادي درعة والساقية الحمراء ، كما عرف التباليون بإخلاصهم للعرش العلوي المجيد وتفانيهم في الذبِّ عن حوزة الوطن .

إن جميع المصادر تضمهم إلى المميزات العامة لتكنة ، وبذلك فكل نعوت الكرم والشجاعة وحفظ العهد التي سبق ذكرها في تكنة ، القبائل العربية المجاهدة ، اشتركوا معهم

---

1) مدينة أسسها الشيخ العظيم والداعية الشهير من لم يشهد جنوب موريتانيا شبيها له الشيخ سيديا رضي الله عنه .

فيها ، لأن تكنةَ وكما أسلفْنا ليستْ نَسَباً ، وإنما هيَ حِلْف .
أما أصلها فنحن نرجح أنهم من القبائل العربية المعقلية ، وبذا فإن ذكرنا لتبالت هنا غايتنا منه تبيين أنهم شرفاء بحسب تواتر الروايات ، ولنوضح أنهم ظلوا متميزين رغم انصهارهم اجْتماعياً في حِلْفِ ءاية الجمل من تكنة ، فهمْ منهمْ في السلوكيات الاجتماعية الطيبة ، ومن أصلهم الشريف في انكباب كثير من أسرهم على العلم وعدم خضوعهم وحبهم لأهل الله واحترام كل الذين تعرفوا عليهم لهم .

ولم تنقطع الصلة بين الذين استوطنوا منهم الصحراء ، وهم الأكثرية ، مع إخوانهم في الصويرة وفي حوز مراكش وهم الآن قبيلة كثيرة العدد متعددة الجذوع ، ويكثر فيهم الحفاظ بمختلف القراءات ، كرماء في بيوتهم ، طيبون في مخالطاتهم ، وفيهم الآن مكتبات شخصية ، منها مكتبة سيدي يعقوب بطرفاية التي حافظ عليها أحد علمائهم ووسعها وحفظها هو المرحوم سيدي حمود ، وإلى القريب وهي تضم كنوزا ثمينة من المخطوطات .

الفرع السادس : قبيلة أبناء أبي السباع

من القبائل العظيمة محتدا واحتراما أبناء أبي السباع، فقد استقروا في الصحراء منذ القديم ، إذ توجد وثائق تتحدث عن وجودهم في الصحراء لأكثر من ستة قرون ، فلقد جابوا فيافيها ، وتعرفوا على مجاهلها ، وعمروها بتجارتهم وسفاراتهم إلى عهد غير بعيد ، فهم أهل علم وشجاعة ، وقوة شوكتهم

وصلابة شكيمتهم وفرت لهم مكانة يهابها الأعداء ، ويعتز بها الأصدقاء .

ومن المتواتر المتفق عليه صحة انتساب أبناء أبي السباع إلى الشرف ، فهم منحدرون من نسل مولاي إدريس كغيرهم من أكثرية الشرفاء القاطنين في الصحراء المغربية .

لقد كتب الكثير عن هذه القبيلة من منصفين ينشدون الحقيقة فنشروا شمائلها وأشادوا بقوة شكيمتها وشجاعة مقاتليها ، ومنهم الأعداء الحانقون الذين أعمى بصائرهم ما ران عليها من عقد الجهل والحسد أو الطمع في برِّ أعدائهم ، لكن كل ذلك لم ينقص من مكانتهم ولم ينل من حقائق شرف نسبهم وعلو محتدهم ، ونحن هنا لا يهمنا ما نشر عنهم الأعداء ، لأنهم أتاحوا للمنصفين والمحبين ، ونحن منهم ، تتبع ءاثارهم الحميدة ، وبسط ما أمكن من تاريخهم الذي تميز بالعزة والإباء والشمم .

وحتى أن أولئك الذين حاولوا الكلام في نسبهم لم يردوه بردود تنفيه ، وإنما نسبوهم للعرب ، وكل الشرفاء عرب ، وهذا ما وقع فيه عبد الحفيظ الفاسي في الثلاثينيات من هذا القرن ، والذي رد عليه العلامة المجاهد الأستاذ القدوة السيد عبد اللّه ابن عبد المعطي الحسني الإدريسي في كتابه : «الدفاع وقطع النزاع ، عن نسب الشرفاء أبناء أبي السباع» .

والحقيقة أن من قرأ ما كتب عنهم لا يتوصل حتما إلى أنهم غير شرفاء ، فقد وصفهم بالعظمة والشهرة وشدة الشكيمة وكثرة الثورات ، وهي سجية عربية ، عازيا ذلك للحافظ أبي زيد الفاسي في كتابه الأقنوم ، هذا الكلام نستنتج منه عدة نتائج ، فهو يؤكد عظمة أبناء أبي السباع وقوتهم وحمايتهم للذمار ، إذ اعترف بذلك وهو بصدد الطعن في نسبهم ، ثم إنه نسبهم للعرب دون أن يرفع نسبهم إلى جذع معين من البطون العربية التي دخلت المغرب وهي محصورة ، ثم إنه قال إنهم ليسوا علويين ، وهذا صحيح وإن كان لم يقصده ، فهم أدارسة حسب تقسيم الشرفاء في بلادنا إلى أدارسة وعلويين ، لكن هذا المؤلف أسدى للمهتمين بقبائل الصحراء مكسبا هاما بحمله للعلامة سيدي عبد اللّه على الكتابة عنهم وتخليد مفاخرهم، ومن درره نقتطف بعض الباقات النيرة لنستعين بها على إبراز مكانة أولئك الشرفاء في الصحراء المغربية عبر القرون الستة الماضية.

لقد استدل عبد اللّه بن عبد المعطي على شرفهم بشواهد علمية ، منها مدارسهم المنتشرة في جميع أنحاء الوطن ، وأغلبها تطوع مشايخه لتعليم الغرباء المحتاجين ، مع تحمل أعباء حياتهم طيلة تلقيهم الدراسة عليه ، فاجتهدوا في تحصيل العلوم وانتقاء الكتب وتحفيظ كتاب اللّه لكل طلبتهم ، من تصدر منهم لهذه المهمة قضى عمره كله فيها ، ثم يخلفه أبناؤه من بعده لحمل رسالته ، فقد اجتمع لهم الشرف الديني والطيني، فكلما رأيت سباعيا أمكنك الاستشهاد بالبيت القائل :

«تَوَسَّمْتُهُ لما رأيت مهابة   وأيقنت أن المرء من ءال هاشم»

والحقيقة أن انتساب أبناء أبي السباع للسلالة النبوية الشريفة يعضده ما عليهم من سمات مظاهر الشرف ، فهم أباة الضيم ، كرام النفوس ، شجعان يوم الوغى ، حسان الطلعة ، أشداء على الأعداء ، رحماء للأصدقاء ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ دليل على الشرف إلا هذه الصفات المنتشرة فيهم لكفتهم ، مع أن سلسلة شرفهم حظيت بدعم من لا يطعن في شهادته ولا يشك في صدق حكمه وعدل مواقفه ، عالم الصحراء وأستاذها شيخ المشايخ العالم الجليل المرحوم محمد بن محمد سالم ، فقد أورد تلك السلسلة الشريفة ، حسب ما كتبه عنه العالم عبد الله ابن عبد المعطي في كتاب الدفاع المتقدم فقال عن محمد بن محمد سالم في نسب الشرفاء أبناء أبي السباع ما نصه : «فجدُّهُم اسمُه المولى عامر بنُ حريز بن محرز بن عبد الله بن إبراهيم بن إدريس بن محمد بن يوسف بن زيد بن عبد النعيم ابن عبد الواسع بن عبد القائم بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمان بن سالم بن عزوز بن عبد الكريم بن خالد بن سعيد ابن عبد الله بن زيد بن رحمون بن زكرياء بن عامر بن عبد الحميد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي كرم الله وجهه ، وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم[1]» .

---

1) كتاب «**الدفاع ، وقطع النزاع ، عن نَسَب الشرفاء أبناء أبي السباع**» ص 20.

هذا الشرف تتابع عليه المؤرخون والمحدثون والمهتمون بالأنساب ، فبالإضافة إلى الشيخ محمد بن محمد سالم ، أثبت هذا النسب ابن خلدون وأبو زيد السيوطي والعشماوي ، وكذلك وثقه الولي الصالح والعالم المتبحر ذو الكرامات الباهرات والتجليات الربانيات القاهراتِ الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين ، والعالم الجليل والمربي الكبير الشيخ سيديا .

إذن فشرف أبناء أبي السباعِ لا جدال فيه ، وأثبته العلامة المختارُ بنُ حامد ، وبعد أن أثبتَ شرفَهم تكلمَ عن تَركيبتِهم البشرية فحصر جذوعهم الكبيرة فيما يلي :

- أولاد النمور ، وأولاد عمران
- أولاد عُمَر
- أولاد إبراهيم
- أولاد البكار
- العوامر
- أولاد الغازي
- أولاد إبراهيم
- العبيدات
- الدميسات
- أولاد الحاج
- أولاد مَحمد

هذه التقسيمات التي ذهب إليها النسابون والمؤرخون ولا يَنَالُ من أن السباعيين كغيرهم من السلالات الشريفة إذا دخل

فيهم من غيرهم من لا يرقى نسبه إلى الدوحة الشريفة ، عَدُّوه منهم ونالَ احترامهم وكسب حمايتهم ونال حظوتهم ، ومع ذلك بقيت أصولهم محفوظة ، ومن ثم فلا يمكن أن يعمم عدم انتماء بعضهم للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم من الأتباع الذين دخلوا فيهم على بطونهم الأصلية التي حباها الله بالنسب الشريف .

أما عن رسم صورة دقيقة عن الشرفاء السباعيين باختصار ، فسنوجزها فيما يلي :

ظل السباعيون يواجهون أحوالا متقلبة ، بعضها نابع من ذواتهم أنفسهم ، وبعضها تستجلبه مؤثرات خارجية إما من الجيران ، أو من علاقاتهم بالمخزن ، أو بسبب جهادهم لصالح الوطن ، ومن جراء مواجهاتهم مع المشاكسات الإقليمية التي انتشرت قبل دخول الاستعمار للبلاد التي رجحت قَبْلُ أنها كانت محركة من طرف المخابرات الأوربية التي تتوق ءانذاك لاستعمار المغرب ، ويمكن تلخيص تلك الحالات فيما يلي :

فالمؤثرات الآتية من أنفسهم غالبا ما تكون ناشئة من تشاكس الرأي حول من فيه تعيين مصلحة القبيلة مثل تعيين القائد عند موت سلفه أو عجزه ، أو خلعه من طرف السكان ، فهذه الحالة تسببت للسباعيين في كثير من التناقضات استمر العرش العلوي المجيد في استلال فتيل ما يمكن أن ينجم عنها من توترات ، فمثلا الفقيه محمد بن إبراهيم السباعي خَفَّ إلى السلطان المقدس مولاي إسماعيل بدمنات متشفعا عنده لإطلاق

سراح من كان في السجن من أبناء أبي السباع بسبب خلافهم على قائد منهم كان عليهم فهجموا عليه فعاقبهم المخزن .

ومن هذه الحالات ما وقع « في بداية عهد السلطان مولاي عبد العزيز رضي الله عنه ، إذ مرَّ جدنا الشيخ ماء العينين على قبيلة أبناء أبي السباع ، فاستشفع به السباعيون لإطلاق سراح الفقيه محمد بن إبراهيم السباعي الذي كان اعتقله ابًّا احماد بإيعاز من بعض الوشاة[1]» .

أما المؤثرات الخارجية فهي تتجسد في المواجهات مع بعض القبائل الأخرى ، أو في التصدي للتسللات الأجنبية ، وفي كل تلك الحالات فقد حصر السباعيون انتماءهم للمرحوم المولى عامر المكنى بأبي السباع الذي حال بينهم وبين التشتت رغم صعوبة بعض الفترات التي مروا بها ، وأيضا ساعدتهم حركيتهم داخل قطر متسع من الوطن على التنقل من المكان الذي قست عليهم فيه الظروف إلى مكان أكثر منه استيعابا لتطلعاتهم ، ولعلَّ هذه الظاهرةَ هيَ التي جعلتْهم ينتشرونَ منْ حَوْزِ مراكش حتى نهر السينغال جنوبا ، إلا أنهم في فترة سابقة خلال القرون الماضية استوطنوا الصحراء ، فحفروا كثيرا من ءابارها ، وَألِفُوا طبيعة حياتها ، وعمروها بتجارتهم ، وجلبوا

---

1) بحث لنيل ديبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر من إنجاز كسفناني مولاي حسن ، ج 2 ، ص 273 ، قدم لكلية الآداب في الرباط ، نقل معلوماته عن كلام المختار السوسي في المعسول 4 : 84 و85 و36 و23

إليها السلاح على قوافلهم ، فشكلوا في القرن الماضي وبداية هذا القرن أهم مورد للسلاح وبَيْعِه للمجاهدين ، وهم من ضمنهم ، فساهموا في قمع المد الاستعماري مدة طويلة .

تميز السباعيون بتعدد الأنشطة ، ففيهم نخبة من العلماء الأفذاذ اشتهرت مدارسهم ، منها مدرسة أربعاء سيدي المختار، والمدرسة الْمَرْزُودِيَّةِ السُّبَاعِيَّةِ ومؤسسها محمد الهلالي الأرغي في أوائل القرن الثالث عشر ، ثم مدرسة السعيدات أسسها الفقيه محمد بن علي سنة 1844م ، ومدرسة بوغنفير قبل سنة 1277 هـ ، وغيرها من المدارس والمحاضر التي ظلتْ تشكل إشعاعا علميا يضم إلى أنشطة السباعيين المتنوعة والمنتشرة في جميع أنحاء الوطن المغربي ، عطاء علميا كبيرا .

هذه النماذج تبين أن قبيلة أبناء أبي السباع يرجع مركزها العام إلى حوز مراكش ، فهو منطلق كل فروعها ، ومنه انتقلت إلى الصحراء ، وهو الذي يهم بالأساس هذه الدراسة ، فقد عثر على نسخ لأحكام تحل نزاعا حول الأرض بين أبناء أبي السباع مع بعض سكان منطقة «إيمْريكْلي» المنطقة التي تقع فيها مدينة «بوجدور» الحالية . هذا مع تواتر الحكايات على تواجد أبناء أبي السباع في مركز الدَّوْرَةِ الأرضية الواقعة بين العيون وطرفاية ، وهي محل تمركز القبيلة المجاهدة الوطنية الزرقيين من ءاية الجمل المتقدم ذكرُهم ، وكذلك يحفظُ التاريخُ الشفوي ذكر عدة تحركات للسباعيين في مختلف أنحاء الصحراء ، مما يدل على أن سكان موريتانيا الحاليين من

الشرفاء أبناء أبي السباع هم فروع انحدرت من السباعيين الذين استوطنوا الصحراء من قديم ، وإن كان من يقطن في الصحراء منهم اليوم يمثل تجمعا أصبح يشكل أصلا ومركزا لكل السباعيين في الشمال والجنوب .

إن شمائل السباعيين أكثر من أن تحصى في فقرات كهاته ، فإذا ذكر العلم فهم حفاظه وأساتذته ، وإذا ذكر الجهاد فهم أبطاله ، وإذا ذكر الشعر فهم رواته ومنشؤوه ، وإذا ذكر الاقتصاد فهم مديروه وتجاره ، ففيهم كرم النفوس وبذل الأموال ، وإباءُ الضيْم ، والتمسكُ بكل قيم الإسلام ، جعلَ اللَّهُ ذلك مُستمراً فيهم إلى أنْ يرثَ الأرضَ ومَنْ عليْها .

الفرع السابع : قبائل يضمها مصطلح واحد ولا تنتمي لسلالة ولا لحلف

هذه قبائل جمعتها هنا لازدواج استقرارها في الصحراء وفي الأراضي الكائنة جنوبها شمال القطر الموريتاني المحترم ، الذي شكل موطن العلماء والأولياء والصلحاء والشعراء والمؤلفين الذين حملوا مع إخوانهم المغاربة من عهد المرابطين راية الإشعاع الإسلامي في أفريقيا ، كما أغنيا المكتبة الإسلامية بعطياتهم العلمية ودواوينهم الشعرية ، فظلت الحركة العلمية متصلة بين فاس وتشيت وولاتة وشنقيط ووِدان وأبي تلميت ، دائبة لا تفصل بينها حدود ، ولا يضعف اتصالها عدو ، فاندمجت الجهود العلمية بعضها ببعض ، فتحدوا أعداء الإسلام في كل مكان ، واقتلعوا جذور الوثنية من جل سكان غرب أفريقيا فبفضلهم انتشر الإسلام في كثير من سكان

القارة السوداء ، وبقوتهم ووحدتهم استطاعت دولة المرابطين أن تمد خمسة قرون في عمر الإسلام بالأندلس ، وأن تَنشُرَ الوية الإسلام خفاقة في كثير من الأقطار الأفريقية ، وإن الإسلام اليوم يناشدهم ليضافروا جهودهم ويعيدوا تنسيقهم عبر احترام متبادل حتى تستأنف حملاتهم الموحدة لنشر الدعوة الإسلامية .

لذا فإن التعاون العلمي بين البلدين خط على صفحات التاريخ جهودا لن ينسفها أعداء الإسلام الذين لا يقض مضجعهم سوى أي تقارب بين دولتين إسلاميتين ، وسيظل المغرب وموريتانيا دولتين متجاورتين تتعاونان على إعلاء كلمة الإسلام في جو من الثقة المتبادلة والاحترام الكامل والأخوة الصادقة ، حتى يحققا أخوة الإسلام وتعاونه ووحدة كلمته في هذا الجناح الغربي للإسلام بإذن الله .

وهذه المجموعة التي أردنا الكلام عليها بإيجاز تتكون من قبائل يطلق عليها اسم «الزوايا» حسب المصطلح المهني الذي سبقت إليه الإشارة ، على أن مجموعة الزوايا أطلق عليها هذا الاسم لامتهانها تحصيل العلم والتزامها بسلوكيات معينة ، انظر ما قاله فيهم عمنا الولي الصالح والسياسي المحنك والعالم المتبحر والشاعر المجيد و المؤرخ الكبير الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين في الفصل الأول من هذا الكتاب :

هذه الملامح العامة هي التي تميز بها مختلف الزوايا عبر التاريخ ، وهذا لا يمنع من كونهم تعرضوا في كثير من الأوقات لهزات ألزمتهم حمل السلاح لقمع من سولت له نفسه النيل من

كرامتهم ، أو تهديد أي تحكم استهدف توجيههم الإسلامي الذي هو شعارهم وواجبهم ، ولذلك أصبح لهم باع طويل في حمل السلاح للذب عن الحمى ولصد الكفر عن بلاد الإسلام ، كما اضطروا في فترات كثيرة إلى جعل حد لظلم المتسلطين ممن استحلوا أموال الناس وأنفسهم لا لشيء إلا لأن أولئك المعتدينَ تَوَفَّرَتْ لديهم وسائلُ الغَلَبَة .

ولذا فالتعريف بشيم طرف من هذه المجموعة هو تعريف بها جميعا ، ففيهم انتفت النعرة القبلية المميتة لطبيعة وظيفة الزاويةِ أو «المحضرة» التي تَفْرضُ عليْهم عدمَ التميُّز السُّلالي أو الجهويِ أو الطبقي بين طلبة العلم ، تطبيقا لمفهوم الاسم الذي أطلق عليهم «الزوايا» ، فهم هوءات من الزاوية التي لا تعرف الحدود ولا التقيد بسلالة خاصة ، فكل من تمسك بسلوكها وشام برق علومها تفيأ بظلالها . ومن خلال هذا المنظور الذي أنشأته تراكمات من الإنجازات العلمية والسلوكيات الإسلامية الملتزمة والسيرة التي تتابعت عبر القرون أصبحنا نرى بفضلها مبادئ من الأخلاق والتعليم والاستقامة ، وجمع قيم حضارية تجسد أخلاق الدولة الإسلامية الفاضلة ، وألزمنا بتسمية كل من امتهنها بالزاوي نسبة إلى الزوايا .

أما القبائل التي تسمت بهذا الاسم فمنها الصنهاجي الحميري ، ومنها الكنعاني ، ومنها المعقلي الحساني الجعفري، بل كل مكونات أصول المجتمع التي ذكرنا قبل انحدرت منها قبائل من الزوايا التي استوطن أغلبها بلاد موريتانيا ، بينما

قبائل منها كثر استقرارها في إقليم وادي الذهب من الصحراء المغربية ، حيث تواتر عطاؤهم الفكري في شتى العلوم الشرعية، الشيء الذى أعطى للإسلام أضخم المكاسب في هذا الجناح من الأمة ، وستبقى قبائل الزوايا أكثر الناس استمرارا في ترسيخ هذا التعاون ، لأنهم من بين من وضعوا اللبنات الأولى لتأسيسه واستمرار رعايته .

إن هذه المبادئ تحملني من باب الإنصاف على أن أكتب عن مجموع تلك القبائل ، لكن لطبيعة الخصوصيَّة الجهوية التي يتسم بها هذا الكتاب لم أستطع أن أتعرض إلا للقبائل التي استوطنتْ أقاليمَنا الجنوبية وما زالتْ أَعْدَادٌ منها تقطنُ بهذه الأقاليم المغربية الجنوبية ، وبذلك فسنتعرض بإيجاز للقبائل المحترمة الآتية :

أ ـ اديقب

ب ـ أهل بارك اللّه

ج ـ أهل محمد سالم

على أن ما نكتبه عنهم لا يعد استيفاء لما يجب أن يكتب عنهم ، فعلماؤهم وشعراؤهم وتآليفهم تستحق موسوعات ، ناهيك عن جمل مختصرة كهاته تتناول بعض المبادئ العامة التي عرفوا بها ، لأني إذا كتبت عن أعلامهم تحتم علي إعداد موسوعة ، لذا فإني أتيت بقليل من أخبارهم . للتذكير بأنهم من أعرق سكان الصحراء ، و لا يمكن أن تحصى مناقبهم وسجاياهم الاجتماعية في دراسة موجزة كهاته .

أ ـ اديقب

قبيلة اديقب هذه قبيلة اشتملت على كل مفاخر العرب ومحاسن الزوايا ، وهي تنتمي إلى المجموعة التي تعرف في شنقيط بقبائل تشمشة ، تضم قبائل هي : ايدا اتفاغة ، واد گبهني ، وبنو ديمان ، إدَوْدَايْ ، وإيديقب ، وكلها تسكن جنوب البلاد الموريتانية إلا قبيلة إيديقب، فإنها ظلت من قديم مضارب أحيائها في إقليم وادي الذهب الذي عرفت فيه رخاء لم يسبق له مثيل في المنطقة ، فتحكي الروايات الشفوية أنهم مكثوا أربعين سنة مع أبناء عمومتهم أهل بارك الله ، ما انحبس عنهم المطر ، ولا شاهدوا ميتا ، وكل مجالات حياة ذلك الوقت مساعدة لهم ، ففي «تيرس وأدرارصطف» من وادي الذهب حفروا الآبار ، وخلدوا الأعلام بشعرهم العربي ، فمنهم العلماء والصلحاء والشعراء الأفذاذ ، ويكفي أنَّ منهم الشاعرَ محمد بنَ الطلبة ، ومولود بن أحمد الجواد ، والمجيدري ، وغيرهم من الشعراء المجيدين والعلماء العاملين . ولقد تأصلت فيهم خدمة الفقه وبالأخص أهل اشفغا موسى الذين تسلسل فيهم منصب القضاء بالمنطقة ، كما لهم مساجلات مع شيخ النحو في زمانه إن لم يكن في كل الدنيا المختار بن بونا صاحب «الاحمرار على ألفية ابن مالك» ، وهذا الاسم أطلق على نظم في النحو ضاعف به الخلاصة ثلاث مرات ، لكن بما أن زمن الناظم لم تعرف فيه الطباعة بتلك الديار ، فكان نظم المختار يكتب بالأحمر ، وبما أنه أدخله في النص إذ في كل باب كتب داخله ما رآه ناقصا في متن ابن مالك ، فقد أصبح نظمه مبينا بالخط الأحمر ، ثم

أطلق عليـه الاحـمـرار ، وقـد أثبـتنا نموذجـا من هذا في الهـامش[1]، ولكن إديقب كـانت لهم مـعـه مطارحـات شـعـرية ولغوية، وبالأخص مولود بن أحمد الجواد بتصغير الجواد كان من علماء النحو واللغة ، وتتلمذ على المختار الجكني سليل العلم ومعدن الفضل ، حتى أن مثلا شائعا في جميع الصحراء يقال فـيـه : «كـاد العلم أن يكون جكنيـا» ، ثم إن مـولود انقلب على شيـخـه مع الأسف وصـار من ألد خـصـومـه ، فـشق ذلك على المختار رضي الله عنه .

ومنهم مـحمدُ بنُ حبيب اللّه الملقبُ بـ «المجيدري» معَ نطق مـحـمـد بتـحـريف هو : «مـحـمـذ» ، وهو عـالم سلم له جـمـيـع مـعاصـريه ومن اقتـفـوا أثره بأنه من أعلم مـا عرفـتـه الأقـاليم الجنوبية ، وهو أيضـا من تلاميذ المختار ابن بونا المتقدم حتى تهاجَيَا شعْراً . لقد اتصلَ المجيدري بالسُلطان مُحمد بن عبد اللّه رضي اللّه عنه فأنعم عليه إنعاما كثيرا ، ثم رحل إلى مصر فأكرمه أميرها انذاك .

ومنهم اللغوي الكبير المامون ، وكذلك منهم العالم البخاري إبن المامون ، ومنهم العالم العامل والشاعر الفذ الناسك العابد محمد مولود ابن تكرور .

---

1) قال ابن مالك :

مِنْ نُونِ تَوْكِيدٍ مُبَاشِرٍ وَمِنْ ... نُونِ إِنَاثٍ كَيَسُرْ عَنْ مَنْ فُتِنْ

قال المختار :

إِسْنَادُهُ لِمُتَوَقَّعٍ وَلَوْ ... وَنُونُ تَوْكِيدٍ وَتَنْفِيسٍ كَسَوْا

وبالجملة فقبيلة إديقب يمكنني أن أقول عنها ما قيل عن مَحمد بن الطلبة أحدِ شعرائها الأفذاذ على امْتدادِ الساحة العربية «إذ جرى على ألسنة الناس أنه عربي أخره الله» ، فيمكنني أنا أن أقول إن إديقب قبيلة من الشعراء أخرهم الله ليخلقهم في أرض تيرس من وادي الذهب ، فإذا كان إخوانهم ءال بارك الله حفروا ءابارها وأحيوا مواتها ، فإن اليعقوبيين خلدوا أعلامها الجغرافية بشعر رائع أعطاها بعدا حضاريا خارج الوطن ، فإليهم يرجع فضل تأسيس المدرسة الأدبية في المنطقة ، ومنهم محمد مولود بن أحمد فال المسوي الملقب ءاد صاحب نظم الكفاف ، وقد قرب فيه أحكام الشيخ خليل في كتابه المختصر حتى سهل بذلك حفظه على كثير من طلاب العلم ، ولما أكمل النظم ، وضع عليه شرحا طيبا ، وللعلامة محمد مولود عدة تآليف منها :

1) البشائر في تفسير القرءان العظيم
2) ما أجمع عليه القراء مع بيان ما اختصت به رواية ورش
3) بشائرُ التالين لكتاب ربٍّ العالمين
4) المرادف من القرءان العظيم

وغيرها من التآليف التي أبانت عن مقدرته . وبالجملة فإن قبيلة إديقب تتألف من النبغاء والشعراء والمؤلفين المجيدين والقضاة العادلين والعلماء العاملين والصالحين الناسكين .

ب ـ أهل بارك الله

هذه قبيلة جعفرية تمر إليه من خلال حسان أو مرور باحمد بزيد ، جدها الأعلى ابن يعقب ، فهي وإديقب تنحدران من حسان حسب رواية المختار بن حامد .

هذه قبيلة تنوعت أنشطتها فانتشر نفوذها وطار في الآفاق ذكرها ، فهي التي عمرت إقليم وادي الذهب جميعه في فترة ماضية ، فحفرت الآبار ، وحمت الديار ، فانضوى تحتها كثير من الأتباع ، وحالفها كثير من القبائل ، فرضت عن طريق القوة احترامها ، ونالت بفضل ما أنجبته من العلماء والصلحاء هيبتها .

لقد ظلت قبيلة ءال بارك الله المعقلية الأصل تجمع بين محاسن الزوايا والعرب ، ففيهم حمل السلاح لفرض احترامهم على الغير ، لكن دون تسلط أو ظلم ، فأسلحتهم عبر الزمن ظلت دفاعية ، ولم تستعمل في يوم من حياتهم كلها للهجوم على بريئ أو لتعزيز مستبد أو متسلط ، فتأصل روح الإسلام الصحيح فيهم حالت بينهم وبين المس بغيرهم حتى ولو كانَ أضعف منهم، وقوة شوكتهم مكنتهم من تعمير القفار ، فحفروا الآبار ، وأسسوا أول استقرار استمرت الحكايات عنه محفوظة بكل إقليم وادي الذهب الذي تقول الروايات الشفوية إنهم مكثوا به نحو أربعين سنة في رخاء لم تعرف له المنطقة مثيلا ، حتى إنه يحكى أنهم لم يشاهدوا ميتا طيلة المدة التي تنامى فيها عددهم ونما كسبهم وكثر أتباعهم حتى التجأت قبائل قوية ومحترمة لا

تقل عنهم مكانة من حيث القوة العسكرية ، إن لم تكن تكثرهم عددا ، فدخلت في حلفهم ووضعت على مواشيها علامتهم ليسري عليها احترام الغير لكل من انتسب إليهم ، بل قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، ففرضوا نفس الإتاوات التي فرضها من سموا بالعرب على من أخضعوهم بالغلبة لسلطتهم، وإن كانوا هم أيضا مسهم شرار من ذلك كنتيجة من نتائج حرب ببه التي تحكي الروايات أن عقلاء أهل بارك اللّه لم يساندوا رأي المتحمسين لها ، ولذلك لما وضعت الحرب أوزارها لم تنل أهل بارك اللّه كل أضرارها كغيرهم من قبائل تشمشة ، بما فيها إديقب المشتركين معهم في النسب الواحد .

أما حياتهم الخاصة ففيهم برز العلماء ، ومنهم نبغ الشعراء ، وفي أمداحهم تبارى البلغاء.

ويحدثنا أحد أعلامهم عنهم في كتاب أعده على حياتهم وهو محمد عبد اللّه بن البخاري فينسبهم لقبائل تشمشة ، وهي حلف لا يشكل نسبا ، لكن طبيعته الدفاعية لم تطل ، بل انقلبت إلى فيدرالية ثقافية تكاد علاقاتها تكون انحصرت في التعاون المعرفي .

إلا أن قبيلة أهل بارك اللّه وشقيقتها إديقب المشتركتان في الانحدار من يَعقُب بن سَام بن عبد اللّه بن عَمْر بن حسّان الجعفري يعتبرهما المؤرخون مؤسستان لحضارة مُتنقلة إن صح التعبيرُ في رقعة تيرس وأدرار صطف شرقَ الداخلة ، وتمتدُّ شمالا حتى المكانِ المعروف ببئر أنزران وحتى الكويرة

جنوباً من أرض المغرب ، قلت هذه القبيلة هي السباقة إلى حفر الآبار والاستقرار بتلك المنطقة ، وللنهضة العلمية والشعرية التي نشأت على يدها هي وسبقت قبائل الزوايا المتقاطرة على تلك المنطقة ، أمكننا تسمية ذلك المجهود بوضع البذرات الأولى لحضارة فكرية لم ينقص من إشعاعها تعاطي الترحال ، بل لعل ذلك كان مجددا لعطياتها ، مهذبا أفكارها ، منميا مدارك مبدعيها ، فمن مشاهيرهم أحمد بَزيد ، ومسكه ابن باركل ، والبخاري بن الفلالي ، والشيخ محمد المامي الولي الصالح الذي لمْ يتركْ فناً إلا وألفَ فيه ، وتمتازُ تآليفُه ببُعْد النظر وسَعَة المعارفِ والابتكار ، وسيدي عبد الله ابن الفاضل ، ومنهم صلاحي بن الشيخ محمد المامي . إننا هنا لا يمكن أن نلم بكل أعلام كل قبيلة من هذه القبائل التي يَنْدُر أن يشمخ فيها فتى دون أن يحسن حفظ القرءان وقرض الشعر وحفظ مختصر خليل ، وإلا عد من غير أبناء الزوايا التي أصبحت في المنطقة نعتا لكل من حصل على درجة عالية من المعرفة ، إذ يقال له باللهجة العامية الحسانية : «وَلْ أَزْوايَ» ، وقد تميز ءال بارك الله بأنهم قادوا ولم ينقادوا ، فلم تدفعهم قوتهم للاعتداء على أحد ، ولم تخضعهم مسالمتهم للغير فسارت بمجدهم الركبان وخلدت مفاخرهم في سجلات الأجلاء المحترمين .

ج - أهل محمد سالم

وهم من مدلش ، وهو اسم محرف عن مجلس العلم لكثرة اشتغال أصولهم الأولى به درسا وتدريسا ، ونحن لن نطيل بذكر مفاخرهم العامة وخصالهم المتنوعة ، لأن الذي يعني هذه

الدراسة هم الأسرة الكريمة أساتذة جميع الصحراء بدون منازع ءال محمد سالم ، فما منهم إلا عالم مؤلف شاعر مجيد أستاذ متخصص باحث بارع ، فهم الذين شام برق علومهم القاصي والداني ، ونهل من بحور معارفهم السابق والواني ، جهابذة أجلة ، هداة أئمة ، أما إخوتهم من المدلش فهم أولاد بوسيدي ، لكن غطى الفرع الأصل ، والنهر ملأ البحر ، والقليل امتد حتى ضاعف الكثير ، فأصبح أهل محمد سالم لا ينعتون بغيرهم ولا ينسبون لغير أنفسهم ، حلقات دروسهم قائمة ، محاضرُهم مفتوحةٌ في وجْه طلبة العلم من مُختلف الجهات ، علمٌ طُلب للّه ، ولقن للناس في وجه اللّه ، ما طمع أَحدَ في مكانة شيوخهم الذين استغلوا ما بأيديهم من مكاسب لتلقين المعارف، متعهم اللّه بأعلى المراتب ، فمنحوها لغيرهم فأثنى عليهم الجميع إشادة بما من الاعتراف ناسب عطاءهم الذي بيض وجه طلاب علم كل قبيلة ، وأنزل المنطقة في مصاف أعلى المناطق إنتاجا في العالم الإسلامي عموما من حيث تلقين شتى العلوم للطلبة ، وفي شنقيط خصوصا .

وإننا لو تتبعنا مناقب ءال محمد سالم لخرجنا عن مختصر يضم نبذا تعرف ببعض قبائل الصحراء ولأصبحنا أمام موسوعة تضم نعوت صدق تشتمل على فيض من المفاخر ، فما نشأ منهم رجل إلا وكان عالما شاعرا فاضلا ، همه تحصيل العلم وبذله ، وكثير من مشائخهم كان يؤسس مدرسته «المحضرة» ، ثم يتولّى الإنفاقَ عليها ، حتى أن الناسَ في شنقيط كلها اعتاد المحسنون منهم على الاعتناء بكثرة الوقف عليهم لمشاهدتِهم لأوجُه التدريس التي يصرفون فيها ريع

الحبس ، فهم إما عالم انقطع لتعليم الناس ، وإما شاب معتكف على تحصيل العلوم ، وإما خادم على المتعلمين والعلماء، فليدم اللهم تلك الجذوة الإسلامية لا تغيب شموس معارفها ، ولا ينبض يَمٌّ روافدها ، علم طلب لله فأبى أن يصد أصحابه عنه شيءٌ غير الله .

لم أتعرض لأسماء أعلامهم الأئمة الهداة لأني لا أريد أن أذكر البعض دون الكل ، وليس لدي متسع لذكر الجميع ، فاستعرضت نزرا من صفاتهم العامة ، لتعطي انطباعا للقارئ الكريم عن هذا المحتد الأثيل في المجد المتخصص في نفع العباد بما لا يستطيع غيره . فأسرة أسسها الشيخ الكبير محمد بن محمد سالم وأبناؤه أحمد وعبد القادر ، وإخوتهم وبنو عمومتهم لا يمكن لأحد أن ينال مكانتها ، ولا طمع أحد في أن يقترب من مستواها ، فخلال النصف الأخير من القرن الماضي والحالي أصبحت مدرسة ءال محمد سالم الفقهية تؤدي في الصحراء نفس الدور الذي أدته جامعة القرويين بفاس ، فهذا طالب منقطع لطلب العلم يقضي عشرات السنين يجني من يانع علومها ، وهذا عالم لم يأنس من نفسه الكفاءة العلمية إلا إذا جلس في حلقة درسها واستمع من أحد مشائخها واستوعب منهج تدريسها ، وذا مؤلف شد الرحال إليهم ليعرض عليهم إنتاجه . إضافة إلى إن أسرة ءال محمد سالم أنتجت موسوعة علمية تضمنت جميع مواضيع المعارف الإسلامية ، فمن الريان، والنهر الجاري ، واللوامع ، إلى الطرر الكثيرة على الشيخ خليل ، إلى النَّوازل والأشعار والأحكام ، يجول المهتم بالثقافة

الإسلامية في فيض معرفي تتابعت في إنتاجه طاقات فكرية خلاقة وجهود بشرية ، ربط بين أجيالها تطلع نبغاء نشأوا في التحصيل ، وتتابع على تكوينهم عطاء جيل بعد جيل ، فلو رأوا أنفسهم من حيث رءاهم الناس لداخلهم العجب أو أضر بهم الغرور ، لكنهم نظروا لعظمة الواهب فاستصغروا أنفسهم حمدا لتكرمه ، فزادَهم برضَى مَخلوقاته على سُلوكهم وتَنويههم بما يتدفق من فيض بحور علومهم في شتى المعارف بما عم أرجاء الجنوب المغربي ، فكما كانَ طلاب العلم لا يطمئنون على تحصيلهم ومستواهم إلا إذا حصلت لهم دراسة القرويين بفاس أو الأزهر بمصر أو الزيتونة بتونس ، فكذلك كان الطالب بالجنوب لا تركن نفسه لقبول معارفه الفقهية إلا إذا مر بأحد أقطاب هذه المدرسة ، إما محمد الجد رحمه اللّه ، وإما أحد أولاد أحمد ، أو عبد القادر ، أو أحد أحفاده الذين تسلموا زمام قيادة مناهج البحث والتدريس من بعده ، وءاخر عَلَمٍ نال شهرة علمية ما نالها أحد قبله هو العالم «قار» ، مع أقمار أحاطوا به من أبناء عمومته قدموا للمدرسة الإسلامية إنجازات ستتذكرها الأجيال القادمة بصفحات من ذهب على بساط تحصيل المعارف الإسلامية وبثها . ومما يثلج صدر من يحبهم وهم كثيرون هو أن كل شبابهم له همة علية وإرادة فولاذية في تحصيل علم ءابائهم ، ولئن كان البعض يصفهم بالمدرسة الفقهية فإن تآليفهم في النحو والتفسير والحديث تؤكد موسوعية معارفهم ، وحسن أشعارهم مما ينبئ عن علو شأنهم الأدبي .

الفصل الثالث :

دور العرش والشعب
في استكمال الوحدة الوطنية والحفاظ عليها

سنتناول هذا الفصل من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : بداية الغزو الاستعماري

الفرع الأول : جهود العرش لوقف أي اتفاق أوربي استهدف سيطرة إحدى الدول الأوربية على الصحراء المغربية

الفرع الثاني : تصدي العرش لأي غزو استهدف الصحراء

الفرع الثالث : رفض الصحراويين التعامل مع الإدارة الإسبانية إلا عن طريق خليفة السلطان بتطوان

الفرع الرابع : اندماج الصحراء في الوطن سنة 1956

المبحث الثاني : مواجهة العرش والشعب لمخطط محاولة الانفصال

هذه اللمحات تشكل فصلين من فصول الكفاح الوطني :
الأول معلوم من طرف الجل ، وقد كتب عنه الكثير ، وتنقسم الكتابة عنه بحَسَب نيات أصحابها إلى مؤيدين وناقدين ، فأولئك الذين أجروا أقلامهم لسلطات الاستعمارين الفرنسي والإسباني والمؤرخين من نفس العنصرين ، قد شوهوا حقائق الفصل الأول من كفاح المغاربة الصحراويين تشويها ، إذا كان لم يستطع إنكار واقع المعارك ، وأسماء بعضها ، وذكر ما نضر جبينها من بطولات مغربية أبان عنها أبناء الصحراء ، رغم عدم تكافؤ الفرص وتباين مصادر التسليح والتدريب والتوجيه والتخطيط، إذ كانت تلك الكتابات أرغم أصحابها على سرد الوقائع ، مما حملهم على الحديث بشيء من الدهشة عن صلابة المقاتل المغربي بالصحراء، فإنهم مع ذلك استشاطوا في سرد كثير من الكذب لتشويه غايات وأهداف ذلك الجهاد الإسلامي الوطني ، فأرْخَوْا لأقلامهم العنان ليعطوا لذلك الجهاد هدفا غير هدفه ، مستغلين عدم إدراك الجميع للحقائق ، من أجل تشويه أهداف ذلك الجهاد ، ولتلك البطولات المنبثقة من صميم الفكر المغربي بتوجيه وتخطيط وأوامر أصحاب الجلالة الملوك العلويين الذين بويعوا طواعية واختيارا من طرف جميع المغاربة قاصيهم ودانيهم ، من أجل الدفاع عن وحدة هذا الوطن الذي ظل عبر التاريخ حلم الغزاة ، وهدف كل الطامعين من عظماء الدول ، ولكن عزيمة أبنائه ظلت هي أيضا الطود الشامخ والسد المنيع الذي صد كل طامع أجنبي امتدت طموحاته للنيل من مقدسات بلادنا . إن أصحاب تلك المطامع لما أعيتهم شجاعة أبناء هاته

الأقاليم وحالت بينهم وَبَيْنَ تنفيذ أَيٍّ تخطيط أو غزو استهدفا فصلها عن الوطن الأب ، عندها حاولوا تبرير خيبة أملهم بنعت تلك المراحل من كفاح أبناء الأقاليم المغربية الصحراوية إما بأنها كانت تشقُّ عصا الطاعة ، وإما بأنها كانتْ الأقاليمَ المعروفةَ ببلاد السيبة ، أو أن أهلها كانوا جماعات من المغيرين الذين لا تتحكم فيهم سلطة ولا تنظمهم أية قوانين .

وللرد على تلك المزاعم سنبين جملة وافرة من الوثائق التي تثبت تشبث أبناء الأقاليم الصحراوية بالطاعة ، وتحركهم في كل مرحلة من مراحل كفاحهم بالنظام متقيدين إلى أبعد الحدود بكل التوجيهات والأوامر الصادرة إليهم من طرف العرش المغربي أحرسه الله .

وسأتناول الموضوع حسب النقط المبينة في التصميم أعلاه

المبحث الأول ـ بداية الغزو الاستعماري

قليلون هم أولئك الذين يرجعون بداية محاولات الغزو الأجنبي في ربوع الصحراء المغربية إلى بدايتها الحقيقية ، ثم أيضاً إلى الأسْبابِ التي دفعتْ الاستعماريْن الإسباني والبرتغالي ، يلحقهما الإنجليزي والفرنسي فيما بعد ، إلى محاولة السيطرة على هذه الأصقاع التي لم تكن آنذاك أكثر إغراء عن غيرها من بقية أقاليم المملكة الشريفة .

الفـرع الأول : جـهـود العـرش لوقف أي اتفـاق أوربي استهدف سيطرة إحدى الدول الأوربية على الصحراء المغربية

إن المتتبع لتلك المراحل تاريخيا لا بد أن تذهب به الأحداث إلى دور المغرب في بث الإسلام في مختلف القارة الأفريقية عن طريق صحرائه ، ثم إلى نهاية الوجود الإسلامي بالأندلس وما تركتـه من رواسب الحـقـد الدفين في نفـوس رجـال الدين الإسبانيين ، ثم ما بقي ماثلا أمام رجال السياسة بها أيضا من شبح مغربي يتوقعون انقضاضه عليهم من حين لآخر لرد الثأر من جهة ، وللقيام بواجب الجهاد المقدس من جهة أخرى . فكان لا بد من اتخاذ حيطة سريعة وقوية للحيلولة دون أي تحرك مغربي يتاح له ، عندما تتقوى دولته بعد فراغها من التغلب على مواجهة مضاعفات سقوط الأندلس وما نجم عنها من مشاكل إنسانية وسياسية وعسكرية . وقبل أن يتم ذلك توالت مناوشات الجيوش الإسبانية قبل حكم دولة السعديين على جميع الأطراف المغربية ، بادئة بتحركات تجارية يقوم بها بعض رجال الاستخبارات السياسيين ، للتعرف على طبيعة البلد وقدرة أهله الدفاعية ، وخصوصا بالسواحل الجنوبية المغربية الصحراوية التي تشكل متنفسا قويا لأي تحرك مغربي.

وتلافيا لأي تضارب أو تصادم يقع بين الدولتين اللتين تعاونتا على إسقاط الأندلس ، واللتين بقيت فرائصهما ترتعد آنذاك من ردة فعل إسلامية تنطلق من المغرب مثلما انطلق منه الجهاد الإسلامي الذي أنجب دولة الأندلس ، ومِنْ أجل الحيلولة

دون قيام أية مواجهة بينهما أبرمتا اتفاقية (الكوسباس) سنة 1479 ، والتي لم يبق أي مؤرخ تعرض لتلك المرحلة إلا حللها بتفصيل ، وفي هذه المعاهدة أصبحت البرتغال تتحرك لاحتلال جميع تراب المملكة المغربية ، وإسبانيا تتحرك لبسط نفوذها على الجزر الخالدات .

ويروي المؤرخون أن البرتغاليين استغلوا تلك المعاهدة فسَيْطروا حتى على بعض النقط الموريتانية ، رغمَ ما واجَهوا من معارضات سافرة من طرف جميع سكان الساحل الأطلسي، ابتداء من طنجة إلى الكويرة من طرف المغاربة ، ونفس الشيء واجههَم به إخوانُنا الموريتانيون .

وقد أدت تلك الحملات بدعم من عوامل الطبيعة إلى تكوين شركة أطلق عليها اسم (الشركة المختلطة لصيد السمك وتصدير الصمغ) ، وإن كانت هذه الشركة لم تقم بأي دور يذكر ، فإنها شكلت لغاية استعمارية هي : محاولة بسط النفوذ على الأماكن المغربية الجنوبية . وفي هذه الأثناء وبعد أن ضعفت البرتغال بسبب الهزائم المتتالية ، وأهمها انهزامها في معركة وادي المخازن ، انقض المعمر الإسباني المسمى «دِيگُو گَارسيا اريرا» على ثغر يقع في السواحل الصحراوية ، سماه سانتا كروز ديمار بيكينيا (الصليب المقدس للبحر الصغير) محاولةً لجَعْلِه مركزَ اتصال معَ الجزر الخالدات .

وقد نجم عن تلك العملية خلاف حاد بين الإسبانيين والبرتغاليين ، ولم ينته إلا بتدخل البابا الإسكندر الثالث سنة

1494 لإعادة الوفاق بين الدولتين ، مستعملا سلطته الدينية لفصم النزاع وتحديد النقط المسموح لكل من الدولتين بالتمركز فيها ، مما دفع بالبرتغاليين إلى استعمال كثير من المواقع الساحلية المغربية التي أجلاهم عنها بأكملها السلطان المقدس محمد بن عبد الله في منتصف القرن السابع عشر . وتوالت الاتفاقيات الإسبانية - البرتغالية في شأن اقتسام الشواطئ المغربية ابتداء من سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية ساحل الرأس الأبيض مثل اتفاقية سينْترا سنةَ 1508 التي اعترفتْ للبرتغال باحتلال الساحل المغربي الجنوبي ، باستثناء سانتا أكدير ، في حين تتخلى البرتغال لإسبانيا عن بقية الساحل المغربي وخصوصا الواقع على البحر الأبيض المتوسط (سبتة ومليلية) . ولم يستطعْ الإسبانيون ولا البرتغاليون أن يُنفذوا ما تطمح إليه نفوسهم من تركيز السيطرة على السواحل الصحراوية المغربية بسبب ما كان يقوم به المغاربة الصحراويون والسوسيون من هجمات مظفرة تحطم كل المنشآت الأجنبية .

وفي مطلع القرن السابع عشر دخل إلى حلبة السباق الاستعماري طرفان آخران هما الفرنسيون والأنجليز ، كما انزوت البرتغال تاركة مكانها لإسبانيا ، وإن كانت الوثائق التي بين أيدينا لا تحدثنا عن اتفاق متعمد على ذلك ، إلا أن إسبانيا تشددت في محاولة السيطرة على الساحل المغربي من جنوب أكدير حتى الرأس الأبيض ، مستعملة في ذلك جميع الوسائل .

فالتحركات التجارية والاتفاقيات الثنائية دعمت بعمل ديبلوماسي مكثف امتاز بالتشدد تارة واللين والمراوغات تارة أخرى حسب ظروف الحالة العسكرية للمغرب ، فإذا ما ضعف بسبب هجوم أجنبي عليه كان الملك الإسباني يلح على ضرورة تعيين مركز سانتا كروز ، الذي لا يجهل أحد في أنه هو رأس الشؤم الذي تسرب عن طريقه الاستعمار الإسباني إلى هذه الأجزاء المغربية ، وبما أن هذا الجزء ، وكما أسلفت من هذا العرض ، معروف لدى الكل لكثرة ما كتب عنه ، فإنني سأحاول أن أمر عليه بما أمكن من الإيجاز والتلخيص .

في سنة 1766 عين ملكُ إسبانيا (شارل كارلوس) المسمى (خورخي اخْوان) سفيراً لبلاده لدى السلطان الجليل سيدي محمد بن عبد الله الذي طهر الحصون والقلاع المغربية من الاستعمار البرتغالي ، وقد حددت مهمة السفير الإسباني المذكور في محاولة تعيين نقطة (سانتا كروز ديمار بكينيا) ، ولكن السلطان المشهور بوطنيته وكفاحه حال دون تحقيق الرغبة الإسبانية ، متذرعا بإعطاء أسماء الأعلام الجغرافية على حقيقتها للمفاوضين الإسبانيين ، حتى منعهم من احتلال أية نقطة تحت اسم (سانتاكروز ديمار بكينيا) . وفي سنة 1799 عقدت اتفاقية مغربية إسبانية لإقامة منشآت تجارية في إحدى النقط الساحلية بجنوب المغرب ، وحاولت إسبانيا في عهد السلطان مولاي سليمان التوصل إلى السيطرة الفعلية على تلك الشواطئ ، لكن السلطان العلوي مولاي سليمان رفض مطالب ملك إسبانيا آنذاك شارل الرابع .

واستغلت إسبانيا معاهدة سنة 1860 التي بعدها انحصر هم الإسبان في البحث عن السيطرة على نقطة ما في الساحل الجنوبي للمغرب ، وفي سنة 1861 تكونت في إسبانيا لجنة عليا لمواصلة العمل من أجل تحديد مكان النقطة المعروفة «بسانتا كروز ديمار بكينيا» والتي اعتبرت آنذاك هي حجرة العثار في طريق أية مذاكرات مغربية إسبانية ، وفي سنة 1878 ألحت إسبانيا على ضرورة تحديد المكان المفقود ، وأقلعت باخرة تابعة لها من طنجة مرورا بالصويرة ، فلم تترك ثغرا على الساحل إلا وادعى الإسبان أنه سانتا كروز ، وكان المغاربة يردون عليهم بأن تلك النقطة هي المعروفة بكذا (اخنيفيس ، بوجدور ، الداخلة ، الگويرة مثلا) ، وهذا يعطي أكبر برهان على تشبث العرش بدوام السيادة على هذه الربوع التي ظلت ولا تزال وستبقى بحول الله من أقرب الأقاليم ، وأهلها من أعز سكان بقية أقاليم المملكة على قلب صاحب الجلالة نصره الله .

وفي سنة 1883 تأسست الشركة الاستعمارية الإسبانية وأطلقت على نفسها «الشركة الإسبانية الأفريقية للمستعمرات»، ووقع اختيار خبراء تلك الشركة يوم 30 مارس 1883 على الداخلة على أساس أنها سانتا كروز الذي ظل البحث جاريا عنه طيلة المدة السالفة التي ذكرنا ، ورغم أن السلطات الإسبانية بادرت إلى إقامة بعض المنشآت الخشبية على ساحل الداخلة ، وأرسلتْ مذكرةً دوريةً يومَ 20 دجنبر 1884 إلى كثير من دول العالم ، وخصوصا المهتمة منها بالسيطرة على السواحل المغربية ، تخبرها فيها بأن نفوذها قد توطد في جميع

السواحل المغربية من أكدير جنوباً حتّى الرأس الأبيض الگويرة ، وقد أثبتت الوثائق الموجودة في مجلة العالم الإسلامي ، وكتاب تنظيم الحماية في المغرب ، ومجلة الوحدة ، وجريدة الجنوب ، وكذلك كل الكتب الأجنبية والعربية التي تحدثت عن تلك الفترة، أثبتت هذه الحقائق مؤكدة أن المغرب رفض تلك المذكرة ولم يترك لها فرصة التطبيق .

وبالرغم من هذا الإجراء الاستعماري فإن أبطال قبيلة أولاد دليم المشهورين بجهادهم وتمسُّكهم بوطنيتهم أغاروا على تلك المنشآت واقتلعوها ، ثم أسروا أحد النصارى ، وقد موه لجلالة السلطان المقدس مولاي عبد العزيز ، على يد خليفته في الصحراء الشيخ ماء العينين ، حسب ما تنص عليه رسالة الزعيم المغربي والدنا الشيخ ماء العينين لجلالة السلطان المنشورة بكتاب الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط للشيخ محمد الإمام رحمه الله ، وقد ألف هذا الكتاب سنة 1947 والاستعمار في أوجه ، مبرهنا به مؤلفه عن بعد التفكير وإدراك المطامح البعيدة للحكام الإسبانيين ، ولم يقتصر قلق الدولة الإسبانية في أواخر السنة المذكورة وأوائل التي تليها على انزعاجهم من ثورة السكان عليهم وتصديهم لهم في كل شبر من الشاطئ الصحراوي بإباءٍ وشَمَم ، وإنما زادَ من تخوفاتهم ما قامت به السلطات البريطانية لدى السلطان بفاس تلتمس منه السماح لها بإقامة منشآت تجارية على الشاطئ

الواقع جنوب أگدير ، ونفس الضغوط البريطانية كانت تتابعها السُلطات الفرنسية بغية ترك الحرية لبواخرها لتتوغل في الساحل الموريتاني ، وفي هذه الأثناء ، وبعد عدة محاولات كانت تقابل بما أمكن من المواجهة من مختلف سكان هاته المناطق ، توالت هجمات الجيوش الأجنبية على أطراف المملكة الشريفة من كل جهة ، وفي سنة 1884 استقرتْ بعثةٌ إسبانيةٌ بالداخلة ، وتوالت المحاولات الإسبانية للسيطرة عليها ، لكن قبائل الصحراء حالت بينهم . مع ذلك وفي آخر السنة نفسها تكونت لجنة إسبانية مغربية أبحرت من مدينة الصويرة في اتجاه الساحل الصحراوي ، ولما وصلت ايفنى اختاره الإسبانيون ليكتب في المحضر أنه هو المكان المعروف باسم (سانتا كروز) ، لكن الوفد المغربي امتنع من ذلك متذرعا بأن المكان يعرف باسم سيدي ايفني وليس بسانتا كروز ، ووقع الإسبان على المحضر ، ورفضت البعثة المغربية توقيعه .

وعلى ذكر سانتا كروز ديمار بكينيا نتذكر مكارم وإخلاص وجهاد القبائل الباعمرانية والتي ذكرنا في أول هذا الكتاب أنهم هم وتكنة يشكلون مجموعة واحدة ، لكن لا بد من التأكيد هنا على أن قبائلَ ءاية باعمران جسَّدتْ ترجمةَ التمازُج الحضاري القائم بين القبائل الصنهاجية وبين القبائل المعقلية ، فهذه مجموعة كونت نموذجا مشرفا للشجاعة ، ومواجهة خصوم المغرب عبر التاريخ ، كما تميزت باتصالها مع ملوك الدوحة العلوية الشريفة ، ومما يجسد الثقة التي حظيت بها تلك القبائل من قديم لدى ملك البلاد هو كون السلطان المقدس مولاي

الحسن الأول زارهم مرتين ، وحفيده وارث سر أمجاد السلالة النبوية الكريمة سيدنا أمير المومنين الحسن الثاني زارهم هو كذلك ، وظلت قبائل ءاية باعمران تحرسُ شواطئَ المغرب هيَ وجميع قبائل الصحراء وفق التوجيهات النيرة للعرش العلوي .

ولقد ظل الباعمرانيون طودا شامخا وسدا منيعا في وجه جميع المحاولات الأوربية التي جعلت من سانتا كروز محاولة التحكم في الشواطئ المغربية ، فلم يتمكنوا من ذلك بفضل جهاد تلك المجموعة الباعمرانية التي أنجبت العلماء الأفذاذ والمجاهدين الأشاوس والكرماء الحاتميين في سبيل الله والسياسيين المحنكين والاقتصاديين المدبرين ، وهم من أعرق سكان الصحراء وأكثرها تمركزا بمدن تلك المنطقة ، وسيظل تاريخ الكفاح الوطني مشيدا بانتفاضة ءاية باعمران خلالَ الخمسينيات في صفوف جَيش التحريرِ ما دامتْ أقلامُ المثقفِين تمجد القيم وتخلد المفاخر ، وسيظل الوطن مقدرا أن الاستعمار الإسباني ما حاول إغراءهم لدمجهم في المجتمع الإسباني إلا ووجد التجمع الباعمراني ممتنعا من ذلك ، ومتشبثا بمغربيته وإسلامه .

وبفضل كفاح الباعمرانيِّين أجمعَ المؤرخون على أنَّ تلك البعثةَ لم تَستطعْ النزولَ بسيدي إيفني فذهبتْ إلى شواطئ بوجدور ، وأنها لم تستطع النزول بسبب معارضة السكان لنزولها في الشواطئ المغربية . ولما وجدت إسبانيا نفسها عاجزة عن مواجهة المغرب عمدت إلى فرنسا التي توجد آنذاك في وضع ستراتيجي أحسنَ مما عليه إسبانيا لإشرافها على الجزائر وبعض السواحل الأفريقية الأكثر قربا من الجنوب المغربي .

وفي هذه الأثناء بدأت مصالح الدول الغازية تتضارب ، ووقع بينها نوع من التنافس سرعان ما أدركت ضرورة جعل حد له ، حتى لا ينسف عليها ما أصبحت على وشك الحصول عليه من مكاسب ، وإذا أدركنا أنَّ البرتغالَ انكمشتْ عنْ مَيْدان التسابق على الأطراف المغربية ، فإننا نرى بمقابل ذلك أن إنجلترا وفرنسا دخلتا في ميدان التسابق على الانقضاض على سيادة المغرب ، فعقدت إسبانيا وفرنسا اتفاقيات سرية وعلنية تحدد لكل منهما أماكن النفوذ الذي ينبغي أن يقتصر عليها في المناطق الأفريقية والساحل الصحراوي المغربي .

وقد وقعت لهذا الغرض اتفاقية بتاريخ 27 يونيه 1900 حددت فيها أماكن السيطرة الإسبانية من الرأس الأبيض جنوبا إلى مصب درعة شمالا ، ثم تنتهي في منطقة فرنسية تستثنى منها بلاد ءاية باعمران التي تبقَى هيَ أيضاً في يَدِ السلطات الإسبانية .

وبعد هذا بأربع سنوات ستنضم إسبانيا بموجب معاهدة 1904 إلى خُطة العمل الإنجليزيَّة الفرنسيَّة الخاصَّة بمصرَ والمغرب ، وتتوالَى الاتفاقيات بين إسبانيا وبين فرنسا وكلها تنص على احترام وحدة التراب المغربي تحت السيادة الفعلية للسلطان .

وأشير بهذه المناسبة إلى عمق مفهوم البيعة الذي نصت عليه محكمة العدل الدولية ، لأن سلطة رئيس الدولة آنذاك حسب النظم الدولية كانت هي الدليل الوحيد على معرفة كيان

أية دولة في العالم ، وذلك أن الاتفاق المبرم يوم 3 أكتوبر 1904 بين الجمهورية الفرنسية وبين المملكة الإسبانية بمدينة باريس قد نص بالحرف على أن الدولتين تتشبثان بصفة أكيدة بوحدة التراب المغربي تحت سيادة السلطان ، ثم تمضي السنون وتتلكأ إسبانيا ، وتكتم فرنسا شهادتها ، وتقول محكمة العدل الدولية إن هذه المناطق كانت خاضعة لبيعة السلطان ، والبيعة للسلطان هي أقوى روابط الوحدة الترابية لأية دولة في كل الفترات .

ويحاول المغررون بالجزائر أن ينكروا أو يمحوا وحدة هذا الوطن في كل الفترات التي لا أظن ولا يمكن لغيري أن يثبت أن دماء أبناء أي إقليم أريقت على وحدة وطنهم أكثر مما أريقت دماء آباء الصحراويين المغاربة وأجدادهم على وطنهم المغرب ، الذي أثبت التاريخ انتماءهم إليه سلاليا وسياسيا واجتماعيا وسيبقى الأمر كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم تَمَّتْ بعدَ هذه المعاهدات عدةُ مُراسلات ومُذكرات تنظمُ شؤون تواجد الدولتين على التراب المغربي ، لكنها كلها تثبت وحدة جميع التراب المغربي من البحر الأبيض إلى الرأس الأبيض .

وفي سابع أبريل 1906 تم انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، وقد حضرته ستة عشر دولة اعترفت كلها بضرورة بقاء السيادة المغربية ووحدة تراب الإيالة الشريفة تحت بيعة السلطان ، ثم فتحت نافذة للدول الطامعة في السيطرة على هذا الوطن تحت غطاء ضرورة الإصلاحات الإدارية المعاصرة .

هذا عرض موجز لسرد بعض المحاولات الاستعمارية للسيْطرة على السواحل المغربيَّة الصحراوية ، فكيفَ تَمَّتْ مواجهتها ، ذلك ما سنبينه بإيجاز فيما يلي :

الفرع الثاني : تصدي العرش لأي غزو استهدف الصحراء

منذ عهد السلطان المقدس مولاي إسماعيل والعرش يكافح من أجل استتباب الأمن والرفاهية لسكان المغرب وصد السيطرة الأجنبيَّة عليْهم حتى يومنا هذا ، وما زالَ سكانُ الصحراء يتناقلون خبر القواد الذين عينهم بالصحراء السلطان الجليل مولاي إسماعيل ليراقبوا أي تحرك أجنبي يتطاول على الصحراء المغربية والقيام بصده على الفور، وإذا لم يستطيعوا ذلك فليخبروا به أقرب نقطة من السلطات المخزنية إليهم ليتم دعمهم[1] ، ونفسُ الشيء كانَ في عَهْد السُّلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله الذي طهر كل الجنوب المغربية من حكم الدخلاء الأوربيين ، ثم تستمر الحملات السلطانية حتى عهد السلطان مولاي عبد الرحمان فيظهر الأمر بنوع من الاهتمام المتزايد ، حيث عين خليفة بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب . وبقي الملوك العلويون قدس الله أرواحهم يجددون تلك الثقة لجميع أبناء المنطقة المناضلين . وسأحاول أن أذكر بعض من عثر لهم على ظهائر بقيت محفوظة كان أصحابها يكلفون من طرف المخزن بصد الغزو الأجنبي ، والسهر على أمن وراحة السكان ، وإخبار المخزن بكل ما وقع في المنطقة الصحراوية .

---

1) القائد حم وسعيد الجد الأعلى لبعض السلالات من قبيلة المجاهدين الزرقيين الذين تسلسل فيهم الإخلاص للمغرب ودفاعهم عن حوزته وحملت كل فخذة منهم ظهائر علوية مجيدة .

ولعل قائمة الرسائل المبينة تباعا ، والتي وردت في شكل أجوبة أو مواجهة للمحاولات المذكورة قبل ، تعطي البرهان الساطع على استمرار نضال العرش العلوي المجيد في شأن الحفاظ على الوحدة الوطنية والوقوف في وجه كل المحاولات السالفة التي اتَّبعتْها إسبانيا متذرعةً بعدَّةِ أسباب ، فمن مُشكلة سانتا كروز ديمار بكينيا إلى الرغبة في إقامة منشآت تجارية أو مركز للصيد بوادي الذهب ، إلى ضرورة التحكم في المنافذ المطلة على الجزر الخالدات ، إلى استغلال معاهدة تطوان ، يرى الباحث في كل تلك الوثائق جملة وافرة من الرسائل والمحاضر التي تمكنه من معرفة بعد نظر أولئك الملوك المنعمين ، وتفانيهم قدس الله أرواحهم في الدفاع عن مختلف أطراف التراب الوطني ، وبالأخص أقاليمنا الصحراوية ، وهذه نماذج من تلك الوثائق :

ففي 28 أبريل 1877 وجه وزير الخارجية المغربي رسالة إلى السلطات الإسبانية يشير فيها إلى أن المكان الذي ترغب في الحُصول عليه ما زالَ تحديدُه غيرَ مُمكن ، وأنه إذا تكوَّنَ منهم وفد فسيرافق بمثله للاطلاع على الواقع في عين المكان ، مع إلحاح الرسالة على عدم استعمال المكان المذكور إن حصل عليه الاتفاق إلا في إقامة مصنع للسمك ، وعدم إمكانية استعماله من طرف غير التجار الإسبانيين ... إلى آخر ما نصت عليه تلك الرسالة التي رد عليها وزير خارجية إسبانيا برسالة مؤرخة في 22 شتنبر من نفس السنة موجهة للصدر الأعظم المغربي السيد موسى بن أحمد ، فرد عليها الصدر

الأعظم بتاريخ 30 أكتوبر 1877 بأخرى تقول إن صاحب الجلالة استدعى أعيان قبائل الصحراء وسوس للتشاور معهم في الموضوع ، وقد نتج عن ذلك التشاور إصدار أوامر سلطانية إلى قواد قبائل المنطقة على يد خليفته الشيخ ماء العينين بالامتناع عن أي نزول تقوم به إسبانيا أو غيرها من الدول على الشواطئ المغربية بالصحراء ، وتم في هذه الأثناء تعيين جماعة من القواد من الشرفاء المجاهدين أهل النخوة والكرم وحب الجهاد الرقيبات ، فتم تكليف كثير من رجالهم للوقوف في وجه المتَسلّلين الأوربيين كما صدرَ نفسُ الأمر لقواد تكنة ومنهمْ إبراهيمُ بنُ مبارك التكني الذي حددت له الرقعة الممتدة من طرفاية إلى بوجدور حسبما سنرى قريبا ، وبابا أحمد بن سيدي يوسف كامين برتبة رئيس دائرة حسب ظهير عزيزي مؤرخ في شهر شعبان عام 1319 وهما من قبيلة الإباءِ والشهامة وقوة الشكيمة مَن خصَّهم العرشُ بعدَّة ظهائر تترجمٍ مكانتهم المرموقة في الصحراء ، إنها قبيلة الزرقَيين ، كما تمَّ تعيينُ عدَّة قُوّاد من قَبيلة ءاية الحسن والمجاهدين العظماء الشجعَانَ أولاد دليم وءاية موسى وعلي الذين تسلسلت فيهم القيادة من قديم .

وفي هذه الأثناء عينت السلطات الإسبانية الوفد الذي أشرنا إليه في النقطة الأولى ، وحاولت البعثة كما أسلفت أن تتعرف على المكان المذكور ، لكنها لم تستطع بسبب عدم قبول الأعضاء المغاربة تسليم أي مكان معروف باسمه الخاص عند السكان المحليين والمرسوم بنفس الاسم على الخرائط التي كانت تحت أيديهم ، لأن التعليمات الملكية صدرت إليهم بعدم تسليم ولو حبة رمل من أراضي الصحراء المغربية .

وتجدر الإشارة إلى أنه قبل هذه الفترة كان السلطان المجد مولاي الحسن الأول قدس الله روحه والى جهوده من أجل إقناع الدولة الإسبانية ليتم تخليها عن كل الامتيازات الترابية التي منحتها لها اتفاقية تطوان المشار إليها ، كما أسلفت فقد كان رأس رمح توغل الجيش الإسباني في الربوع الصحراوية المغربية هوَ خرافةُ سانتا كروز ، ولعلَّ قائلاً يقولُ إن أمر تلك الخرافة يتعلق بأراضي إخواننا الباعمرانيين ، وأولئك قصة جهادهم ووطنيتهم معروفة ، فأجيب على هذا النوع من التساؤل إذا طرح بأن ءايةَ باعمران والصحراويين شيء واحد ، ظل التلاحم قائما بينهم وسيبقى إلى أن يرث اللّٰه الأرض ومن عليها ، وكلهم يشكلون الجبهة الأمامية للدفاع عن حقوق المغرب في مجموع التراب الصحراوي .

والمهم في الأمر هوَ أن تلك المفاوضات المضنية ما كانت تتبع بين مندوبي المخزن الشريف والسلطات الإسبانية على أساس أن سانتا كروز هي ايفني ، بل الذي تثبته الوثائق أنه لم تبق نقطة من الشاطئ ابتداء من أكادير إلى الرأس الأبيض جنوبا إلا وادعى الإسبان أنها هي سانتا كروز ، ورفض المغاربة ادغاءهم بإعطاء الاسم الحقيقي للثغر المدعى عليه ، في حين أنه لم يستطع أي من أولئك المفاوضين الإسبانيين أن يدعي بأن أي شبر من الساحل الصحراوي خارج عن سيادة السلطان ، أو هناك نزاع في مغربيته ، وهذا أكبر دليل على أن وحدة وجدت منذ مئات السنين ، ورعتها همات ملوك مخلصين عظماء لن تنال منها

أطماع الأذناب المتهورين ، فعلى أعدائنا وأذنابهم من أية جهة كانوا أن يدركوا بأن وحدة المغرب وتقرير مصيره بما فيه صحراؤه المسترجعة قد تمت قبل أن تولد الدولة التي تحرك جريمة طلب التفكك وكثير من الدويلات التي تسير في فلكها .

وزيادة على ما شاهدناه من مراسلات ومفاوضات واتصالات تمت بين العرش والدول المهتمة بالصحراء المغربية نثبت نموذجا منها زيادة في الإيضاح ، لأن العرش العلوي المفدى رغم اشتغاله بصد المد الاستعماري على الشواطئ الشمالية من المملكة والمدن الرئيسية بداخلها ، فإنه برغم ذلك ظل واقفا بحزم ويقظة وتبصر في وجه جميع المحاولات الاستعمارية المستهدفة أن تسيطر على أي شبر من الصحراء المغربية بأجمعها .

فبالإضافة إلى المشافهة مع رؤساء تلك الدول الأوربية كانت الأوامر تصدر إلى السكان المحليين من أجل مواجهة أي توغل استعماري ، ومن تلك الرسائل والأوامر ما يلي :

رسالة موجهة من السلطان المقدس مولاي الحسن للقايد بيروك سليل أسرة تسلسل فيها الحكم والفضل وخدمة الدولة ، وهو من أشهر قواد قبائل تكنة ، وهو أول من حمل ظهيرا سلطانيا في مدينة كلميم ، وظلت هذه الأسرة على ولائها وإخلاصها إلى اليوم ، ونرجو من الله أن يستمرّ ذلك السر في خلفهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تقول الرسالة الملكية : «خديمنا الأرضى الطالب لحبيب بن الشيخ مبارك الوادنوني الجلميمي ، وفقك الله ورعاك وبعد ،

فقد وصلنا كتابك ، وعرفنا ما أخبرت به من كَتْبِ قونصو الصبنيول بالصويرة لك بالقبض على الخارجين منهم من الساحل ، وكتبهم لك أيضا بأن تحت أيديهم كتاب سيدنا الوالد قدسه الله بأنه رفع يده عن ماسة وواد نون والصحراء ولا يتكلم فيها ، وأنه تركهم يفعلون مع أهلها ما يشاؤون ، وطلبت بيان ما يكون عليه عملك في ذلك ، وكف ابن الدليمي عما هو مشتغل به من قطع الطريق على الواردين من ناحيتكم للمدن ومنعهم من القدوم لها ، وإلزامه رد ما أخذه لكم . أما تسليم سيدنا الوالد رحمه الله المسلمين أحرى منهم من رعيته فلا أصل له ، ولم يكن وحاشا وكلا ومعاذ الله يصدر منه ذلك ...» إلى آخر ما تضمنته الرسالة السلطانية المؤرخة في شهر المحرم عام 1294 .

ويدرك من هذه الرسالة شيئان :

1 ـ أن الإسبان الذين أصبحوا فيما بعد يحاولون إنكار مغربية الصحراء كانوا لا يفرقون بينها وبين ماسة والاخصاص وغيرها من المناطق السوسية .

2 ـ أن أصحاب الجلالة الملوك العلويين كانوا بالمرصاد لكل تحرك أو دعاية استعمارية تتبعها الدولة الغازية لمحاولة السيطرة على الصحراء المغربية .

وهل هناك حجة أقوى من استرجاع السلطان المقدس مولاي الحسن الأول لثغر طرفاية بناء على اتفاقية عقدها مع الإنجليز يوم 10رجب عام 1308 ، والتي تعهد فيها المخزن الشريف أن يدفع للإنجليز تعويضا بمبلغ خمسين ألف إبرة عن الخسارة التي لحقتها بسبب تعرض السكان لها بميناء طرفاية، ذلك أن مجاهدي قبيلة الزرقيين ومن معهم أربكوا الخطط الاستعمارية بتلك المدينة خلال اهتمام الاستعمار بها .

وقد وقع هذه الوثيقة محمد بن محمد بن أحمد غرنيط ، ونشرت بصحراء المغرب ، السنة الأولى ، العدد الثاني ، بتاريخ 13 مارس 1957 موافق يوم الأربعاء 11 شعبان .

وفي هذه الأثناء أوفد السلطان بعثة لا يقتصر دورها على تسلُّم المرفإ المذكور من يَد المصالح الإنجليزية ، ولكنها تَتَوَغَّلُ داخل الصحراء لتتصل بخليفة السلطان وعامله هنالك الذي قض مضجع كل المستعمرين بالجنوب المغربي تنفيذا للتعليمات السلطانية الصادرة إليه .

ثم بعث برسالة أخرى موجهة إلى خليفته العالم الجليل الأمير مولاي العباس تقول : (ومن المعلوم أن أهل تلك البلاد من جملة رعيتنا وإيالتنا ، فليس لأحد منهم أن يفعل في شبر منها ما شاء ، ولا تسلمه تلك القبائل ولو أفناها القتال عن آخرهم) . تعني قبائل الصحراء وسوس .

وتستمر تلك الرسالة في وصف حالة إخلاص القبائل الصحراوية للعرش ولوطنيتهم المغربية ، وكذلك للطرق التي ينبغي على الأمير الخليفة أن يسلكها مع الإسبانيين ، ثم تختم بعدم تنازل المخزن عن أي شبر من الصحراء المغربية ، واعتماده في ذلك على إخلاص قبائلها ونبذهم لكل من أظهر تحيزا للأجانب .

الرسالة مؤرخة بيوم 11 ربيع الأول عام 1278 هجرية ، ومنشورة أيضا بجريدة صحراء المغرب ، صفحة 8 ، عدد 3 ، بتاريخ يوم الأربعاء 18 شعبان 1376 موافق 20 مارس 1957 .

ويأتي دور خليفته السلطان المرحوم مولاي عبد العزيز ، وفي هذه الفترة تتلاحق وقائع الكفاح وتبرز الوحدة الوطنية في أنصع مظاهرها ، فيكثر تعيين الولاة ، وتوفد البعثات السلطانية إلى الصحراء المغربية ، كما تعقد المؤتمرات داخل قلب صحرائنا المغربية المسترجعة لينتخب فيها السكان ممثليهم للمثول بين يدي حضرة السلطان ، ثم تنقل خليفته بالصمارة الشيخ ماء العينين كل سنة إلى العاصمة ليتزود بالمعلومات والعتاد لمواجهة المد الأجنبي وتنظيم الحملات الشعبية التي كانت قائمة على قدم وساق في تلك الربوع آنذاك ، ولدي جملة من الوثائق التي نشرت كلها قبل سنة 1960 ، نورد منها الأمثلة التالية :

وثيقة موجهة من السلطان المقدس مولاي عبد العزيز على يد خليفته في الصحراء إلى القائد إبراهيم بن مبارك الشتوكي الزرقي التكني تقول بعد السلام والدعاء له بالتوفيق ما نصه :

«وبعد ، فقد أسندنا لك وللخديم محمد بن البلال البوسعيدي الزرقي أيضا النظر في رد البال لكوشطة (سواحل) رعايانا السعيدة من طرفاية إلى رأس بوجدور ، والكون منها على بال ، فنأمرك أن تقوم معه على ساق الجد والاجتهاد في رد البال بها بحرا وبرا ، وبالاعتناء بصيانتها سرا وجهرا ، ...» إلى أن تقول تلك الرسالة :

«وتطير الإعلام لعلي جنابنا بما عسى أن يروم إحداثه بها من جانب البحر ، وإياك والتراخي في ذلك ، فإن عهدته راجعة

إليكما ، وبمثله أخبرَ الخديمُ بنُ البلال» . وما زالتْ هذه الأوامرُ محفوظة عند أبناء القائدين الزرقيين المذكورين ، ويرجع تاريخها لفاتح محرم عام 1316 هجرية .

إن هذه الأوامر التي ظلت محفوظة عند أصحابها داخل مدينة العيون طيلة الوجود الإسباني غنية عن التعليق ، وهي مع غيرها أصدق برهان يفند مزاعم الشرذمة الباغية في دول تنكرتْ لحقنا ، وسخَّرتْ لذلك مرتزقةَ البوليساريو .

وقام السلطان مولاي عبد العزيز أيضا بتحرك آخر أبعد عمقا وأكثر حيوية من مراقبة شؤون أطراف تلك الثغور عن طريق المسؤولين المحليين ، بل أكثر من ذلك تتوافد من عنده البعثات على خليفته بمدينة الصمارة ، التي ظل وجودها تحديا صارخا لأعداء وحدتنا الوطنية ، سواء كانوا معمرين أوربيين أو متسلطين مغرورين ومرتزقة ، وهكذا وجه السلطان كما أشرت سابقا بعثة مخزنية لثغر طرفاية ، وقد روعي في تلك البعثة أن تكون ممثلة لجميع جهات المملكة ، وأن يكون أعضاؤها متخصصين في مهن وأعمال مختلفة ، وقد أسندت رئاستها للأمين إدريس بن عبد الجليل خليفة باشا مدينة فاس ، وينوب عنه السيد محمد الحسن بن يعيش الذي سيتولى بعد ذلك منصب الحجابة ويبقى فيه إلى أن توفي سنة 1967 ، وقد صحبتهم حامية عسكرية من الصويرة ، وأبحروا منها يوم 22 ذي القعدة عام 1313 في اتجاه مدينة طرفاية ، وعند وصولهم إليها بعث إليهم خليفة السلطان بالصمارة وفدا يرأسه ابنه مُربيه ربُّه المعروفُ أيضاً هوَ بجهاده ، وقدْ صحبَه المحفوظُ بن

محمد جدو والشيخ الأمجد ، وبعد رحلة استعرضها الأستاذ المجاهد المؤلف الكبير معدن الفضل والنيل والشاعر الكاتب الجليل العلامة مؤرخ المملكة عبد الوهاب بن منصور في العدد 5 من جريدة صحراء المغرب الصادر يوم الأربعاء 2 رمضان 1376 موافق 3 أبريل 1956 بعد تلك الرحلة وصلوا إلى الشيخ ماء العينين الذي أبلغوه التعليمات السلطانية ، ثم سلم لهم هو بدوره ما بيده من معلومات وما يراه من اقتراحات ، وفي مدة إقامتهم عنده كانت قبائل المجاهدين الشرفاء الرقيبات وتكنة وأبناء دليم والعروسيين وأبناء أبي السباع وأبناء تيدرارين تسلم إليهم الزكوات واللوازم التي للمخزن عليهم كغيرهم من بقية سكان الأقاليم المغربية الأخرى.

وفي سنة 1906 عقد مؤتمر لجميع أبناء سكان المناطق الصحراوية لتدارس ما آل إليه أمر الوجود الأجنبي بتلك الأقاليم ، وقد انتخب المؤتمر ممثلين بلغ عددهم عدة مئات قدموا على السلطان مولاي عبد العزيز رحمه الله بمراكش حيث زودهم بالمؤن والسلاح والذخيرة الحربية لمواجهة الحالة التي أصبحت قاسية نظرا لتوالي الهجمات الإسبانية والفرنسية على الصحراء ، وقد كتب الشيخ ماء العينين للسلطان رسالة وجهها إليه بتاريخ 7 جمادى الأولى عام 1323 هجرية منشورة بالصفحة 23 من كتاب الجأش الربيط تبين الحالة التي أصبحت عليها تلك الأجزاء . وبعد هذه التحركات بسنوات قليلة اندلعت حرب تحريرية في جميع أنحاء الصحراء بأمر من جلالة السلطان المعظم مولاي عبد الحفيظ حيث وجه رسائل لجميع

خدام المخزن الشريف بمختلف أجزاء المغرب الجنوبية يحثهم فيها على التصدي لجميع المحاولات الاستعمارية ، مثل الأمر الذي وجهه للشيخ أحمد الهيبة للقيام بإعلان الجهاد المقدس في جميع أنحاء أقاليم سوس والصحراء ، ثم كاتب العرش قواد القبائل يحثهم على صد التوغل الأوربي في الأجزاء المغربية ، وهذا نموذج من ذلك الأمر السلطاني ليعلم الكل أن ما كتبته الأقلام الأوربية والضالعة في نهجها وفي نهج سياستها لا أساس له من الصحة ومن ذلك : رسالة ملكية موجهة من طرف السلطان المقدس مولاي عبد الحفيظ للقائدين المذكورين أعلاه محمد ابن البلال ، وإبراهيم بن مبارك الزرقيين تقولُ بعدَ السلام : «بلغ إلى العلم الشريف أن نصرانيا نزل بالبحر» إلى أن تقول «فعليكما أن تحذرا القبائل من البيع والشراء معه ، وترغمه إلى الرجوع إلى حال سبيله ، وتحذروهم شؤم ذلك ، وتعجلوا بدفعه من هنالك ، ونحن من وراء ما نسمعه عنكم في ذلك» ، يرجع تاريخ هذه الرسالة إلى 29 جمادى الأولى عام 1328 قبل عقد الحماية بما يناهز سنتين فقط ، هذا نموذج من رسائل بعثها السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى رعاياه بالصحراء يحثهم على عدم التنازل عن أي شبر من الصحراء المغربية لأي متسلل من الإسبان وغيرهم .

ولما عم الاستعمار على جل دُول العالم وأنهكت قوى المجاهدين وأصبحت فرنسا مسيطرة على جل أقاليم المملكة بما فيها العاصمة ، مما قطع مورد التسليح والتموين على المجاهدين الذين كان تحركهم بأمر ، كما رأينا ، من أصحاب

الجلالة الملوك العلويين رحمهم الله ، لما وقع هذا كله كان لا بد من الرضوخ ، ولو لفترة وجيزة ، للأمر الواقع الذي أصبحت تعيش عليه مختلف أقاليم المملكة كما قلت ، ولهذا ظهرت هنا أيضا في الجانب السياسي وطنية الصحراويين وتشبثهم بمغربيتهم ، إذ وقفوا في وجه الوجود الإسباني بسائر المنطقة المغربية الجنوبية إلا إذا أثبتت لهم الدولة المذكورة أن تواجدها بالصحراء داخل فيما نص عليه عقد الحماية ، وأنهم يحترمون الوحدة الوطنية ويقرون بالسلطة السلطانية على مختلف تلك الربوع ، وهذا ما سنبينه في الفقرات الآتية :

الفرع الثالث : رفض الصحراويين التعامل مع الإدارة الإسبانية إلا عن طريق خليفة السلطان بتطوان

ظل أبناء الصحراء صامدين شاهرين أسلحتهم في وجه أي متسلل استهدف الجنوب المغربي ، وتشهد على ذلك المعارك التي خاضوها في كلٍّ من الصمارة والكليب وازويل والداخلة وغيرها من المعارك الكثيرة التي شنوها على شمال موريتانيا لصد المتسللين الأوربيين عن بلاد المغرب ، وهي معارك ضارية خاضوها ضد قوات المد الفرنسي بقيادة الكومندان موريس والقبطان كيرار في الصمارة ، وعلى غيرهما من الضباط الذين انتدبتهم فرنسا لبسط نفوذها على كل الجنوب المغربي .

وقد واجههم في تلك المعارك العالم الجليل الشيخ محمد الأغظف وأبطال قبائل الرقيبات ، ووقعت كما قلت في منبع الساقية الحمراء على يد أبطال الرقيبات الذين لا ينسى دورهم

أمس في النضال من أجل مغربيتهم والحفاظ عليها وتصديهم القوي لكل من رام أن يمس الوحدة المغربية ، وكذلك هجمات قبيلة الزرقيين على الجيش الإسباني بمدينة طرفاية سنة 1933، ونفس الشيء يقال عن المعارك الضارية والكثيرة التي قادها العالم الشيخ حسنا بن الشيخ ماء العينين دفين مدينة فاس وأخوه المجاهد العالم الشيخ الولي بمناطق أدرار ، تدعمهم قبائل أبناء دليم والرقيبات وتكنة والعروسيون وأبناء أبي السباع ، وكذلك هجمات أحمد بن حمادي الرقيبي وإسماعيل ابن الباردي وأبناء عمومته على كل النقاط المتقدمة من جيش الاحتلال الإسباني والفرنسي والمعارك التي قادها وجاهة وأخوه محمد المامون ومامينا بن سداتي والشيخ محمد المامون بن الشيخ محمد فاضل ابن محمد ، وغيرهم من أبناء جميع قبائل الصحراء كلها ، وغيرها من البطولات التي أبانت عنها جميع قبائل المنطقة ابتداء من ءاية باعمران شمالا إلى أبناء دليم جنوبا ، فهي تعطي الدليل الواضح والبرهان الساطع على تشبث جميع أبناء هذا الوطن بمغربيتهم واعتزازهم بالموت في سبيلها ، وها هو التاريخ يعيد نفسه اليوم فشهد فصلا رائعا من فصول كفاح الملك والشعب من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية واسترجاعها .

لم يقتصر عمل الصحراويين على المواجهات العسكرية ، بل إنهم ساروا على مخطط عملهم المخلص الذي رأينا جانبا منه فيما سلف لما أدركوا أن الجيوش الأجنبية توغلت في جميع التراب الوطني ، حينئذ اجتمع الكل وقرروا أنه لا يمكن التعاون

مع الاستعمار ، ولا ترك أي من الفرنسيين والإسبانيين أن يستقر أي منهما بالصحراء بفضل كفاح الشرفاء الرقيبات والزرقيين وأولاد دليم مرورا بقبائل ءاية الحسن وءاية وسة وءاية موسى وعلي والزوافيط ، ويگوت والمجاهدين العروسيين وأبناء تيدرارين ، وبتعبير أشمل كل قبائل الزوايا والعرب بما فيهم تكنة والشرفاء وكل المجتمع الصحراوي إلا عن طريق اعترافهم بشمولية ما نص عليه عقد الحماية للمناطق الصحراوية كما أسلفت ، والتي كانت حاضرتها آنذاك مدينة طرفاية التي تعرفنا على قصَّةِ استرجاعِها من الإنجليز أعلاه ، ومدينة الصمارة التي بناها زعيم مغربي ليجعل منها قاعدة انطلاق فصائل المجاهدين المغاربة لمختلف الجهات ، ولتكون أيضا مقرا يأوي إليه مسؤولو المخزن من مختلف القبائل ليزودهم خليفة السلطان بآخر التعليمات السلطانية التي توصل بها من ملك البلاد .

وإذا لم يتسع هذا التلخيص لسرد كل القبائل بأسمائها فيجب أن يعرف بصدَق أن جميع أبناء الجنوب المغربي وبالأخصِّ الصحراء وءاية باعمران قد أبلَوْا البلاءَ الحَسَنَ في هذا الجهاد وفي تلك الفترة التي كانت المنطقة لا يوجد فيها من المراكز الحضرية سوى تَيْنِك المدينتين ، وإثباتاً من الصحراويين لواقعهم التاريخي ، وجوابا منهم عما سبق أن ادعته إسبانيا كذبا بأن المخزن سلم في وقت سابق ما هو كائن جنوب ماسة ، وقد بينا رد المخزن على ذلك في النقطة الأولى من هذا العرض، مما كون مؤشرا مبكرا نبه المغاربة ، مواليد أقاليم الصحراء

على سوء نية المتسللين الإسبانيين ، فأصبحوا يتلافون ما يمكن أن تتخذ منه إسبانيا حجة أو مبررا يدعم وجودها بدون إرادة المخزن ، أو بدون إخضاع مناطقهم لغير ما تخضع له بقية أقاليم المملكة الشمالية التي أصبحت آنذاك في قبضة إدارة الحماية الإسبانية ، وهكذا اشترطوا سنة 1934 على الحكام العسكريين الإسبانيين أنه لا يمكنهم التعامل معهم إلا إذا أتوهم بحجج مكتوبة تثبت ما يدعيه الإسبان من أن تلك المناطق أصبحت خاضعة بحكم عقد الحماية للإدارة الإسبانية، ولما لم يجد الإسبان بدا من الاستجابة للسكان اضطروا إلى الإتيان بظهائر تثبت إما استمرار ثقة المخزن في بعض ولاته بالمنطقة ، وإما تعيينات جديدة ، فشمل الأمر عددا من أبناء الإقليم نذكر منهم على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر :

1 ـ الشيخ محمد الأغظف بن الشيخ ماء العينين نائبا لخليفة السلطان بالصحراء ، وهو ابن مدينة الصمارة ، وسبق أن قاد معارك طاحنة ضد الاستعماريين ، ومن أبرز العلماء الصالحين والمجاهدين المخلصين والقواد الماهرين والسياسيين المحنكين ، أدار الأمور بحكمة فائقة حتى سلمها لجلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه .

2 ـ ومن القواد عين جمع غفير من المجاهدين الأولياء الأتقياء الرقيبات نذكر منهم :

ـ سعيد بن الجماني على الرقيبات ، وخلفه بعده ابنه الوطني الغيور السيد خَطْرِي على البيهات .

ـ والمجاهد أحمد بن حماد على السواعد ، وحْنيني ابن اللود على فرقة من البيهات ، واليوشع بن البصير على المؤذنين، وسيدي أحمد ابن الصالح على الجنحة ، والناجم بن الركيبي على أبناءِ الشيخ ، ومُحمد عبد الرحمان ابن الدخيل على التهالات ، إضافةً إلى شيوخ مُتَعددين في أولاد موسى وغيرهم من بقية مختلف جذوع أولائك الشرفاء الأماجد .

ـ القائد إبراهيم بن عبد الله بن سيدي يوسف بن أحمد ، تسلسلت فيهم القيادة العامة لقبيلة المجاهدين الزرقيين تكنة ءاية الجمل ، والسالك بن علوات على فرقة ءاية سعيد من نفس تلك القبيلة .

ـ البن ابن حْمين على قبيلة أبناء دليم ، القبيلة التي برهنت على عروبتها وجهادها وإخلاصها بما يجعلها محل تقدير واحترام عند جميع المؤرخين .

ـ السالك بن عبد الله على الشرفاء تبالت .

ـ أحمد بن حيدار من الزرقيين ، عين باشا مدينة طرفاية ، من أشهر رجال الزرقيين وأكثرهم حنكة سياسية .

ـ محمد بن عبد الله على أبناء تيدرارين ، قبيلة الأنصار المومنين المخلصين المسالمين .

ـ محمد بن سيدي إبراهيم على العروسيين الشرفاء ، الأقوياء الشكيمة الشجعان الأشداء على كل كافر أو ظالم .

- صالح بن أحمد بن بيروك ، أحد أعيان أسرة المجد الأثيل والحكم المتوارث ءال بيروك .

- سيدي محمد بن السيد على فلاله أهل العلم والصلاح .

- ومبارك العربي على يگوت المقاتلين المحترفين ، من لا تصدهم صعوبة عن بلوغ الهدف . والعبد ابن الناجم على قبيلة ءاية الحسن التي أسندت قيادات متعددة لبعض أبنائها في منطقة درعة ، فهم أهل النظام والجهاد ، وعين الحافظ بن الشيهب على الفيگات ، والسالك بن محمد بن مبارك على مجاط ، وغيرهم كثيرون من مختلف القبائل ، وقد أبلى ءاية بلة كلُّهم البلاءَ الحَسَنَ في المشاركة الفعالة في الجهاد ، وكلما توطدت قدم الاستعمار الإسباني في الجنوب المغربي أظهرَ النيات التي عَرفْنا عنهُ قبل ، والتي تعتمد دائما على اتفاقات سرية وقعها مع صنوه الفرنسي ، وهي اتفاقيات لا تلزم المغرب في شيء ، لأنها وقعت في غيبة منه ، ودون تفويض لأحد أن يعقدها باسمه ، وعدم موافقته عليها في جميع مراحل تلك الحقبة المظلمة من تاريخنا المليئ بالأمجاد والمفاخر يثبت عدم صحتها ، وبقاء السيادة المغربية لصيقة بكل شبر من تراب المملكة الشريفة .

ثم قامت إسبانيا بعدة إجراءات هادفة إلى إيجاد بعض الفوارق بين مناطق الصحراء حتى يتسنى لها التحايل على ما نص عليه عقد الحماية الذي سلم المنطقة الجنوبية للإدارة

الإسبانية ، وهكذا عمدت إلى تقسيم الأقاليم الصحراوية إلى مناطق نفوذ كل واحدة تستخدم لغايات استعمارية معينة وبعد عدة إجراءات متعثرة في معرفة كنه ما يختلج في أعماق الصحراويين من إخلاص ، أطلقت على المنطقة الجنوبية بعد سنة 1951 ، أي بعد زيارة رئيس الدولة الإسبانية للصحراء وخطابه الذي لم يستطع إلا أن يعترف فيه بالجميل للمغاربة على ما قدموه لإسبانيا من إعانات أثناء حروبها الأهلية ، ولو لم يكن فرانكو الذي سيصبح فيما بعد أشد تعنتا في قضية فصل الصحراء عن وطنها المغرب ، لو لم يكن مقتنعا بمغربية الصحراء وبإخلاص سكانها لمغربيتهم لما تزلف لعواطفهم بذكر جميل آبائهم المغاربة في الشمال والجنوب ، والحقيقة أن ذلك ليس سوى وسيلة ماكرة أراد بها تغطية ما أعدته حكومته آنذاك من تخطيطات لابتلاع ما أمكن ابتلاعه من الأراضي المغربية .

وهكذا قسموا المنطقة الجنوبية إلى :

1) إيالة إيفني
2) المنطقة الجنوبية
3) المنطقة الوسطى
4) المنطقة الشمالية .

والكلُّ جعلوه تحتَ سلطة مَنْ أسمَوْه بالوالي العام لإفريقيا الغربية الإسبانية ، وفي هذه السنة أزالوا العلم المغربي الذي كان يرفع يوميا على دار النيابة بطرفاية . ولم تتم عملية التقسيم هذه فجأة ، بل مهدت لها عدة مراحل تحاشينا ذكرها

رغبة في الاختصار . ولقطع دابر ما ينطوي عليه هذا الإجراء من خدائع لم تنطل أبعادها على رؤساء القبائل ونائب خليفة السلطان ، فقد اتفقوا جميعا بتوجيه من نائب الخليفة على أن ينقلوا جميعهم مراكز عملهم من طرفاية إلى العيون ، ورغم أن الحكام الإسبانيين كانوا لا يستطيعون مجاهرة السكان بما تنطوي عليه عملية التقسيم تلك ، فإنهم مع ذلك حاولوا عبثا عرقلة تنفيذ قرار نقل مراكز العمل من طرفاية إلى العيون ، لكن إجماع مسؤولي القبائل وجرأة نائب الخليفة قطعت عليهم الطريق وأربكت خطتهم ، وتم تمركز قواد المخزن بجنب نائب خليفة السلطان داخل مدينة العيون ، حيث أصبحت المسؤوليات تباشر باسم خليفة السلطان الأمير الجليل المرحوم مولاي الحسن بن المهدي الذي لم تنقطعْ توجيهاتُه واتصالاتُه بالصحراويين إلا بعد إعلان استرجاع المنطقة الخليفية إلى حظيرة الوطن بعد الإعلان المشترك ، وهكذا أيضا تجلى مظهر آخر من مظاهر استمرار الوحدة وعجز السلطات الإسبانية الاستعمارية أمام إرادة السكان التي حالت دون أي إجراء ينال ولو بطريقة غير مباشرة من صيانة الوحدة الوطنية ، ويجدر بنا هنا الرجوع إلى الوراء لنقول إن العواطف الوطنية في هذه الفترة كانت متأججة ، والمعنويات عالية ، والاستعدادات كاملة لئلا يتأخر الصحراويون عن أية مبادرة شعبية يقوم بها أي إقليم من أقاليم المملكة الشريفة ، بعد أن دوى إعلان ساعة خلاص الوطن بأسره ، وكل القارة الإفريقية اقتفاء به ، وذلك

عند ما دوى خطاب النصر ، وكسر الطوق الحديدي الذي ضربه المستعمر منذ عشرات السنين على مختلف أقاليم المملكة مستعملا جميع وسائل الضغط والتخويف عله يصل إلى قتل الحافز الوطني في هذا الشعب الذي استطاع أن يكون آخر شعب يسيطر عليه الاستعمار ، وها هو يتحفز ليكون من أول شعوب القارة السمراء يحصل على استقلاله . ولكن إذا كان شعب من الشعوب يتوفر على إرادات خلاقة ، وشجاعات نادرة، وقيادة مخلصة وحكيمة ، تجمع القائد والشعب فيها وشائج الحب العميق المتبادل والثقة المتينة والوطنية الصادقة ، فإنه عندئذ يسهل على القائد أن يتخذ القرار الحاسم الخطير في الوقت المناسب ، كما يسهل على الشعب أيضا أن يقدم الأرواح لتنفيذ قرار قائده ، لأن كل طرف يدرك أبعاد ما يرمي إليه الطرف الآخر من خدمة لصالحه وتضحية في سبيل أمنه وعزته وكرامته . ومن هذا المنطق الذي تعجز الكلمات عن تجسيد معانيه اتخذ جلالة الملك العظيم المغفور له محمد الخامس قراره الحاسم بزيارة مدينة طنجة ، وتوجيه خطابه الذي هو بحق الوثيقة الحية والميثاق الأمثل المبلور لاستقلال المغرب ووحدة أراضيه .

إن إضافة كلمات هذا الخطاب للمعاني والرموز التي استعملها في خطاب اعتلائه على العرش ليشكلان أثمن وثيقة تترجم تشبث العرش العلوي بجميع الوحدة المغربية بحكمة وشجاعة .

ولا أنسى كما لا ينسى غيري من أبناء الصحراء على مُختَلِف طبقاتهم وتفاوُتِ أعمارهم ما غمرَ أفئدتَهم ليلةَ يوم 9 أبريل مَن سنة 1947 بعدَ سماعهم للخُطاب المولوي ، فهذه اللحظات هي المهدة لمواجهة خدائع الاستعمار الإسباني ومحاولاته لتجزئة الإقليم استعدادا لفصل ما أمكن فصله منه .

وفي سنة 1953 عند ما امتدت أيدي المستعمر الفرنسي لترتكب أشنع جريمة سجلت في تاريخ الاستعمار ، ولكنها في نفس الوقت تثبت أعظم تضحية قدمها ملك وعائلته في مختلف عصور التاريخ لوطنه ، في هذه السنة أصبحت الأقنعة تزال شيئا فشيئا ، ذلك أن الحكام العسكريين الإسبانيين بالصحراء المغربية أصبحوا يلوحون بعبارات ملكية إسبانيا لجميع المناطق الصحراوية ، كما أصبح السكان يجاهرون بأنه لا يمكنهم عمل أي شيء بدون أوامر الملك الشرعي للبلاد جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، وفي نفس السنة أعلن الجميع الحداد وامتنعوا من ذبح الأضاحي ، وأمر نائب خليفة السلطان الكل بقصر الصلاة ، لأن الجميع أصبح في حالة جهاد لأن الكفار فتنوا المومنين المغاربة باعتدائهم على أقدس مقدساتهم .

وفي سنة 1954 حاولت إسبانيا أن تدخل السكان في المجموعة الإسبانية بعد أن لم تنطل عليهم حيلة التوزيع الجغرافي ، وذلك بطلب الجميع الحصول على أوراق التعريف والحالة المدنية ، مستغلين ما كان يقوم به الوطنيون في الداخل

من حملة لصالح حصول الجميع على الحالة المدنية وأوراق التعريف . إلا أن الفرق شاسع لأن الأوراق التي هيأتها السلطات الإسبانية تجعل من حامل تلك البطائق مواطنا إسبانيا . وللرد على هذا الإجراء امتنع جميع رؤساء القبائل وقوادهم ونائب الخليفة من أن يأخذ ولو فرد واحد تلك البطائق.
ولا ينسى التاريخ الوطني تلك التظاهرات والاجتماعات السرية والعلنية التي قام بها جميع شيوخ القبائل بدون استثناء برفضهم لتلك الأوراق ، ولم يبخل حكام الاستعمار في تهديد نائب الخليفة ، وصحبته قواد المخزن ، وهم : خطري بن الجماني الذي عرف بتصلبه وصرامة مواقفه مع الاستعمار الإسباني إلى أن توج نضاله بموقفه المشهور أيام المسيرة الخضراء ، ذلك الموقف الذي دخل منه التاريخ من بابه الواسع كأحد أعلام هذه الأمة الذي جعل مصلحة الوطن فوق كل اعتبار، ونفس الموقف من تلك الأوراق وقفه القائد إبراهيم بن عبد الله ، والقائد محمد بن عبد الله ، ومحمد فاضل بن الخطاط العروسي، وأبناءُ مبارك العربي ومُحمد بن سيدي ابراهيم وجميع قواد أبناء دليم وءاية الحسن وفلالة وتبالت وكل رؤساء الزّوايا والعرب وتجار ءاية باعمران وغيرهم من بقية مسؤولي قبائل المنطقة . وانتدبت إسبانيا الضابط المسمى الونصو ميانو خلال شهر يونيو من نفس السنة ليقوم بجولة داخل الأحياء المتناثرة في قلب الصحراء محاولا أن يسلم تلك الأوراق إلى السكان ، لكن الجواب كان واحدا ، ألا وهو أن تلك الأراضي أرض جلالة الملك المنفي محمد الخامس طيب الله

ثراه، وأنه ما دامت الأوراق قد أتت بدون إذنه فإنه لا يمكنهم أن يتسلموها، وبعد أن فشلت خطة أوراق التعريف أصبحت تلوح في الأفق فكرةٌ أكثرُ غموضاً لسَتْر النيات الحقيقية للسلطات الإسبانية ، تلك هي مرحلة طلب الحكام العسكريين الإسبانيين من السكان أن يؤدوا «الترتيب» (العشر على الكسب والممتلكات) ، ولكن في هذه الأثناء أصبح العمل السياسي أكثر تنظيما في الصحراء ، ذلك أن جميع المدن وجميع القرى والأحياء الصحراوية انتشرت فيها مكاتب حزب الاستقلال ، وتكوَّنَتْ خلايا سريةٌ للمقاومة ، وتوطدت الصلاتُ بينَ الوطنيين في شمال المملكة وجنوبها عن طريق الطلبة الذين سبق أن درسوا هنالك مثل المرحومين الزعيم العبادلة والأمير عيدة ، وقد لعب الأول أحسن الأدوار في بلورة وقيادة الفكرة الوطنية بالمناطق الصحراوية ، ثم كذلك عن طريق رحلات تسمح بها إسبانيا تحت غطاء العمل التجاري مع أن أصحابها كانوا وسطاء أمناء مخلصين استطاعوا أن يوثقوا روابط الصلة بين الوطنيين في الشمال والجنوب نذكر منهم على سبيل المثال المرحوم علي بوعيدة . هذه الفترة الممتدة ما بين سنة 1954 و1956 ألحت إسبانيا على طلب الجبايات من المواطنين ، وكان امتناعهم شديدا ومواقفهم صارمة ، وكانت قيادة هذا الموقف أيضا هي نفسها التي ذكرت أعلاه ، وأتذكر جيدا ، وما بالعهد من قدم ، أن الجميع كان ينطق بكلمة واحدة : إن ما تحت أيدينا من أموال هوَ ونحن ملك لجلالة محمد الخامس ، ولا نستطيع نحن ولا غيرنا أن نفعل فيه أي شيء إلا بأمره ، فهذه

العبارات التي نقلتها هنا بأمانة يشهد الله أنها كانت هي جواب الجميع ، لا فرق في ذلك بين الضعيف أو القوي ، ولا بين البدوي أو المدني . وقد أتاحت عمليات قهر الجيش الإسباني لمختلف السكان باستقدامهم إلى المدن للمشافهة مع الحكام العسكريين مزيدا من تبادل الآراء وتوحيد الصفوف الوطنية وإعلان الهوية الوطنية بكل تحد لحكام الاستعمار ، واستمر الوضع في المنطقة يزداد تدهورا ، السلطات الإسبانية تحاول استغلال مواقفها في الشمال مع المقاومة ، وبعض المنفيين الذين قدموا للمناطق الصحراوية والذين جعلتهم في إقامة شبه جبرية ، بالإضافة إلى انشغال الأمة في المطلب الأول الذي تركز على رجوع جلالة الملك وولي عهده الجليل والأسرة الكريمة إلى الوطن ، حاولت إسبانيا استغلال تلك الظروف علها تحصل على إجراء يجعل السكان أمام الأمر الواقع عند ما يتم رجوع الأسرة الملكية واستقلال البلاد ، لكن السكان الذين تعرفوا على عمق الأهداف الإسبانية البعيدة الرامية إلى فصل مناطق الصحراء عن الوطن الأب كانوا دائما بالمرصاد لكل إجراء أو محاولة يقدم عليها أحد الضباط الاستعماريين المقيمين بالمناطق المغربية الجنوبية ، ورغم أن إسبانيا كانت تسلك مسلكا احتياليا تظهر بواسطته مساندتها للمقاومة المغربية انطلاقا من تسليمها بالحق المغربي ، لكنها في نفس الوقت تريد أن تحمي نفسها من لهيب ألسنة سلاح المقاومة الذي تشاهده يلتهم كل المصالح الفرنسية، وتدرك جيدا أنها غير قادرة على مواجهة تماثل مواجهة الجيش الفرنسي الموجود في ظروف أحسن بكثير مما

عليه الحال بالنسبة للجيش الإسباني . هذه في نظري هي أهم العوامل الدافعة لإسبانيا آنذاك لتعلن ولو تأييدا رمزيا لا ينسى لها للمقاومة الوطنية داخل المنطقة الشمالية ، وهناك عنصر آخر كان له دوره الفعال في الضغط على الحكام الإسبانيين ألا وهو وطنية ومرونة خليفة السلطان سمو الأمير مولاي الحسن بن المهدي رحمه الله ، هذه العوامل حاولت إسبانيا طيلة سنوات المقاومة استغلالها لتهدئة الشعور المتأجج لدى قبائل الصحراء ، أمام أية محاولة أقدمت عليها لتغيير الطابع السياسي لإحدى المناطق الثلاث المشار إليها أعلاه .

لكن نشاط العمل السياسي والثقافي تصدى لتلك المحاولات ، ولتوضيح مختلف الوشائج التاريخية والسلالية والإدارية التي توحد بين جنوب المغرب وشماله ألف العالم الجليل والشاعر الكبير الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين كتابه «الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط» ليثبت مغربية الصحراء تاريخيا ، إضافة إلى العمل السياسي الذي نفذ على الساحة عبر العصور .

الفرع الرابع : اندماج الصحراء في الوطن سنة 1956

وبقي ذلك التوتر المنبئ باصطدام بين المغاربة الصحراويين وبين الحكام الإسبانيين إلى أن من الله على الأمة برجوع ملكها الشرعي وتم استقلال البلاد ، فحينئذ كان الوضع يقترب من المعركة الفاصلة ، إما أن يظهر السكان ما يتطلبه ظرفهم من أفراح ترفع خلالها الأعلام المغربية وتنظم المهرجانات وتلقى

الخطب والقصائد ، وبهذا تدخل الصحراء في الوضع الذي عم الشعب المغربي كله ، وتخرج الأمور من أيدي السلطات الاستعمارية في تهيئة الجو السياسي الملائم لمواجهة أي تعنت تبديه سلطات الاستعمار الحاكم بالمنطقة المغربية ، هذا الجو الوطني البالغ أوج استعداده على مرأى ومسمع من العسكريين الإسبانيين جعلهم يضعون ألف حساب لأي إجراء من شأنه أن يُظهرَ للسكان نياتِهم الهادفةَ إلى المماطلةِ في تَسْليم المنطقةِ فور إعلان استقلال الوطن والعمل على محاولة فصلها فيما بعد.

وكما هيَ عادتُهم استخدَمَ الإسبانيُّون أسلوبَ المراوغات الذي لا يظهر دهاء الاستعمار الإسباني إلا في استخدامه ، وبعد عدة مواجهات سياسية سمح السكان بإظهار الأفراح مع التريث حتى يعرف مصير المنطقة الشمالية ، ورغم أن هذا الوعد ، لم يكتب في وثائق يتمسك بها الطرفان ، فإن الاتفاق حصل عليه شفويا ، واعتبره الوطنيون مكسبا لأنهم واصلون عن طريقه لهدفهم ليقينهم بقرب تسليم المنطقة الخليفية بسرعة إلى جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه .

وعقدت الاجتماعات ، ورفعت الأعلام المغربية ، ثم بعث الرسل لجميع الأحياء المتنقلة في البوادي للتوافد على المراكز الحضرية ، وما أن حان يوم 7 أبريل حتى كان الجميع في أهبة ما عرفت لها الصحراء مثيلا ، وإنها للحظات خالدة تلك التي كانَ المواطنونَ مُحْتشدين فيها عندَ مُخَيَّم المجاهد المرحوم محمد فاضل بن أبهي في المكان المعروف ءانذاك بأم السعد مكان حي الرمال بالعيون الآن ، والكل مشدود إلى المذياع

للاستماع إلى التصريح المشترك ، وأذكر أنها ليلة بات الجميع في فرح وغليان لم يسبق لهما مثيل ، فرح من أن السلطات الإسبانية جعل حد لوجودها بالمغرب عامة ، وغليان استعدادا لما يمكن أن يحدثه تلكؤ الحكام الإسبانيين إذا مانعوا في إقامة احتفالات شعبية شاملة ، فالمواطنون مصممون على إقامة ما توصلهم إليه طاقتهم من فرح واحتفالات ، ورغم تعصب الحكام العسكريين الإسبانيين فإن نائب الخليفة المجاهد الولي العالم السياسي المحنك الشيخ محمد الأغظف أصر لهم على أنه لا بد من إقامة الحفلات ورفع العلم المغربي وإعطاء المناسبة ما تَسْتَحقُّه منْ عناية ، وما زالَ الجميعُ يَروي ما واجهَ به حاكمَ المنطقة (الكولونيل موليرو) ، فقد قال نائب الخليفة بالحرف الواحد : «بالأمس القريب كتب لكم أن تتغلبوا وتحكموا علينا ، ورضينا بحكم الله ، واليوم أراد الله أن ينصر الإسلام برجوع ملك المسلمين جلالة محمد الخامس وولي عهده ، ومَنَّ علينا بحريتنا وكرامتنا ، فما عليكم إلا أن تسلموا بالواقع ، فقد يقال : يوم لنا ويوم علينا ، ويقول المثل المغربي : يوم لك وغدا لصاحبك ، فإذن لم يبق أمامكم إلا أن تقدموا التحية للعلم المغربي يرفرف على أرض المغرب» ، هكذا كان كلامه له بالحرف ، ثم خرج من عندهم وقال إن المسلمين سيجتمعون بأسرهم في (خط أم السعد) للاحتفال باستقلال بلادهم ، فإذا كان بإمكان إسبانيا إبادتهم بجيوشها المرابطة هنا فلتفعل . وكان المترجم لهذه المواجهة هو الوطني الغَيور من أبلى البلاء الحسنَ في الدفاع عن الوحدة الوطنية الزروالي بريكة بن أحمد الحسن الزرقي الذي بَذلَ كلَّ غالٍ ونفيس في سَبيل خِدمةِ الوحدة الوطنية .

وفعلا تمت الحفلات ، واستغل الاجتماع ليتخذ قرار أكثر خطورة وأبعد نظرا ، فضرب موعد 15 أبريل 1956 تاريخا لعقد مؤتمر عام عند حي نائب الخليفة بأم أشكاگ ، وتم فعلا ذلك المؤتمر الذي حضره أزيد من ألف مواطن ، واستمر ثمانية أيام ، وقد تولى العالم العامل المجاهد الغيور الذي كرس عمره لخدمة الدين والوطن والعرش الشيخ محمد الأغظف بن الشيخ ماء العينين نائب الخليفة جميع تكاليفه ، ثم انتخب المؤتمرون ثمانية وثلاثين فردا لتقديم الولاء والإخلاص باسم الجميع لجلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، ولرفع مقررات المؤتمر للدوائر الرسمية بالرباط ، ثم ناب عن الشيخ محمد الأغظف إبناه : المرحوم الزعيم العبقري الملهم الأستاذ العبادلة ، وأخوه الشيخ ماء العينين لارباس أحد علماء الصحراء الأفذاذ من عرف بمواقفه الشجاعة وتضحياته الجسام ، وقد حكم عليه الاستعمار بالإعدام مع جماعة من الوطنيين سيأتي ذكرهم ، والمرحوم أبو بكر بن الشيخ مُربيه ربُّهْ وهوَ من العلماء الشعراء، والمرحوم محمد ماء العينين بن الشيخ أحمد الهيبة العالم الشاعر الذي سبق أن قدم الولاء لمحمد الخامس سنة 1946 معلنا للعالم بيعة والده الشيخ أحمد الهيبة للعرش العلوي المجيد .

ومن قادة الوفد : القايد إبراهيم بن عبد اللّه المتقدم ذكره، وخليفتُه حسنا بن الدويهي رئيسُ فرع حزب الاستقلال بالعيون آنذاك وقد كان من ألدِّ أعداء الاستعمار ومن أكثر الوطنيين

جرأة ومن أعظمهم تمسكا بمقدسات وطنه ، ومحمد الشيخ بن علي بيبة ، وجماعة من أبناء عمومتهم ، ثم مثل الشرفاء الرقيبات المرحومُ محمدُ عبد الرحمان الدخيل وهوَ من جماعة جيش التحرير التي زجت بها إسبانيا في سجن الجزر الخالدات ، وقد عرفت أسرته كلها بالوطنية والتفاني في حب العرش وخوض المعارك المشرفة جهادا في سبيل الله وتمسكا بوحدة المغرب .

وقاد أبناء تيدرارين القائد المرحوم محمد بن عبد اللّٰه ومعه جماعة كبيرة من أبناء عمومته ، ومن أعيان فلالة العالم محمد عبد اللّٰه بن عبد الباقي ، ومن الشرفاء العروسيين الولي بن بيت ، ومن ءاية الحسن المرحوم محمدُ بنُ إبراهيم ، وجماعةٌ من أبناء الصحراء ، وقد انضم إلينا في الطريق أحد أبناء مبارك العربي من يگوت ، كما انضمتْ إلينا لما وصلنا گلميم جماعةٌ من ءاية باعمران وجلُّ تجار مدينة العيون وعلي بوعيدة وكثير من أعيان القبائل ، حتى مثلنا بين يدي السلطان المقدس ونحن أكثر من مئتين ، ورغم مخاوف الطريق فقد سافرنا ، حيث كان لي شرف التعيين ضمن الوفد كأصغر أعضائه سنا ، سافرنا ليلا من مكان المؤتمر ، وبعد رحلة شاقة نظرا لما يعتور طريقنا من مخاطر حتى وصلنا لمدينة الدار البيضاء يوم فاتح شهر مايو 1956 ، وشاركنا باسم الصحراء المغربية في أول عيد للشغل يقام بعد استقلال البلاد ، وبعد يومين حظينا باستقبال صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه ، وكان ذلك ما بين يومي 24 و25 من شهر رمضان المعظم

الموافق ليوم 3 مايو سنة 1956، وما زلتُ أتذكرُ ما منَّ علينا به جلالته رحمه الله من عطف وحنان ، وتأثر لما قاسينا من عناء السفر واقتحام الحواجز ، وطمأننا رحمه الله بأن كل الصحراء هي أحب أجزاء الوطن إلى قلبه ، وأنه ، تتابعت عليه الرحمات ، لن يهدأ له بال ولن يستقر له قرار حتى يعم جميع الأجزاء المغربية الجنوبية ما عم باقي إخوانهم في شمال المملكة ؛ وقد اجتمعنا بجل المسؤولين وعلى رأسهم المرحوم البكاي رئيس الحكومة آنذاك ، ومن كلماته رحمه اللّه أن شجرة الحرية لا تنبت إلا إذا سقيت بدماء الأبطال ، وقد نظم مع الجميع خطة العمل التي يتطلبها الموقف .

وبعد رجوعنا استسلمت إسبانيا للأمر الواقع ، وانحصر دورها في الحفاظ على الأمن ، وأصبحت مكاتب حزب الاستقلال هي التي تسير الأمور داخل جميع الصحراء من الكويرة إلى طنطان وفي سنة 1957 تكونتْ الطلائعُ الأولى لجيْش التحرير ، ولم تستطعْ إسبانيا أن تحدَّ من حريته داخلَ المدن ولا خارجَها ، وفي نفس السنة حصلَ لي أنا والليلي مُحمد سالم شرف جمع كل من بلغ سن الدراسة من أبناء المنطقة ، والقدوم بهم على المدارس الابتدائية بالوطن المحرر ، بعد أن سافر قبلنا المرحوم العبادلة لينظم عملية تسجيلهم وتوزيعهم مع سلطات التعليم ، وقبل ذلك كنا كونا مدارس محمد الخامس الحرة بكل مدن وقرى المملكة في الصحراء ، وكانت تقبل التلاميذ بالمجان ، وتلقن نفس البرامج المقررة بوزارة التعليم ، ولم تستطع إسبانيا ـ أما الجزائر فلم تكن آنذاك موجودة

كحكومة تمارس سيادتها - لم تستطع إسبانيا أن تعارض دخول جيش التحرير للمدن وتسيير شؤون الأهالي واستقدام التلاميذ إلى المدارس المغربية ، ثم تكوين مدارس وطنية أسندت مهمة تفتيشها للمرحوم العبادلة بقرار وقع عليه وزير التعليم آنذاك المرحومُ عبدُ الكريم ابنُ جلون ، وكنتُ مديراً لفرعها بمدينة طرفاية ، وفي أواخر سنةِ 1957 اندلعتْ ثورةُ جيش التحرير الذي انسحب إليه كل المنخرطين في الجيش الإسباني من أبناء الصحراء المغربية على مختلف رتبهم وبأسلحتهم ، ولم تبق قبيلة ولا أسرة إلا وحمل أبناؤها فيه السلاح ، واستشهد منهم أبناء أعزاء سقطوا في ميدان الشرف دفاعا عن مغربيتهم، كما أباد الطيران الإسباني والفرنسي بعض الأحياء عن آخرها مثل حي الشيخ الولي ، فاستشهد خليفته العالم الشاعر ابنه سداتي وأخوه القطب وعدد من النساء والأطفال بسبب ضرب الطيران الفرنسي والإسباني لحي الشيخ الولي لأنه كان يشكل مركزا لإيواء أفراد جيش التحرير ، أفلا يكون هذا أكبر دليل يثبت للدنيا بأسرها أن مصير تلك الأجزاء قرر قبل أن توجد جل الدويلات التي تعارض في حقوقنا اليوم ؟

وفي نفس السنة أيضا تم إلقاء القبض على عشرات المناضلين من أبناء الصحراء ، وشاءت الأقدار أيضا أن تقدم لنا بهم الحجة على استمرار مغربية تلك الأراضي ، إذ لم تبق قبيلة إلا وسجن أحد من أعيانها بسجن الجزر الخالدات ، نذكر منهم من الرقيبات محمدَ عبد الرحمن بن الدخيل ، وعبدَ المعطي بن محمد بن بْريكة ، ومن بينهم الوطني الغيور والمثقف من اتسم بالحكمة والجرأة أميرُ ءادرار وابنُ أمرائه المرحوم أحمد

ابن سيد احمد بن عيدة . ومن أهل الشيخ ماء العينين لارباس ابن الشيخ محمد الأغظف ، والمرحوم سداتي بن الشيخ أحمد الهيبة ومحمد فاضل بن زايدنا . ومن الزرقيين إبراهيم الدويهى وعمه حمد ، ومحمد يحظيه بن أبهى ، ومحمد فاضل ابن العروص بن أحمد سالك . ومن أبناءِ دليم محمدُ مبارك بن زين الدين . ومن ءاية الحسن فَرَجي بنَ الرزم ، وعبدُ السلام بن عمارة ، وسيدي أحمد بن أحمد الحسن . ومن أبناء تيدرارين الليبك محمد وقد أفرج عنه بسرعة ، والشيخ ابن عبيليل . ومن فلالة محمد بن سيدي إبراهيم . ومن العروسيين السويلم بن هيبة . ومن ءاية باعمران فيظول بن الدرحم ، وموسى بن عمران ، ويحظيه ، وعبد الله بن مْبارك ممن يَقطنون العيون ، أما القادمون من ءاية باعمران فإنهم بلغوا عدةَ مئات نظراً للمواقف الوطنية التي مارسها الباعمرانيُّون طيلة وجود الإدارة الإسبانية ببلادهم ، فلم تَمض سنةٌ إلا وقدمَ فيها الباعمرانيُّون عملا وطنيا مشرفا جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا .

إن هؤلاء المساجين وغيرهم ممن قضوا أزيد من سنتين في سجن (افويرتا بانتورة) كانوا يدافعون عن مغربيتهم ، وقد جرى إطلاق سراح جماعة منهم بسبب تبادل للأسرى تم بين الحكومة المغربية وبين السلطات الإسبانية نتيجة مفاوضات رسمية ، فإذا كان ما يدعيه اليسار الإسباني اليوم حقا اعتمادا على تدليس الحقيقة من طرف حكام الجزائر وأذنابهم خرافة البوليساريو ، فلماذا قبلتْ إسبانيا أن تَتفاوضَ رسمياً معَ الحكومة المغربية في شأن سجناء أخذوا من أقاليم الصحراء ؟ وهل يمكن بعد هذه الحجج الدامغة أن يشك من لهم أدنى

بصيرة في مغربية تلك الأقاليم ؟ وبالتالي أو لم يكن من واجب الجميع إدانة استفزازات واعتداءات من صنعوا المرتزقة للاعتداء على المغرب لا لشيء إلا لأنه استرجع حقا مقدسا تثبته تلك الوثائق السالفة وغيرها مما هو مثبت حتى في وثائق جل الجهات الدولية .

وفي يوم 26 فبراير سنة 1958 قام جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه بزيارة المحاميد في إقليم ورزازات ، وقد خف إلى التشرف بمقابلته هنالك وفد كبير من أبناء الصحراء المسترجعة ، وألقى المرحوم الوطني الغيور المجاهد زعيم الصحراء العبادلة بين يدي الجلالة الشريفة كلمة رفع فيها ولاء وإخلاص سكان الصحراء المحتلة للعرش العلوي، واعتزازهم بحمل السلاح من أجل استكمال الوحدة وتخليص تلك الأجزاء من قبضة المستعمر الإسباني ، لأن ثورة جيش التحرير آنذاك كانت مندلعة ، وقد ابتدأتها فرقة من أبناء قبيلة المجاهدين الرقيبات على فم الحصن ومركاله ، ثم تتابعت على إثرها المعارك الوطنية التي مولها المخزن وأعطى فيها الصحراويون ما يملكون من أنفس وأموال ، والكل كان يحمل الأعلام المغربية ويردد بيعته لمحمد الخامس طيب الله ثراه .

وقد وقعت عدة هجمات منها : يوم الدشيرة الذي أبيد فيه فيلقٌ إسبانيٌّ بأكمله ، البلايا والعركوب قربَ الداخلة ، ويومُ الطوارف ، وطريق الشجرة ، وغيرها من المعارك التي خاضَها أبناء الصحراء حاملين الأعلام المغربية ومتوشحين صور صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس وولي عهده آنذاك صاحب الجلالة الحسن الثاني أيده الله ونصره .

وفي نفس السنة قدم وفد ضم أكثر من مئتي شخص على مدينة مُراكش لتنظيم ستراتيجيةِ الكفاح الشعبي ، وقد التقَى الوفد المذكور الذي تم فيه تمثيل مختلف الانتماءات الصحراوية، التقى بالمدينةِ المذكورة معَ المرحوم الزعيم العالم علال الفاسي ، واستمعَ الوافدون لعدة محاضرات لبعض العلماء ، أتذكر أن منها واحدة للفقيه الفاروقي الرحالي حول الجهاد وشرف الاستشهاد في سبيل الله .

ثم حاضر العالم العامل والشاعر الفذ الشيخ محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين مبرزا استمرار تعلق الصحراويين بالعرش ، واعتزازهم بمغربيتهم . وفي آخر سنة 1957 تم تحكم جيش التحرير المغربي في جميع الصحراء ، ولم يبق منها خارجا عن سيطرة المجاهدين المغاربة سوى مدينتي العيون والداخلة ، مما ألجأ إسبانيا إلى الاستنجاد بفرنسا . واستجابة لذلك عقد مؤتمر بين رؤساء جيوش الدولتين المتمركزتين بالصحراء : رؤساء جيوش فرنسا بموريطانيا ، ورؤساء جيوش إسبانيا في المناطق الصحراوية ، ونتج عن ذلك اللقاء عقد حلف دفاعي عرف بحلف «أكوفيون» تدخل على إثره الطيران الفرنسي معززا الطيران الإسباني ، مما غير مجرى الأحداث داخل الأقاليم المغربية الصحراوية لصالح قوات الحلف المذكور . لكن ما أن شعر السكان بذلك حتى نظموا هجرة جماعية شملت أكثر من ثلثي سكان المنطقة ، ومما يثبت أيضا مغربيتهم واعتزازهم بها أنهم فروا جميعهم لوطنهم الأب ، فما ذهب منْهُمْ أحدٌ إلى فرنسا في الجزائر ولا إلى غَيْرها ، لأن هجرتَهم

كانت اختيارا ، ولم تكن اختطافات مثلما فعل الجيش الجزائري لإخواننا الذين أجبرهم على الإقامة رغمَ أنفهم واحتجزَهم داخل مخيمات تيندوف ، ولو ترك لهم مجال الاطلاع على ما تضمنه هذا العرض فسوف يشهدون بصدقه ، لأنه سرد حقائق خالية من أي تزوير أو تزويق .

وقد روجت إسبانيا إشاعات كاذبة تدعي فيها أن بعض السكان يؤيدونها في تصرفاتها المتمثلة في تقتيل السكان ومصادرة أملاكهم. ولتفنيد تلك الادعاءات انعقد اجتماع عام في داخل الصحراء ، صدر عنه بيان عام كذب ما تدعيه إسبانيا ، وأعلن تشبث جميع الصحراويين بمغربيتهم وتعلقهم بالعرش العلوي المجيد ، صدر البيان المذكور يوم 12 مارس 1958 ونشر بجريدة صحراء المغرب ، صفحة 2 ، العدد 1953 بتاريخ 6 رمضان 1377 موافق 27 مارس 1958 .

وفي يوم الأربعاء 27 شعبان 1377 هـ موافق 19 مارس 1958م صدر العدد 52 من جريدة صحراء المغرب التي كان يصدرها المرحوم الزعيم علال الفاسي وعلى الصفحة التاسعة منها بلاغ رقم 41 بتاريخ 1958/3/11 صادر عن قيادة جيش التحرير بالصحراء المغربية يعطي التفاصيل عن التعاون الفرنسي الإسباني على تقتيل المدنيين المغاربة في الصحراء ، تلك العمليات التي اعتذر عنها السيد « بيتو » وزير الخارجية الفرنسي آنذاك بأن فرنسا قامت بها من أجل تطهير المنطقة المحاذية لشمال موريطانيا من فصائل جيش التحرير ، وتنبغي الإشارة هنا إلى أن موريطانيا آنذاك كانت مستعمرة فرنسية ، أما المعارك التي أشار إليها البلاغ المذكور فقد وقعت في المكان

المعروف بادرمان ، وقد أعطى البلاغ المذكور وصفا حيا عن العمليات العسكرية ، ثم استعرض وصفا عن إبادة الجيشين الفرنسي والإسباني للسكان المغاربة مواليد الصحراء .

وفي إطار إظهار التعلق بالمغربية والإخلاص للعرش مثل العالم والمجاهد الكبير من حمل مشعل الدفاع عن مغربية الصحراء لأكثر من خمسين سنة رغم مضايقات المستعمر ، إنه الشيخ محمد الأغظف بن الشيخ ماء العينين بصفته نائب خليفة السلطان بالصحراء بين يدي صاحب الجلالة محمد الخامس طيب الله ثراه لتقديم الولاء والطاعة لجلالته ، وشرح الحالة الخطيرة التي أصبحت تعيش عليها الصحراء بعد هجرة جميع أهلها عنها لوطنهم المحرر احتجاجا على مماطلات الدولة الإسبانية ، فقال نائب الخليفة بالحرف الواحد في كلمة منها : «أنا باسمي واسم سكان الصحراء الأماجد أجدد الإخلاص والولاء لجلالتكم كما كانت أسلافنا متمسكة بذلك لأسلافكم ، وبكوني كنت نائبا عنكم في ذلك الجزء من الوطن باعتراف من الدولتين الإسبانية والفرنسية ، بعد أن كان والدنا رضي الله تعالى عنه هو الوساطة فيما بين أسلافكم المقدسين مع ذلك الجزء من رعيتكم ، من عهد جدكم الأكبر مولاي عبد الرحمان ، إلى أن توفي والدنا رضي الله عن الجميع وأسكنهم فسيح جناته .

ومن ذلك الوقت إلى الآن ، وأنا قائم بتلك المسؤولية العظمى ، رغم ما أجده من الصعوبات والأمواج المتلاطمة في هذا الوقت الخطير ، إلى أن رأيت من واجبي أن أبلغكم تعطش رعاياكم التي لم تعرف ولن تعترف بسواكم في ذلك الجزء الصحراوي من الوطن ، إلى أن يتم انضمامها في أسرع وقت ممكن إلى حظيرة الوطن الوالد .

وبما أن ذلك الجزء هو عضو المغرب الأيمن منذ نشأت الدنيا وتقاسيمها التاريخية والجغرافية كذلك ، لا يمكن لأهله أن يبقوا محرومين مما فيه إخوانهم من حرية واستقلال .

مولاي ، إن أهل الصحراء رغم ما يلاقونه من ويلات الاستعمار وعذابه ، لم يزدهم ذلك إلا تشبثا وتعليق آمال عليكم ، ونحن واثقون بأن الله كما حرر بكم هذا الجزء سيحرر على يدكم الكريمتين بقية الأجزاء المغربية الصحراوية» . (نفس المصدر السابق ، صفحة 17 ، عدد 69 - 70 ، السنة الثانية بتاريخ يوم الاثنين 10 محرم عام 1378 هـ موافق 28 يوليوز 1958 م ، أما المقابلة فقد وقعت يوم الأحد) . وعند رجوع طرفاية للمغرب حظي سكانها بأن نالوا شرف زيارة سمو ولي العهد آنذاك جلالة سيدنا مولانا الحسن الثاني أعز الله ملكه ، وذلك لتسلم مقاليد الأمور بها . وفي خطاب جلالة المغفور له محمد الخامس بهذه المناسبة قال قدس الله روحه : «لقد أكدنا غير ما مرة وما زلنا نؤكد أن المغرب ليست له مقاصد في السيطرة والتوسع ، وإنما يتطلع إلى الأجزاء التي ظلت منه وإليه قرونا طوالا ثم انتزعت منه في أحوال استثنائية ، أو بمقتضى أوفاق دبرت في الخفاء ، وإنَّ في رحيل أعيانها إلى الجزء المحرر من بلادنا وإبدائهم فروض الولاء لجنابنا لحجة بالغة على تعلقها بالقومية المغربية والافتخار بالانتماء إليها .

إن تسليم مقاليد الأمور بطرفاية إلى السلطة الشرعية بطرق سلمية نأمل أن يكون سابقة حسنة لفصل ما بقي من المشاكل بيننا وبين إسبانيا ... » إلى آخر الخطاب المولوي الذي

نشر بالعدد 55 - 56 من جريدة صحراء المغرب يوم الأربعاء 26 رمضان 1377 موافق 16 أبريل 1958 ، وفي هذا الخطاب ندرك من بين معانيه الجمة أشياء كثيرة :

1 ـ إلحاح العرش على متابعة العمل لاسترجاع الأجزاء الصحراوية بالطرق السلمية ، وهو مبدأ نفذه مولانا أمير المومنين الحسن الثاني بمعجزة المسيرة الخضراء .

2 ـ عدم اعتراف المغرب بالاتفاقيات السرية والعلنية المبرمة بين الدول الأجنبية حول صحرائنا المسترجعة .

3 ـ تعبير سكان تلك الأقاليم عن اعتزازهم بمغربيتهم ، وكون هجرة أعيان تلك المناطق إلى وطنهم المحرر أعطى الدليل الواضح على تشبثهم بمغربيتهم واعتزازهم بها ، ويكفي أن هذه الأمور كلها تمت قبل ميلاد الدولة الجزائرية وقبل أن يعرف المتسلطون المحاولون فصلها عن وطنها الأب المغرب ، وحتى قبل ازدياد أولئك الأقزام الذين اختاروا العمالة للغير الطامع في خلافة الاستعمار عن نعمة الاعتزاز باستمرار نضالية الآباء والأجداد من أجل رفعة الإسلام وتماسك جماعة المسلمين ووحدة وطن ظل موحدا عبر التاريخ ، وسيبقى كذلك بإذن الله .

وبعد أن تمت الهجرة وتغلبت إسبانيا وفرنسا على جيش التحرير واستقر المهاجرون بإقليم طرفاية ، وإنْ كانت عناية سيِّدِنا المنصورِ بالله أميرِ المومنين الحَسَن الثّاني أيَّدَه الله ونصره جعلَتهم يعيشون في رخاء مستمر ونعم متتالية ، فإنهم ظلوا حجة صارخة تفند ما يدعيه الاستعمار والحكم

الجزائري، ذلك أن عدد سكان الصحراء تعترف إسبانيا بأن ما تحت يدها منهم لا يتجاوز 17 ألف سنة 1968 حسب كتاب للجغرافية الإسبانية صادر سنة 1968 مقرر على طلاب كلية الآداب الإسبانية بجامعة قرطبة ، صفحة 929 (المؤلف الرامون سولطنية) ، بينما تواردت هجرتهم إلى وطنهم من 1910م حيث هاجر ءانذاك من الصمارة وحدها أكثر من عشرة آلاف نسمة ، علما بأن إسبانيا اتخذت من عدد السكان ورقة استغلال تزيد من عددهم عند ما ترى أن ظروفا ملائمة لاستغلال عددهم لاستمرار الاستعمار، ثم تدني ذلك العدد عند ما يكون دور السكان مفيدا لجعل حد لفصل المنطقة عن الوطن الأب المغرب، وتتوالى الأيام ، ويتلون الاستعمار ، وتتمادى الجزائر في الخدائع وتتخذ أقبح الحيل ، فتستغل ظروف زيارة أحد التلاميذ لعائلاته في منطقة تيندوف التي أوجدتها نفس التقسيمات والمصالح الاستعمارية تحت حكم الجزائر بطريقة غير مشروعة، ويستغل حكام الجزائر تلك الزيارات ليكونوا من أصحابها عملاء تنكروا لماضي آبائهم وأجدادهم ، وخانوا وحدة وطنهم لينساقوا في أوهام التوسعات تلبية لغرور من خدعهم تحت تأثير مُركب حُبِّ العَظمَة ، فكوَّنوا ما يُسَمَّى «بالبوليساريو» وأيضا ما يسمى بشعب الساقية الحمراء ووادي الذهب الذي لا يتعدى كونه وهماً أوحي به شيطانُ التهور المصاحب لحاكم بعض الجيران .

المبحث الثالث ـ مواجهة العرش والشعب لمخطط محاولة الانفصال

سنحاول إيجاز هذا الفصل فيما يلي :

منذ أن اعتلى مولانا صاحب الجلالة نصره الله عرش أسلافه المنعمين بدأ أمر استرجاع الصحراء يتخذ طريقه إلى الحل كبقية جميع القضايا الأخرى التي يطمح الشعب إلى تحقيقها ، فقضية تمكين البلاد من مؤسسات دستورية تظهر بلادنا بمظهر ديمقراطي فريد في مجموعة دول العالم الثالث ، والمؤتمرات الدولية التي شارك فيها سيدنا المنصور بالله من أجل أن يحتل المغرب مكانته الحضارية التي أهلته لها أصالته وعبقريته عبر مختلف عصور الإنسانية ، والعمل على التعجيل بجعل حد لوجود الجيوش الأجنبية بإتمام جلائها بسنوات قبل الموعد الذي كان مقررا لها حسب الاتفاقيات المبرمة أيام استقلال بلادنا وبعده بقليل ، وكذلك تطوير أجهزة وكفاءات قوات الجيش الملكي الباسل ، ثم القيام برحلات لمختلف أقاليم المملكة لتدشين شبكة من السدود تمكن البلاد من الاعتماد على نفسها في مختلف وسائل الاستهلاك الضروري ، إضافة إلى فتح الحوار الجاد والصبور مع مختلف ألوان المعارضة حتى تستوعب قاطرة الدولة جميع طاقات أبنائها ، مع الحضور المتميز دوليا في كل ما يهم القرار العربي .

كل هذه المنجزات هي وحدها التي رأى سيدنا حفظه الله ونصره أنها كفيلة بتكوين أمة قادرة على التحرك بسرعة وفي

مستوى ما هيأه العدو لمواجهتها عندما تقتحم الحواجز لإزالتها من فوق أرضنا ، لتعيد وحدة طالما تعطش الجيران إلى انتقاصها حسبما شاهدنا بعضا منه أعلاه ، وهكذا أشار جلالته أيده الله ونصره في خطابه بمناسبة الذكرى الأولى لاعتلائه العرش المفدى ، قال جلالته : إن هذا كله لم ينسنا ولن ينسينا تشبثنا الدائم بتحرير جميع الأجزاء المغتصبة من وطننا في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ومضى جلالته في توضيح معالم السياسة الهادفة إلى استرجاع الأجزاء المغتصبة في جميع المناسبات مبينا تشبث المغرب بحقوقه المشروعة في استرجاع صحرائه المغتصبة ، وفي مختلف خطب عيد العرش وكُلِّ اللقاءات الدولية ، سواء كانت مؤتمرات أو لقاءات ثنائية تثبت تصميم جلالته على تحقيق كل الأهداف الوطنية بأقل الخسائر ، واستمر إلى جانب ذلك النشاط الدولي الدائب تخصيص عناية مولوية فائقة لأبناء أقاليم الصحراء ، سواء منهم من استقر بإقليم طرفاية ، أو من تقاطروا منهم تباعا عليه مبعدين من طرف الحكم الاستعماري بالصحراء ، وهنا لا بد من إشارة ولو موجزة إلى وضعية إقليم طرفاية وسكانه ، فإذا رجعنا إلى أيام استرجاعه لوجدناه عبارة عن أصقاع صحراوية خالية من أي مظهر للعمران ، ولكن الطموحات المولوية السامية خصته كل سنة برعاية فريدة حتى أصبح طنطان ينافس مدينة العيون ، ولم يبق فرد من سكانه إلا مكنته حكومة سيدنا أعز الله ملكه من وسائل حصل من ورائها على سكنى مشرفة ووسائل عيش كافية ، وهم الذين صادرت إسبانيا بالأمس

القريب جميع ممتلكاتهم ، يضاف إلى ذلك أن تعميم التعليم وإجباريته ليست مطبقة في إقليم من أقاليم المملكة أكثر من تطبيقها في إقليم طرفاية ، هذا مع إنشاء شبكة الطرق ، وتوفير المياه ، وتعميم وسائل الإنارة ، كل هذا تم بطريقة تفوق حتى إمكانيات الأقاليم الغنية . كل ذلك تم قبل المسيرة الخضراء ، تلك الالتفاتة جعلت المواطن يدرك عن كتب نعمة رجوعه إلى البلاد ، ثم أيضا ظلت تحديا صارخا يربك أية خطة حاول المستعمر الإسباني الإقدام عليها . وفي هذه الظروف كانت الخطب والندوات والبلاغات الصادرة بين جلالته وبين عدد من رؤساء الدول والبعثات التي أوفدها نصره الله للدول الشقيقة والصديقة تجسد الإرادة المولوية في استكمال الوحدة بإرجاع الصحراء إلى الوطن الأب ، الشيء الذي توجته معجزة القرن التي مهدت لها أنشطة مولوية نجمل قليلا منها فيما يلي :

ففي خطاب العرش لسنة 1967 قال جلالة أمير المومنين نصره الله بعد أن استعرض المنجزات الضخمة التي ما زالت ولا تزال بلادنا تحققها في ظل قيادة جلالته الحكيمة ، قال : «وفي طليعة هذه المسائل ما صرفنا نحوه اهتمامنا من أمر المناطق التي وقع اقتصاصها من أطراف البلاد واغتصابها ، فسعينا سواء في منظمة الأمم المتحدة أو في منظمة الوحدة الأفريقية إلى استرعاء نظر الرأي الدولي لضرورة جعل حد للاستعمار في سيدي يفْني والساقيةِ الحمراءِ ووادي الذهب» .

وقد أشار جلالته في نفس الخطاب المولوي السامي إلى رسالة وجهها في نفس السنة إلى رئيس الدولة الإسبانية ، يذكر

فيها سيدنا المنصور بالله بما تضمنته اتفاقية 7 أبريل 1956 المبرمة بين الدولتين المغربية والإسبانية ، وتلك الاتفاقية معلوم أن إسبانيا التزمت فيها بوحدة التراب المغربي في الجنوب والشمال ، فجلالة سيدنا أعز الله ملكه وهو العالم المتضلع في القانون والعلاقات الدولية ، وهوَ المساعدُ الأيمنُ لجلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه في جميع مراحل كفاحه ونضاله المبكر ، بجانب والده منذ مؤتمر أنفا إلى إبرام آخر اتفاقية بشأن جعل حد لأي وجود أجنبي ، كان انطلاقا من شمولية تفكيره وبعد نظره وإدراكه لأبعاد ما يهدف إليه المفاوضون الإسبان ،كان حفظه الله وأيده واعيا كل الوعي وملما كل الإلمام ومدركا كل الإدراك بأنه سيستخدم فصول تلك الاتفاقيةِ في مُواجهة الحُكم الإسباني إذا ماطلَ في تَسْليم أيِّ شبر من الأراضي التي تحتلها إسبانيا . وها هو بعد عشر سنوات يضع الجنرال الديكتاتوري أمام هذا الواقع اعتمادا على ما وقع عليْه الجنرال فْرَانكو نفسُه ، وقدْ وضحت خطبُ جلالته ما بذله حفظه الله من جهد متواصل لاسترجاع الحق المغربي .

عندما عيّن جلالته وفدا من أبناء الصحراء يتكون من جماعة من الوطنيين وهم : المرحوم العبادلة ، والباعلي حمدي ، والزروالي بريكه ، وإبراهيم الدويهي ، وحبوها بن العبيد ، والخطاط عبد الله ، وقد دافعوا عن مغربيتهم أحسن دفاع لما طرح مشكل الصحراء سنة 1966 على الأمم المتحدة حيث وقف السيد محمد ماء العينين بويا وقفته المشهورة التي أثبتت للعالم

عن طريق الأمم المتحدة أن أبناء هذا الوطن لا يرضون بديلا بمغربيتهم ، فأتى على رأس وفد موريطاني وانضم إلى الوفد المغربي معلنا للعالم بجرأة ووعي مغربية الصحراء ورابطا بين يوم أسرته وأمسها فأعطى الدليل على أن إرادة الشيخ ماء العينين الإسلامية الوحدوية ستبقى مستمرة في بنيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وبذلك الموقف الفريد من نوعه أعطى ماء العينين الدليل عن كفاءة عالية خلدته في سجل العظماء إلى الأبد .

وقد قام جلالة مولانا أمير المومنين الحسن الثاني أيده الله وأعزه بتهيئة الجوّ دوليا لتعميق وتركيز مكانة المغرب في الخارج بأسلوب يتلاءم والعبقرية الحسنية ، تم من خلاله اتخاذ جميع الترتيبات لما يدور في الذهن المولوي من قرارات تفتقر إلى شجاعة غير مألوفة لدى دول الدنيا حتى اليوم ، يمهد لها مناخ يستقطب شبه الإجماع الدولي ، ليكون وراء قرار العاهل القائد الملهم ولفتح نافذة نيرة تمد تاريخ نضالات الشعوب بإنجاز ما عرف له التاريخ مثيلا ، تلك هي معجزة المسيرة الخضراء التي ابتكر جلالته فكرة تنظيمها وأجواء تحضيرها وأسلوب قيادتها ، فلقد عشنا ابتكارات وتحركات غير مألوفة بعثت تساؤلات عدة عند الجميع . أدركوا من خلالها أن إِنْجَازًا ضخما يهيأ ، لكن حجمه وكيفه كان فوق إدراك خيال الجميع ، وإذا حاولنا تذكير الأجيال بذلك الحدث العظيم الذي ما زالت الكلمات عاجزة عن وصْفِه ، لا بدَّ من أن ترجعَ بنا الذاكرةُ إلى لقاءات يفرن وتلمسان والدار البيضاء ، التي عقدها جلالته إما مع

الرئيس المختار بن دادة رئيس الجمهورية الإسلامية الموريطانية ، وإما مع الهواري بومدين ، ليساق بتصرف فوق مستواه وبتفكير قادر على استيعاب ما يكنه من حقد وما تنم عنه تصرفاته الظالمة من مؤامرات ، أقول سيق بوميدن إلى تلك اللقاءات بسياسة سيدنا ومولانا الحسن الثاني أيده الله ونصره ، تلك السياسة المستمدة من قول الله عز وجل «ادفع بالَّتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» لينتزع منه التزامه بمساندة المغرب وموريطانيا في أي عمل يتخذانه لاسترجاع الصحراء من السلطة الإسبانية .

في إطار هذا المنهاج سيق بومدين لتلك اللقاءات وما ماثلها كمؤتمر القمة الإفريقي ومؤتمر القمة العربي المنعقدين بالرباط ، وقد التزم فيهما وفي تلك اللقاءات بتأييد حق المغرب في استرجاع صحرائه ، ظنا منه أن الأمر لا يعدو مجرد تخطيط بطيء سوف يقطع عليه هو ونظام الدكتاتورية الفرنكاوية الطريق بألعوبة تجعلهما يتقاسمان النفوذ على الصحراء المغربية ، بلعبة يتستر تحتها كل واحد منهما (انظر بلاغ نواذيبو بتاريخ 14 شتنبر 1970 موافق 12 رجب 1390) فقد التزم حاكم الجزائر بأنه يؤيد إخراج الصحراء من يد الإسبان وفقا لقرارات الأمم المتحدة ، ولعله يجهل أن مبادئ الأمم المتحدة تنص على احترام سيادة الدول ووحدة أراضيها ، ولعله أيضا جهل أن فيما قدمته من حجج نشرت منذ عشرات السنين أكبر دليل على مغربية تلك المناطق ، وما دام حق سيادة المغربِ ثابتاً عليْها قديماً فليْسَ أمامَ الأمم المتَّحدةِ إلا مباركةُ

استرجاع المغرب لأراضيه ، وإلا فإنها تكون هدرت مبادئها هي بنفسها مع أنها لن تغير من حق المغرب أي شيء .

وفي خطاب العرش 3 مارس 1968 قال جلالته بالحرف الواحد : «وقد سعينا تحقيقا لاسترجاع حقوقنا بشأن الأراضي التي سُلِبْنَاهَا سابقا والخطة التي التزمناها والسبل التي رسَمْناها ، فإذا كنا ما زلنا مُتَمَسِّكين بمطالبنا ، حَريصين على استعادة ما اقتطع من ترابنا ، فإننا اليوم كدأبنا بالأمس مستعدون ، في إطار ما اتخذته منظمة الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية من مواقف وقرارات ، للتباحث والتفاوض وموالاة الاتصال لإقناع أشقائنا وأصدقائنا بمشروعية هذا المطلب .

على أننا واصلنا - يقول جلالته نصره الله - خلال السنة الماضية المساعي لحمل صديقتنا الدولة الإسبانية ، التي تربطنا بها روابط الجوار والمودة القديمة ، على وضع القرار الذي اتَّخذَتْه الأممُ المتحدةُ في شأن يفني والساقية الحمراء ووادي الذهب موضع التطبيق والتنفيذ ، وإننا لنأمل أن تسفر جهودنا المتوالية عن النتائج المطلوبة» .

وفي الندوة الصحفية التي عقدها أمير المومنين أعز الله ملكه يوم الجمعة 16 يونيو 1972 موافق 3 جمادى الأولى 1392 أجاب جلالته نصره الله عن سؤال حول الصحراء عما إذا حصل تطور في موقف البلدان المعنية مباشرة بهذه القضية منذ مؤتمر القمة المنعقد في نواذيبو ، أجاب جلالته بقوله : «هناك

نوعان من البلدان يهمهما هذا الأمر ، فهناك البلدان التي تهمها تصفية الاستعمار بما فيها الجزائر ، وقد حاول البعض لأجل بث الغموض ومحاولة التفرقة الادعاء بأن الجزائر طرف يعنيه أمر الصحراء والمطالبة باسترجاعها ، بينما في الواقع لم يكن الأمر كذلك ، ولقد سعدت شخصيا بالتوضيح الذي عبر عنه الرئيس الجزائري بومدين الهواري في خطابه عندما قال : إن الجزائر تتعهد بأن تقدم العون والمساعدة والتأييد للمغرب في مطالبه بالصحراء».

وفي خطاب بومدين في نفس الجلسة أعلن تأييده للمغرب وإخلاصَه لما سُطِّر في مؤتمر نواذيبو ، ومن الأكيد أنَّ ما يُسَمَّى بالشعْب الصحراوي وخرافةَ البوليساريو وحلمَ دولة الصحراء لم يذكر أي واحد منها في المؤتمر الذي لمح إليه الرئيس الهواري بومدين ، لذا فإن ذلك الالتزام المسطر في وثائق المنظمة الأفريقية يشهد على هذا الالتزام الجزائري الذي تنكرت له الجزائر نفسها .

وفي خطاب جلالة سيدنا أعز الله ملكه أمام حجاج الأقاليم الصحراوية يوم السبت 30 دجنبر 1972 - 23 ذي القعدة 1392 عند ما قال أعزه اللّه : «وقد أبينا إلا أن نلتقي بكم بكيفية خاصة حتى نظهر مرة أخرى عطفنا عليكم وعلى من يجاوركم من إخوان لنا في أراض مغتصبة ما زالت محتلة ، وسوف تكون لكم الفرصة لتتلاقوا بإخوانكم وإخواننا رعايانا سكان الصحراء المغربية ، فقولوا لهم في تلك البقاع المقدسة في بيت الله الحرام وفي مسجد نبيه عليه الصلاة والسلام ،

إنهم ليسوا غائبين عن قلبنا ولا عن ضميرنا » إلى آخر الخطاب المولوي الذي كانَ كله تأكيداً على مَغربية الصحراءِ ، وتصميماً على اتخاذ الوسائل الناجعة لاسترجاعها .

وفي الرسالة التي وجهها نصره الله وأيده لرئيس الدولة الإسبانية يوم الخميس 4 يوليوز 1974 - 13 جمادى الثانية عام 1394 في شأن المذاكرة التي دارت بين الجنرال العجوز وسفيرنا بمدريد .

وفي خطاب جلالته يوم الاثنين 8 يوليوز 1974 - 17 جمادى الثانية عام 1394 بمناسبة الذكرى الخامسة والأربعين لمولد جلالته .

وفي البلاغ الصادر يوم الثلاثاء 13 غشت 1974 - 24 رجب 1394 بين المغرب وأبو ظبي . وفي الاستجواب الذي أجراه مع جلالته الصحفي العربي المشهور الأستاذ سليم اللوزي عند ما سأله عن الكيفية التي تتم بها تصفية المشاكل القائمة بينكم وبين إسبانيا ؟ ، قال حفظه الله ونصره : بأنه «لنْ يلجأَ إلى الحَرب ، وأنه سَيَعملُ على إقناع السلطاتِ الإسبانية بأن وجودها بالصحراء المغربية غير شرعي وغير قانوني حتى من وجهة نظر العرف الدولي ؛ إن محاولة الإسبانيين إقامة دولة مصطنعة في الصحراء هي محاولة لتجزئة التراب الوطني المغربي لن يكتب لها النجاح ، بالإضافة إلى أنها تُعبرُ عن نياتٍ عدائية نحونا بدون ثمن ؛ نحن نتحدى إسبانيا أن تفتح أبوابَ الصحراء التي تحتلها أمام الذين نزحوا عنها وأقاموا على

الحدود من أكدير إلى طنطان لتوافق إسبانيا على أن تقوم أية هيأة دولية بإحصاء الصحراويين النازحين ، إن عددهم يصل إلى ضعف السكان الذين لا يزالون هناك تحت إدارتهم ، وهم سيعودون تلقائيا إلى ديارهم بمجرد فتح الحدود أمامهم ورفع الملاحقات عنهم» . ثم أعلن نصره الله عن صرامة الموقف الوطني من أجل استكمال السيادة .

وفي خطاب يوم الاثنين 2 شتنبر 1974 - 14 شعبان 1394 أثناء استقبال جلالته لوفد شرفاء قبيلة الرقيبات ، وكذلك خطابه دام له النصر والتمكين في نفس اليوم أثناء اجتماع جلالته بممثلي إقليمي طرفاية وأكدير ورجال الإدارة بهما ، وفي الندوة الصحفية ليوم الأربعاء 18 شتنبر 1974 التي تحدث فيها جلالته عن الخلاف المغربي الإسباني بشأن الصحراء المغربية المحتلة ، وفي البلاغ المشترك الصادر بين المغرب والغابون يوم الجمعة 8 يوليوز 1974 - 23 شوال 1394 ، وفي البلاغ الصادر يوم الأربعاء 14 غشت 1974 - 25 رجب 1394 بين المغرب وإسبانيا والذي نص على مذاكرة بين الطرفين في شأن الصحراء ، وفي خطاب يوم الثلاثاء 20 غشت 1974 - 1 شعبان 1394 بمناسبة الذكرى الواحدة والعشرين لثورة الملك والشعب .

ففي هذه الخطب السامية والبلاغات والندوات أوضح سيدنا نصره الله أنه ما فتىء يبدي تشبث المغرب بوحدته وتمسُّكه بسيادته الدائمة والثابتة على الصَّحْراء المغربية ، مما شكل حجة دامغة أمام المحافل الدولية السياسية .

هذا الفيض من الجهود الملكية السامية كان حافزا للهمم المغربية الوطنية ، فهيَّأ مناخاً دولياً جعلَ كلمةَ المغرب تحتمُ على الجميع مناصرته لعدة أسباب ، منها توضيح أحقية مطالب المغرب من خلال ما تضمنته التصريحات المولوية ، ومنها المكانة التي أصبحَ يتوفرُ عليْها انطلاقاً من ثلاثة مؤتمرات استضافَها المغرب وهي : مؤتمر القمة الإسلامي ، ومؤتمر القمة الأفريقي ، ومؤتمر القمة العربي الذي يعتبر بمثابة بعث جديد للجامعة العربية ، ثم كذلك ما رسخه دام له النصر والتمكين في نفوس كل رؤساء الدول من تقدير لشخصية جلالته انتزعه منهم بما توفر عليه، دامت سلامته، من عبقرية نادرة وكفاءة عالية ومرونة فائقة . وبعد أن طرحت القضية على محكمة العدل الدولية وقطع بذلك في يد رئيس الحكم العسكري بالجزائر الهواري بومدين ما كان يحيكه من خدائع هادفة إلى بث الشقاق بين المغرب وإخوانه الموريطانيين ، وبعد أن لعب المغرب دوره المشرف في قضية المشرق العربي ، وما حققه الجيش الملكي من انتصارات كفلت للمغرب عن طريقه احترام جميع دول العالم ، فتوهج إشعاع المغرب في أنحاء العالم مستعيدا مركزه المشع عربيا ودوليا .

في هذا الظرف الذي هيئ وطنيا ودوليا ، وأمام إصرار الدولة الإسبانية بتآمر مع الحكم الجزائري ، كان لا بد من اتخاذ إجراء ليس من ذلك المستوى الذي يصل إليه فكر الجنرال المريض ، ولا يصله خيال الهواري بومدين حتى لا يتمكنا من إعداد المواجهة المضادة ، ففي هذا الظرف الذي برغم ما أعد له

فإن خطورته كانت فوق ما يتصور الكل ، كان لا بد من قرار صادر عمن له إسوة حسنة في رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وذلك ما وقع بالفعل ، فلقد فاجأ الكل ما أقدم عليه جلالته عند ما أعلن قرار المسيرة التي مهما بلغت الكتابات عنها فإنها ستبقى دون مستوى التعبير عنها ، تلك المسيرة التي جعلت من السلم قوة تقهر كل وسائل الدمار ، وإن تاريخ نضال الأمم إذا كان يعتبر معلمة المسيرة ثورة تجديدية في طريقه ووسائله ، فإنه سيبقى مع ذلك عاجزا عن تكرارها على الشكل الذي تمت عليه ، تخطيطا وأسلوبا وتنفيذا وجرأة ، وأيضا فإن التعبير عنها سينتظر أمدا طويلا حتى يتمكن من استيعاب قدرة وصفها الوصف اللائق بها ، لأن حجمها المعنوي والمادي أكبر من مستوى معاصريها .

ولن ينسى أيضا تاريخ الإنسانية ما أصيب به نظام الهواري بومدين من هلع وجنون جرأه على توجيه نداءات متكررة من بوق الجزائر يطلب فيها من الجيش الإسباني ضرب المواطنين العزل الزاحفين نحو أرضهم ووطنهم متوشحين القرآن ، وهم رواد حق عدتهم إليه هي الإيمان والإصرار على استرجاعه في مسيرتهم السلمية ، وفعلا وعن طريق تخطيط وتصميم جلالة الملك المعظم ، صدر قرار المسيرة ليبرهن للعالم بأسره أن شعب المغرب شعب المعجزات والتضحيات ، وأنه يقف دائما بجنب السلام ، ولكنه يعطي صدوره لقوة الحديد والنار ليسترجعَ حقَّه من الذين حاولوا الاستحواذ عليه على الصورة التي يَرغبون فيها ، ولكنه يفضل حل السلام والتفاوض قبل

وسيلة الحرب التي هي بيد الجميع ، وإن كانت نتائجها يجهلها الجميع أيضا . وفعلا عادت إلينا صحراؤنا ، وعودة الصحراء تفتح باب مراحل أخرى ، ذلك أن الاستعمار كان لا يهمه إلا أن يستنزف ما فيها من خيرات ، زاعما أن حماية وجوده يكفلها شيئان :

1) تثقيل المنطقة بالجيوش الإسبانية .

2) تعميق الخلافات وإذكاء روح ناعورة القبلية بين مختلف سكان المنطقة ، ثم بتأصيل روح التبدي وعدم الاكتراث بالدراسة وتعميق روح النعرة القبلية لتلتهم نارها إمكانية تعاون مواطنينا بالصحراء المغربية .

وقد نتج عن هذين الدائين بقاء المنطقة تعاني من بعض رواسب التخلف الفكري والعمراني ، مما حدا بحكومة سيدنا المنصور بالله الإقدام على سَنِّ برامج استعجالية أثناء تحضير وتنفيذ المسيرة الخضراء ، بغية أن يتم الشروع في إخراج المنطقة من وضعيتها المزرية فور دخول أهلها الشرعيين إليها ، وهذا ما تم بالفعل ، وهذا ما جعل المنطقة تحقق في ظرف عقدين من الزمن فقط ، في ظل تسيير أهلها لها ما عجز المستعمر عن تحقيقه طيلة ما يناهز سبعين سنة ، وأيضا حققت في هذه الفترة الوجيزة من وسائل النماء والعمران ما لم يكن أحد يظن أنه سيتحقق في ظرف مئة سنة .

وإنه لما يجب الاعتزاز به وتسجيله بمداد الفخر على أبهى صفحات التضحيات والبطولة هو ما قام ويقوم به جميع عناصر قواتنا المسلحة الملكية من ضباط وضباط صف وجنود في سبيل

سحق المرتزقة المعتدين ، والمحافظة على أمن السكان وطمأنينتهم ، وكذلك ما قدموه ويقدمونه من مساعدات اجتماعية ساهمت في تجهيز المنطقة والإسراع بعمرانها .

وبعد ما سبق لا بد من الإشارة إلى أن واجب جميع أبناء صحرائنا المسترجعة هو أن يجندوا أنفسهم لمواجهة الأخطار المحدقة بهم ليبرهنوا للعالم على أصالتهم المغربية وعراقتهم التاريخية ، فيفندوا مزاعم كل الطامعين في أرضنا من مغروري وحفنة المرتزقة الذين اختاروا لأنفسهم أن يكونوا لقطاء سياسيين يبحثون لأنفسهم عن هويتها الوطنية ، بعد أن كان آباؤهم ، وأجدادهم بناة حضارات تعاقبت على هذا الوطن ، من عهد إدريس الفاتح الذي يرجع نسب جلهم إليه ، إلى عهد المرابطين الذين انحدر بعضهم منهم ، إلى ما شاهدناه من تضحيات الأسرة العلوية الكريمة في سبيلهم ، وما خلده آباؤهم وأجدادهم من أمجاد داخل مسيرة تاريخ هذا البلد الذي كان وما زال وسيبقى بحول الله أقوى من أطماع الغزاة الظالمين، وأشد تماسكا من أن يؤثر فيه تحرك عصابة من الصبية المارقين ممن لم يهده الله منهم ويستجيب لنداء "الوطن غفور رحيم" .

فليتأكد كل من يلوح بشعاراته بأن مصير الصحراء قرر يوم أن قرر هذا البلد الأمين مصيره باختياره للإسلام دينا ولهذه الأرضية من البحر الأبيض إلى الكويرة وطنا ، وأن مصير الشعوب أقدس من أن تؤثر فيه انفعالات الأفراد ، ولو كان كل

خائن لبلده أو متآمر على حكومته ونظامه باستطاعته أن يطلب تقرير المصير لإقليمه لكنا أمام دوامة من التغييرات في هياكل مجموعة الدول الحالية لا يعرف لها وجه ولا يحصى لها عدد .

وفي ختام هذا الفصل ، على كل حاقد أن يدرك أن الصحراء أعلنت هويتها المغربية قبل قيام الدويلات التي تساند المرتزقة وتمولهم وتوجههم ، وأنها واجهت الاستعمار الإسباني بجميع أشكال التعبير المثبتة لمغربيتها بما فيها الموت في سبيل الوحدة الوطنية ، وإنَّ شعبا ينعم بقيادة عبقرية أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله ، لن تنال منه حبائل الجهال البلداء .

وقد شاهد العالم مدى تمسك المغاربة الصحراويين بمغربيتهم من خلال نضال مستمر واجهوا من خلاله المد الاستعماري ، ثم أفشلوا بواسطته خطط المستعمر بالمنطقة كان ءاخرها قبل أيام المسيرة بقليل وأشدها تحديا لخصوم وحدتنا هو ذلك الموقف الوطني الشجاع الذي قام به الأستاذ خليهنا ولد الرشيد ، والخليل ادخيل ، وبوحنانة حمودي بصفتهم أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطني الصحراوي ، الذي تكون في المنطقة فعلق عليه الحكام الإسبانيون ءامال تكوين دويلة مصطنعة ترتبط بإسبانيا فترة طويلة من الزمن ، وطلب من الشاب المهندس خليهنا ولد الرشيد أن يرأس دولة الخيال تلك ، ثم تتابعت عليه الاغراءات والتشجيعات الإسبانية وغيرها ممن بيتوا لتطويق المغرب عبر صحرائه ، ولما تم حبك جميع خيوط المؤامرة وأيقن الكل أن شباب الصحراء الذين كونتهم إسبانيا

من أجل الوصول إلى هذا الهدف ، أصبحت أقدامهم قاب قوسين من الانزلاق لا ليفوت ذلك الإجراء على المغرب حقه لأن إرادة الملك العبقري والتفاف شعبه من وراء جلالته ، لن يترك كل ذلك الصحراء تفوت بسبب حيل استعمارية ، ولكن لتصبح الأمور أكثر تعقيدا وتحسب زمرة من شباب الأمة في تلك المنطقة مطية تحقيق أطماع أعداء تاريخها وانتمائها وكفاح ءابائها وأجدادها ، عندها تجلت نوازع التربية الإسلامية العالية والروح الوطنية المتأصلة ، فالتحق الأستاذ خليهنا ولد الرشيد والخليل ، وحمودي بالوطن ، وأعلنوا بيعتهم وأصبحوا يمارسون أعمالهم الوطنية من خلال أعلى المناصب في بلدهم ، وكأنهم يطبقون قولة شاعر الصحراء عمنا العالم الشيخ محمد الإمام في الأبيات الآتية :

تَابَ الفتوةُ غَيْرَمَا يُسْتَحْسَنُ ... إِنْ هَمَّ صَاحِبُهَا بِمَا لاَيَحْسُنُ
واذا دَعَتْـهُ للنقِيصَـةِ حِـدَّةٌ ... دَعَتْ الطَّبِيعَةُ لِلَّتِي هي احْسَنُ

ثم إن تقاطر إطارات الصحراء على وطنهم استجابة للنداء الملكي الأبوي ذي المعاني والدلالات «إن الوطن غفور رحيم» لخيرُ دليل أيضاً على أنَّ وطنيةَ أبناء الصحراء قادرةٌ على تَخطي كلِّ الصعاب ، وأنَّ التفافَهم حَوْلَ العرش العَلوي المجيد سيَبْقَى طودا شامخا تَتَحَطَّمُ عليه أحلامُ الطامعين .

الفصل الرابع :

الثقافة الصحراوية

تقديم :

إن الحياة الثقافية في الصحراء المغربية تأثرت بعدة عوامل : منها ما هو محلي إقليمي ، ومنها ما هو وطني يتقاسمه ابن الصحراء مع غيره من أبناء سوس ومراكش والدار البيضاء والرباط وغيرها من بقية جهات الوطن ، ومن تلك المؤثرات ما هو مستورد من المناطق الكائنة جنوب المملكة، ولعل بعض المؤثرات يكون بقي سائدا في المنطقة بالوراثة من عهد تتابع رحلات الصنهاجة والمعقل إليها ، ثم اندثرت تلك الموروثات ، ونظرا لانغلاق المنطقة على نفسها ، برغم تنقل السكان داخلها فلا يستبعد أن تكون بعض انماط الحياة الثقافية ظلت تنتقل من جيل إلى جيل ومن عهد بعيد إلى اليوم وإذا ما حاولنا تأصيل كل موروث لامكننا القول :

1) إن الحياة الثقافية والعلمية منها على الخصوص ظلت مغربيةً في بَرامجها ومُؤسَّساتِها (المحضرة مَثَلاً) فالبرنامجُ واحد والقراءة هي نفسها ، والمتون المقررة والقضاء ومسطرة إصدار الحكم وممارسة القضاة لعملهم وتوظيف المعارف في شتى مجالات الحياة شكلت نسخة طبق الأصل لما هو سائد في مختلف الجهات المغربية ، لأن التركيبة السكانية كلها منحدرة من أصول مغربية ، والقيم الحضارية أنتجتها عبر تفاعلات

الحياة عبقريات مغربية ، ظلت الصحراء ، من أكبر منجبيها ، لأن التعلق بالأمجاد يتميز البدوي بالتشبث به أكثر من غيره ، إضافة إلى أن العطاء الوطني بقي متناميا خلال تعاقب الزمن وتفاعل مع مجريات الأحداث ، مما جعل كل جيل يتمنى أن يتجاوز عطيات الذين سبقوه ، أو على الأقل أن يكون مثلهم ، وهذه ظاهرة تمر وشائج التلاحم والترابط بين مختلف الأجيال التي لا يقع بينها التصادم إلا إذا انقطع اتصالها بالماضي ، أما إن وعت بالموروث الحضاري الضخم فإنها تشكل أقوى حماة له ، وهذا ما جعل ابن الصحراء يعشق التاريخ ويجد متعته في الحديث عنه ، إذ تتميز ثقافة المجلس عنده بأنها لا تشكل اهتمام الجميع إلا إذا تناول أصحابها الجانب التاريخي. ولا بد في مجال الحديث عن ثقافة القوم من التذكير بملاحظة مهمة هي أنك تجد الشخص أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه يتذوق الشعر تذوقا جيدا، ثم يحدثك عن محفوظات تاريخية مضبوطة، إذ يسرد عليك أسماء الدول التي تعاقبت على الوطن من الدولة الإدريسية إلى عهد الدولة العلوية أيد الله ملكها ، فيحدثك عن شمائل الملوك وزياراتهم للصحراء وعلاقة قبيلته بهم ، كما يسرد لك مئات المقطوعات الأدبية بنظم اللهجة الحسانية تُخَلِّدُ حكايات تاريخية مضبوطة . أما عن الأدب بصفة عامة فالشعر هو سيد ساحته وركيزة كل مكوناته في كثير من صوره ، وإننا نستطيع القول إن هذا النمط بقي متحكما في صحراء كل دولة عربية ، والمغرب واحد من تلك الدول ، هذا هو الشفيع الوحيد لكل من أراد إفراز جهة معينة من أية دولة ليخصها بالحديث في

موضوع ما عن بقية مجموع ترابها الوطني ، وهذا هو الذي يمكنني من التعريف بشعر صحرائنا المغربية الجنوبية دونما حديث عن بقية أدب الوطن كله ، نريد أن نقول إن المدرسة كانت واحدة ، والجامعة في القرويين والمنهج الدراسي في الرباط وسلا ومراكش وفاس ظل هو نفسه في الصمارة وطرفاية والعيون والداخلة ، وكذلك الأغراض عندما نخرج منها ما يتسم بطبيعة الصحراء بقيت واحدة ، وهذا سنلاحظه في التمسك بأمجاد العرش العلوي والتعلق به تشبثا أمام محاولات الاستعمار بضرورة احترام وحدة الوطن . مع أن الشعر العربي في الصحراء المغربية استمد مقوماته من الشعر العربي الجاهلي فظل نسخة منه شكلا في جميع أطواره وجوهرا في أغلب أحواله ، فمن استقصى شعر الصحراء ومد طرفه في آفاقه الواسعة سيجد أن مراحل تطوره ، من حيث بعض المضامين ، ظلت متمسكة بالتأثر بالجيد من شعر العرب الجاهلي ، مع ما أدخلت عليه النزعة الإسلامية من تهذيب ورقة وسمو في بعض أشكال التعبير من رقة وتجديد ، فما اشتمل عليه الشعر الجاهلي من خصائص فنية ظلت عبر الزمن تشع جمالا ، دثارُها أصالةٌ فنيةٌ مُتأصِّلة ، ومَعينُها تَدَفُّقٌ من شعور خصب أرهف حسه ما تعاقب من رصد جماليات الحياة وتدافع الحضارات وتلون البيئات ، حتى وصل إلى الغرب الإسلامي يجر تجربة ملايين السنين ويحمل روح الإسلام النقية الطاهرة ، فتمسكت المدرسة الأدبية في الجنوب المغربي بذلك الشعر مصدرا لا يمكن أن تحيد عنه قدم شاعر ، ومرجعا ، حتى أن

بعضهم كان ينسج على منوال شعر الجاهلية فيوهم السامع أن هذا من شعر أولئك القوم فتختفي اللغة والأعلام فيتأكد السامع أن هذا من شعر الجاهلية لا تجديد ولا تنوع ، فقد انحصرت جل أغراض شعرهم في المديح والغزل والحنين والحكمة والرثاء، وقل عندهم الهجو والوصف وتميز بأنه اتبع منحى وصف الديار ، والسفر ومجاهل الصحراء .

ويظل الغزل والمديح سيدا قرض الشعر عند أولئك الذين انحصرت مشاركتهم الأدبية في الشعر وحده ، فالمقالة والْقصَّةُ قلت جدا في أدبهم ، لكن أغراضها تناولها الشعراء ، ذلك أَنهم يفضلون أعداد إنتاج الأديب إذا كان منظوما على غيره ، ولعل ذلك هو سبب بروز القصة الشعرية في شعرهم ، حتى إِن منهم من كان يبتكر قصة خيالية ثم ينشئ عليها شعرا ، ومن ذلك ما وقع في مدرسة شيخ التصوف والنحو والحديث الداعية الكبير ذؤابة المجد الشيخ حرمة بن عبد الجليل العلوي[1] ، إذ ادعى محمد بن العباس من قبيلة أبناء أبي الحسن أنه لا يسمع بيتا من الشعر إلا وروى القطعة التي هو منها وذكر الكتاب الذي هو فيه ، فتصدى له حبيب بن أمي العلوي فسأله من القائل :

لو كنت أبكي على شيء لأبكاني   عصر تصرم لي في دير غسان

فقال ابن العباس نسيت قائل هذا البيت وهو من قطعة أعرفها في حماسة أبي تمام، فأخذوا الكتاب ففتشوه ورقة ورقة

1) حرمة بن عبد الجليل من الأفذاذ الذين عرفتهم شنقيط علما وولاية ومحتدا، وهو شيخُ كثيرٍ من أعلام ذلك البلد في القراءات والنحو والعربية والأصول ، وهو من العلويين القبيلة المشهورة بعلمائها وشعرائها ، وتعزى بعض الروايات هذه الأبيات لغالي البصادي

فلم يجدوا فيه البيت ، فقال لهم حبيب ابن امي ها هي بقية الأبيات وأنشد :

دَيْرٍ حَوَى مِنْ خُمُورِ الشَّامِ أَجْوَدَهَا   وَسَاكِنُوهُ لَعَمْرِي خَيْرُ سُكَّانِ

أَقَمْتُ فيهِ عَلَى اللَّذَّاتِ مُعْتَكِفًا   حَتَّى نَسِيتُ بِهِ أَهْلِي وَأَوْطَانِي

دَهْرًا يُدِيرُ عَلَيْنَا الرَّاحَ كُلُّ رَشا   خَمْصَانَ غَصٍّ بِزِنْدَيْهِ سِوَارَانِ[1]

هذا يوضح سرعة البديهة عند أولئك القوم كما يكرس ظاهرة تعاطي القصة بالنظم بدل الشعر ، ومن أمثلة اقتصار تعاطي القصة نظما ما وقع للشاعر عبد السلام بن الشيخ مفتاح[2] ، كان جالسا مع قوم يتكلمون بالبربرية السوسية ولا يدرون أنه يعرفها ، فلما انتهوا من الحكاية نظمها شعرا قال في مطلعه :

سَقَاهَا غَيْرَ شَاعِرَةٍ رَحِيقَا   لِيحدث فِي تَحَصُّنِهَا خُرُوقَا

إلى ءاخرها ، وهكذا ظل هذا الشعر يمثل نسخة طبق الأصل من شعر العرب الجاهلي .

ويمكن الكلام على الشعر العربي والحساني بالصحراء المغربية من جنوب إقليم أگدير وتحديده من خلال المنهج

---

1) إحدى قبائل الزوايا المعروفة بعلمائها وشعرائها وهي وقبيلة إداو على توجدان في أرض موريتانيا الشقيقة . هذه القصة أوردها العالم الجليل والشاعر الكبير الباحث المؤلف الدكتور المختار بن اباه في كتاب الشعر والشعراء

2) عبد السلام بن الشيخ مفتاح من مواليد الصمارة وتلقى بها تعليمه في مدرسة جده الشيخ ماء العينين ، وكان عالما شاعرا عابدا ورعا أديبا بارعا ، تعاطى القضاء ، وهو من المجيدين للشعر العربي والأدب الحساني

التاريخي في ثلاث طبقات ، أولاهما مؤسسة وناقلة ، والثانية مؤصلة ورابطة ، وثالثة تجسد تحولا ، أما المنهج الثاني فهو المنهج الفني الذي تحدد من خلاله الأغراض والخصائص والمكانة الأدبية للشعر العربي لمنطقة تميزت بمؤثرات اجتماعية مغربية عامة ، وظروف بدوية صحراوية خاصة نشأت عن التنقل والاختلاط بمجتمعات متنوعة وما يجر ذلك في بعض الأحيان من فراق وتشتت ، لكنه أيضا أغنى اللغة عن طريق السفارات ، ومع ذلك فقد ظلت هذه العرب رحلا تنتجع مواقع القطر ، ولكن تلك البداوة أصلت فيهم الاعتزاز بالنفس والتمسك بالحرية . وفي هذا الجو نشأ الشعر العربي الجاهلي ، والذي سيمده الاسلام بسمو في التعبير الأخلاقي وتهذيب في الطموح النفسي ، على أنه لم يستطع استلال قسوة التعبير المستمدة من جفاف الصحراء . وإذا كان الشعر العربي سندنا فيه هو الرواية ، فإن بعض شعر الصحراء يكاد يشكل اضطرابا في صحة الرواية أيضا ، لأن منهم من كان ينشئ قصيدة يذكر فيها معالم وهمية وينسبها للجاهلية ، ولا يكاد السامع يفرق بينها وبين شعر أولئك القوم ، وهو الشيء الذي رأيناه في أبيات ابن أمي السابقة ، إذ اختبر بواسطتها راويةً ليبين له أنه يحفظ في حكاية واحدة ، ثم ينسج قصة خيالية على كل رواية سمعها ، ومثل تلك الحكاية كثيرة في ذلك التراث ، وسيظهر ذلك جليا من خلال الفقرات القادمة .

المبحث الأول - الطبقة الأولى

سبق أن قلت إن هذه الطبقة كانت مؤسسة للمدرسة الشعرية في الصحراء المغربية ، وذلك لعدة أسباب يخرج سردها عن موضوع كتابنا ، وذلك يبرر استشهادنا بشعراء سلالات معينة دون غيرها ونبدأ بإعطاء نماذج من شعر كلِّ طبقة على أن يكون التعرض للخصائص الفنية ومستوى ذلك الشعر مبحثاً يضم تلك الملاحظات جميعاً .

1) مَحمد بنُ الطلبة بن الفغ مُوسى اليَعقوبي : يَنْتَهي نسب قبيلته بذكر الوسيط إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب قد أخذ قصب السبق في التضلع من اللغة ومتانة الشعر واقتفاء آثار شعراء الجاهلية والتأسي بحياتهم ، وقرض الشعر في نفس الأغراض التي انحصر فيها شعر العرب : الحنين إلى الديار ، والتغني بالأمجاد ، والتغزل على المرأة ، ووصف وعثاء السفر ، فلقد كان شديد الاهتمام بعلوم العربية حتى إنه يحكى أنه كان لا يبيت ضيفا على حي بالصحراء ما لم يكن عندهم قَاموسُ الفَيْروزبادي ، وهذه نماذجُ منْ شعِره .

▢ المعارضة

من أجود شعره جيمية يتغنى فيها بديار ذويه في أرض تيرس تقع شرق مدينة الداخلة بحوالي 150 كلم .

ويحكى أنه لما فرغ من جيميته تمنى أن ينشدها هو والشماخ بن ضرار في ناد من أندية اللجنة ليحكموا بين الجيميتين أيُّهما أجْوَد ، وجيميةُ مَحمد المذكور منها :

تطاول ليل النازح المتـــهــيج — أمَا لضياء الصبح من متبلج
ولا لظلام الليل من متزحزح — وليس لنجم من ذهاب ولا مج
فــيــامن لليل لا يزول كـــأنما — تشد هواديه إلى هضبتي اج
كأن به الجوزاء والنجم ربرب — فــراقــدها فــي عنة لم تفــرج
وتحسب صبيان المجرة وسطها — تناويرازهار نَبَــتْنَ بـهــجــهج
كَأَنَّ نُجُومَ الشِّعْرَيَيْنِ بِمَلْكِهَا — هَجَائِنُ عقرى في ملاحب منهج
فبات يُمَاني الهم ليلي كـأنه — بِبَرْحِ مقام الهم في أَضْلُعَيْ شج
فلو كان يفنى الهم افنى مطاله — همومي ولكن لج في غير ملجج
اذا ما انتحاها منه قطع سمت له — أفانين هم مزعج بعد مزعج

إلى أن قال

سرى يخبط الظلماء من بطن تيرس — إليَّ لدى ابريبيـر لم يتـعـرج
فلم ار مثل الـهم هما ولا ارى — كليلة مسرى الطيف مَدْلَجَ مُدْلِجِ
وذكرة اظعــان تربعن بـاللوى — لوى الْمَوْجِ فالخبتين من نعف دوكج
إلى البئرِ فالحواء فالفج فالصوى — صوى تشل فالأجواد فالسفح من إج
تحل بأكنـاف الزفـال فتـيرس — إلى زيز فالارويتين فـالأعرج

نحا فيها هذا النحو يعدد أعلام تيرس ويذكر أيام صباه وأمجاد قبيلته ، مازجا بين النسيب والفخر بأسلوب تمسك بالجمع بين الاستعارة والتَّشْبِيهِ ، والمجاز والحقيقة بصور فنية غاية في الجودة ومتانة الشاعرية ، ولا ملاحظة عليه إلا أنه شعر يمثل بيئة بدوية حزينة .

أما جيمية الشماخ بن ضرار الغطفاني الصحابي ، التي عارضَها مَحمد فَمِنها :

ألا ناديا أظعـان ليلى تعـرج	فقد هجن شوقا ليته لم يهيج
أقـول وأهلي بالجناب وأهلها	بنجدين لا تبعد نوى أم حشرج
وقد ينتئ من قد يطول اجتماعه	وتخلج اشطان النوى كل مـخلج
صبا صبوة من ذي بحار فجاوزت	إلى آل ليلى بطن غول فمنعج

إلى أخرها

ومن مُعارضَته أيضاً أيْ مَحمد بن الطَّلْبَ

تاويه طيف الخـيـال بمريما	فبات معنى مستجنا متيما
تأويه بعد الهـجـوع فـهاضه	فأبدى من التهيام ما كان جمجما
لطاف بها حتى إذا النفس اجهشت	وأبدتْ بَناناً لي خضيباً ومِعْصَما
ووجـهـا كـان البدر ليلة أربع	وعشر عليه ناصعا قد تهمما
تولى كـأن اللمح بالطرف زوره	وكان وداعا منه أن هو سلما

إلى أن قال يصف أعلام الأماكن التي مر منها:

سلكن جـواء الفج ثم تطلعت	من الصخرة البيضاء نجدا مهضما
جعلن قنان الوطس نصب عيونها	وَكَانَ لَهُنَّ الْوِطْسُ قِدْماً مُيَمَّمَا

وبعـد وصف المحـبـوبة والأطلال والدمن أخـذ فـي وصف البزل والهوادج ورباتهن فقال :

عسى الله يدني بعد فراقهم	فيانس صب بعد حزن وينعما
فـهل تبلغنيـهم نجـائب وخـد	شوازب لا يبقين لليل محرما
نجائب لا يعظمن للهول كلما	تغول مجهول التنائف معظما

وفي المقطع الأخير وصف شيبه وتنكر الغواني له وعدم اكتراثهن به ونِسْيانهن لماضيه الغني بالمآثر ، ومما قال في ذلك :

الا عجبت جمل سفاها وما رأت	بديئا لِشَيْبٍ بالمفارق معلما
وقد زعمت أني كبرت وأكبرت	صباي ولم تنقم لَعَمْرُكَ معظما
وقد هزئت لما رأتني شاحبا	وهنت عليها بعدما كنت مكرما
الم تعلمي أن لا غضاضة أن يرى	كريمٌ بِبَيْضاء المحاجرِ مُغْرَما

إلى آخرها إذ أجاد في مدح نفسه وذكر ماضيه ، ذاكرا أنه حافل بالغرام والكرم والتغني بالجمال وذكر مفاتن الحسان، لكن بَيْتَها الأخير يعبر عن إسلام صاحبنا وعلو همته ، ويبين أن هذا النوع من الشعر أنشأه لتخليد مكانته الشعرية وقدرته على حذو العرب في السبك ، وذلك عندما قال:

وَمَا اليُمْنُ إلا البرُّ والعدل والتقى	ومَا الشُّؤمُ إلا أنْ تخُونَ وتأثَّمَا

أما القصيدة الميمية التي عارضها فهي قصيدة حميد بن ثور الهلالي الصحابي رحمه الله ومطلعها :

الا هيما مما لقيت وهيما	وويحا لمن ألق منهن ويحما
أأسماء ما أسماءُ ليلة أدلجت	إلي وأصحابي بأي وأينما

نكتفي بهذا المطلع منها لأن الذي يهمنا هو توضيح كيف كان مَحمد ابنُ الطلب أولَ شاعر تَعرفُه الصحراءُ مفتوناً بشعْر العرب لا يرضى عن نفسه إلا إذا نسج على منواله ، ومن هنا انحصرت أغراض شعره في المواضيع التي شكلت أغراض

شعر الجاهلية وهي كما قلنا الغزل والوصف والفخر والمدح ، إلا أنَّ مَحمد لمْ يَمْتهنْ المدح .

2) مولود بن احمد جْويد من قبيلة مَحمَّد المتقدمة ، وسكن معه في نفس منطقة تيرس من وادي الذهب ، وكان سليط اللسان ، واضح البيان ، غزير اللغة ، فقيها في النحو ، كثير المدح النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف معاصروه في الحكم عليه هو ومَحمد أيُّهما أشعَر ، ولم يُحْسَمْ في هذا الموقف إلا عندما كتب محمد الأمين العلوي كتاب الوسيط حيث ترجم للاثنين وفضل مَحمد ، ولعلَّ المتأخرين بعدَه سلكَ جلُّهم هذا المسلك . وفيما يلي نماذج من شعر مولود هذا ، قال في مدح النبي صلى اللّه عليه وسلم :

أزكى صلاة وتسليم على قمر بدر به قد أنار الله أكـوانه
أزكى صلاة وتسليم كذاك على خير قد اختاره الرحمن عبدانه

إلى أن قال :

قالوا أشمسا ترى تمشي فَقُلْتُ لهم ترون انسانة كالشمس حُسَّانَهْ
لها مصائد تصمي محاسنها تصيد الصيد لاهيقا وَبَيْدَانَهْ
ترنو اليك بمغضوض كما نظرت مَزْؤدة أمُّ ساجي الطرف جيدانه

إلى أن قال :

لما رأتنيَ منْ فَرْطِ الْغَرامِ بها بَعْدَ ارْعوائي عميد القلب حَيْرَانَهْ
قَالَتْ أَحَافِرَةٌ منْ بَعْدِ زاجِرَةٍ منْ علْمِ مَا شَانَ ذَا التَّقْوَى وَمَازَانَهْ
فَقُلْتُ لاَتَعْجَبِينَ مِنْ أمْرِ خالقنا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أمر اللّه سبْحَانَهْ

إلى أن قال :

قالت فهل لك في حُسْنِ التَّخلُّص مِنْ   مَادَانَ قَيْسُ إِلَى مَا الْمُصْطَفَى دَانَهْ

إلى أن قال :

إِنِّي رضيتُ بِهِ ديناً عَسَاي بِهِ   غَداً أُجاوِرُ فِي الْفِرْدَوْسِ رِضْوانَهْ

دين حَنِيفُ مَحَا الماحي بِهِ وَعَفَا   ءَاثَارَ من كَانَ فِي خُسْرٍ وَأَدْيَانَهْ

وهي طويلة جمع فيها أساليب شعر المنطقة من حيث الأغراض ففيها التغزل والحنين إلى الأهل ووصف السفر ، ثم التغني بالشمائل العليا للممدوح عليه الصلاة والسلام ، وهي ميزة انفردَ بها عن ابن عمِّه مَحمَّد الذي قلَّتْ مدائحُه للرسول ، إن لم نقل أنها لم يعثر عليها في الماضي ، وشعر مولود هذا يَتَمَيَّزُ بروح دينية عميقة يدل على ذلك قوله يحث أبناء عصره على الحفاظ على الصلاة :

أيها الناس للصلاة أقِيمُوا   واستعينوا بهَا عَلَى كُلِّ بُوسِ

قَدِّمُوهَا وَاخِّرُوا مَا سِوَاهَا   إِنَّهَا فرضُ عَيْنِ كُلِّ أَنِيسِ

قدموها واخروا ما سواها   لايصلي الصلاة غير مجوس

هي ليلاي فرتناي ربابي   هي جملي وميتي ولميس

يريد أن الصلاة لا يمتنع عن أدائها ويوليها بصلاه إلا المجوسي ، ومن مدائحه التي تنبئ عن علو مكانته الشعرية قوله :

صَلاَةُ ربِّي وتَسْلِيمٌ عَلى قَمَرٍ   بَدْرٍ جَلاَ ظُلُمَات الفِتْنَة الدُّعَجَا

خَرَجْتُ ضَيْفاً الى رَبِّي ومَنْ خَرَجَا   ضيفاً إِلَى رَبِّه لَا يَلْتَقِي حَرَجَا

خَرَجْتُ ضَيْفًا إِلَى مَنْ لاَ شَرِيكَ لَهُ   يا رَبِّ وَجِّه إِلَى الخَيْرَاتِ مَنْ خَرَجَا

قِرَايَ عَافِيَةٌ مِمَّا احَاذِرُ مَعْ   قَضَاءِ حَاجِي وأَنْ تُعلى لي الدرجا

هذه نماذج من شعره ، وهي تؤكد معرفته للغة وتمكنه من إجادة الوزن ، إلا أن أغراض شعره محدودة .

3) ومن الشعراء اليعقوبيين من الطبقة الأولى تاريخيا المامون ، فهو من العلماء والشعراء المجيدين واللغويين المتبحرين، يوخذ عليه أَنَّهُ هجا شيخه المختار بن بونا الجكني شيخ النحو في زمنه ، وَكان المختار يتألم لما يسمع شعر المامون فيه لحسن سبكه وشدة وقع هجوه ، ولأنه صدر إليه من تلميذه . ومن شعر المامون قوله :

بَشَّرْ تُمونِي علَىَ أنْ مَسَّنِي الكِبَرُ ... مَلْءَ الجَوَانحِ بُشْرَى دُونَها البُشَرُ

بُشْرَى تَحادَثَ عَنْهَا الرَّكْبُ أنْ زَمعتْ ... بِصَوْبِنَا سَفَراً يَاحَبَّذَا السَّفَرُ

قَالُوا مَنِ المُتَغَنِّي بَعْدَ شَيْبَتِهِ ... فَقُلْتُ هَا نَذَا المامُونُ لاَ نُكُرُ

ومن شعره أيضا :

رُبَّ لَيْلٍ بِجَانبِ الْيَنْبُوعِ ... بِتُّ مِنْ خَيْبَةِ الرَّجَا فِي النُّزُوعِ

وَلَقَدْ سَاءَنِي ولَجْلَجَ هَمِّي ... خَبَرٌ تُرْجِمَانُهُ منْ دُمُوعِ

ومن شعره أيضا :

وبيضا في الملاحة لا تبارى ... ألا فاصْدَعْ بحبكها جهارا

فبينما الناس ينتجعون غيثا ... إذا الماميّ تأتزر ائتزارا

لِهِيَّ الغيثُ أطلب لا سواها ... فلا شول لدي ولا عشارا

ومن شعره في المديح :

طرقت أُمَيْمَةُ بعد ما سلوان ... عن ذكرها لتباعد الازمان

فهببْتُ من طرب الفؤاد لزورها ... فإذا بذاك تَحَالُمُ النومان

فسألت مَنْ في الأرض ينتجع الفتى ... ويؤم منزله الكبير الوان

بمحمد الاسنى الأمين أبى التقى ... نجل المجلل عابد الرحمان

هذه الطبقة كما أسلفنا لم يثر اهتمامها تطور المدارس الشعرية ، في مختلف المنطقة العربية التي شهدت تحولا مهما في تطور أساليب الشعر وأغراضه ، ابتداء من ازدهار الدولة العباسية ، وما نتج عن اتساع ءافاق المثقف الاسلامي ، نتيجة تنوع المرئيات وتتابع اطراد التقدم ، الشيء الذي ساعد في بروز عدة مدارس شعرية أثرت في خروج القصيدة عن رتابة النهج الذي صاحبها منذ القديم ، كما أن أولئك الشعراء المغاربة الصحراويين لم تستملهم النهضة الأدبية التي عرفتها الأندلس ، فبقيت أشعار هذه الطبقة لا يفصلها عن شعر الجاهلية سوى مسميات الأعلام البشرية والجغرافية ، أما ما عدا ذلك فظل موحدا ، ولِذَا أطلقنا عليهم مؤسسين ، لأنهم هم الذين حفظ لهم أول شعر بالمنطقة التي تشكل أقاليم الجنوب اليوم ، لم نستطع تتبع نماذج كثيرة من شعر أعلام تلك الطبقة والمنطقة لما نحن مطالبون به من الخروج عنها إلى شمالها أعني الساقية الحمراء ، لنعرف بأفراد من نفس الطبقة أو بعدهم بقليل لتشمل نماذجنا كل رقعة الصحراء .

إلا أننا نشير حسب المعلومات المتوفرة لدينا إلى أن منطقة الساقية كانت تغلب على سكانها المدرسة الفقهية ، إذ لم نعثر على إنتاج تعرض لأعلامها قبل الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيديا الابييري العالم المربي بن العالم السني المربي ، من شاع ذكره وانتشرت أخباره ، فلقد كان عالما شهرته عمت

أرجاء الصحراء لبذله وعلمه وزهده ، وكان الشيخ سيدي محمد هذا ابنه الوحيد ، فلا غرابة إذا أعده إعدادا يناسب محتده . وسبب تعرضه للأعلام الجغرافية بالساقية الحمراء يقال إنه عزم على الحج ، ولما شق بلاد الساقية الحمراء حتى وصل نواحي سوس عَرَض له عارض ، فرجع بعد أن أنشأ مقاطع يصف بها مناظر الأرض وطبيعتها ويتشكى من عدم انتشار العلم بها آنذاك ، وإذا كان ذلك جله ناتج عن عدم معرفته بأسر العلم ومراكز التعليم ، فإن القيمة الفنية لذلك الشعر تبرر التعرض له في هذه النماذج حيث قال :

طال في اربع القرار قراري ... ليتَ شعْري ما لي وما للقَرار
طالَ مكثي وإنَّ ما طالَ فيها ... باختيار المليك لا باختياري
لم أكن مزمع القدوم إليها ... بل رمتني لها يد الأقدار
سئم القلب بردها ونداها ... وخلاها البليل بالاسحَار
وصفيا بها كحد المواسي ... وجنورا بها كحد الشفار
ليتَ شعري والعَبْدُ ذُو إجْبارٍ ... وهو يبدو في قالب المختار

إلخ .

وهي قصيدة طويلة تمثل الحنين إلى مسقط رأسه .

ومن شعره :

أَحَمْرَاءُ السَّوَاقِي ما ورائي ... الآنَ غَربْتَ أيُّهَا الإنْتشَاء
تَخَالُ نَصيصَ فُتلِ العيس شَهْراً ... يَدُومُ منَ الصَّبَاحِ إلى المسَاءَ
وَلاَ يَنْأى بِهِ مَا كَانَ دَانٍ ... وَلاَ يَدْنُو بِهِ مَا كَانَ نَائيَ

ومن جيد شعره قوله :

أَدَمْعاً بُقيَّانِ بِغَرْبِ عَيْنِ	وَقَدْ عَايَنْتُمَا دَارَ الكُنَيْنِ
أَلَيْسَ منَ الوفَاءِ لِقَاطِنِيهَا	إذَالَةُ مَا يُصَانُ بِكُلِّ عَيْنِ
بَلَى إنَّ البُكَاءَ علَى المَغَانِي	بِمِنْهَاجِ الصَّبَابَةِ فَرْضُ عَيْنِ
وَإنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ رَسْمٍ	كَوَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مَعْصَمَيْنِ
فَإنَّ لَهَا يَداً دَيْناً عَلَيْنَا	وَحَتْمٌ أنْ يُؤَدَى كُلُّ دَيْنِ

إلى ءاخرها وهي عصماء طويلة ضمنها كثيرا من الحكم والتوجيه الإسلامي الذي يترجم حسن تربيته وعلو شأنه وسعة إطلاعه رحمه الله .

4) ومن تلك الطبقة الأولى الذين عبروا الصحراء مُحمّدُ ابن محمدى العلوي سليل بيت علم وأدب وشرف ومشيخة ومكارم أخلاق ومآثر يضيق الوقت عن سردها، شريف النسب، كريم المحتد ، ثاقب الذهن ، تبحر في العلوم وهو صغير حتى إنه يشاع بأنه بلغ فيه مكانة لم يبلغها أحد من معاصريه ، ومن نماذج شعره قوله :

تجلّدْ جُهْد نفسك للْفراق	وكفْكفْ غرْب سافحة الْمآقي
وجرّدْ من عَزيمكَ ما يُوازى	مُترّات الْمُهنّدة الرقاق
ونكبْ عن مقال أخي الْهُوّيْنا	وعنْها فهي خاسرة الصّفاق

إلى أن قال :

أأحبّابي أعاد اللّه منّي	ومنكم بعد فرقتنا التّلاقي
إلى أرض الحجاز احلْتُ عنكم	صفيحة وجه وجْدي واشتياقي

إلى أن قال :

الى البيت العتيق بنص احدى   عتاق الكوم أو أحد العتاق

السبب الذي جعلنا نخصه من بين كثيرين تركناهم من شعراء الشناقطة هو كونه قطع الصحراء مثل الشيخ سيدي محمد ، ذلك أن علماء ذلك البلد وشعراءه في تلك الفترة كان لا يذهب أحد منهم إلى الحج إلا بعد أن يقدم على السلطان بالعاصمة المغربية ويقدم إليه البيعة هروبا من الوعيد الوارد في الحديث الشريف : «من مات ولم تكن في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» ، ثم يمتطي البحر بالمجان إنعاما من السلطان لأداء فريضة الحج ، وكان ابن محمدي من هؤلاء ، وفي هذه الرحلة قال حسانا من غرر الشعر العربي في غرض المديح والتغزل ووصف الناقة والسفر ، ومن بينها قوله :

هل في بُكانا نَازحِ الأوطان من باس   أم هل لداء رهين الشوق من آس
أم هل معين يعين المستهام على   ليل كواكِبُه شُدتْ بأمراس
آه لمغترب بالغرب ليس له   جنس وإن كان محفوفا بأجناس
عل الإمام بفضل الله يمنحه   رحمى فيكشف غمَّ الآسف الآسي
أقول والركب محزون بوحشتنا   صبرا فكم وحشة افضت لإيناس
اذا وضعنا بأرض الغرب أرحلنا   راح الرجاء علينا طارد الياس
اني كفيل بنيل السؤل لي ولكم   إما بمراكش المحروس او فاس

أمامنا في كلا المصرين نورهما إمَامُنا المستماح المطعمُ الكاسي
خليفة المصطفى وهو ابن بضعته ثوبا من المجد لم يعلق بادناس
الله منك حقوق الناس قلدها يقظان لا غافل عنها ولا ناسي
عمّرْت عُمرْت من عهد الشريعة ما باض النعام بدور منه اد راس
داركتها بعد ما مالت دعائمها فاستحكمت واطمأنت فوق أساس

هذه البديعية قالها في مدح السلطان الأجل مولاي عبد الرحمان بن مولاي هشام العلوي .

وأثناء مدته في ضيافته عند وزيره ابن أبي سته ويسأله حسب رواية الوسيط التوسط لدى السلطان ليعجل له هو ورفاقه بالسَّفَر إلى الديار المقدسة ، فقال :

آثار من التَّذَكُّرِ حين زارا خيالٌ من أمَيْمَةَ ما أثارا
سرى بعد الهدو فما اعيرت قلوب العاشقين كما اعارا
وكم بعث الخيال لذى انتزاح نزوعا للاحبة والدكارا

ومنها :

إلى مثل ابن أحمدَ فليُسافرْ أخو العزمات أو يدع السفارا
همام سل صارمه ليحمى من الحق الحقيقة والذمارا

إلى أن قال :

وشيد للحقيقة من زوايا تعاطى الذكْر ارْفعها منارا
له خلق يُديرُ مدى الليالي عليها من معارفه عقارا

هذه مقتطفات من شعر قدماء مؤسسي المدرسة الشعرية بصحرائنا المغربية أوجزتها جدا وضيقت عدد أصحابها رغبة في تجنب التطويل المفرط .

وهذا الشعر كما شاهدنا من هذه النماذج بقي يتحرك في نفس الساحة التي تحرك فيها شعر الجاهلية من حيث الأغراض والتعبير والخصائص وضيق الأفق ، ذلك أن الخيال لا يطمح لشيء أكثر من تقليد أولئك القوم ، وبهذا إذا كانت تلك المدرسة تميزت بجزالة وقوة شاعرية أصحابها ، فانها تعد متخلفة عن التطورات التي أصبحت الساحة العربية آنذاك تشهدها ، حتى ولو لم يكن في تجديد الأهداف والطموح ، وتنوع الأغراض ، فإنه على الأقل في الأسلوب وطرق التعبير واختيار الألفاظ ، غير أن الواقع الذي لا يقبل الرد المعاكس هو أن تلك الفئة من شعراء الصحراء امتازت بتبحرها في اللغة العربية وحسن تقليدها للشعر العربي أيام الجاهلية ، ولذلك لا يمكن ان ينقص منها عدم تعبيرها عما لم تعرفه بلادها ، ولم تصلها عنه أخبار ، وعلى أي حال فسيبقى أصحابها أساتذة من يأتون بعدهم في هذا الفن .

المبحث الثاني ـ الطبقة الثانية

بزوغ شمس الشعر بربوع الساقية الحمراء كما يقال ليس للعلم حدود وليس للأدب انتماء وليس للمعارف سلالة ، هذه المسلمات تبرر عدم استشهادنا بنماذج من كل الانتماءات ، إذ لم نجدها ، وتَنْفي عنا تُهمةَ التعصُّب إذا نحنُ لم نَستشهدْ إلا بِمَنْ وجدنا لهم أثرا شعريا مهما كان عرقهم .والحقيقة أن شعر هذه الطبقة تتقاسمه بادية الداخلة «تيرس» مع حاضرة الصمارة ، وهو لا يخرج من حيث الأغراض كثيرا عن أغراض

شعر الطائفة الأولى ، بل يكاد يكون نسخة منه إلا في القليل الذي يتمثل في تطور التعبير ، والتقرب من طبيعة الحضارة ، وما تحمله من رقة وعذوبة في أساليب النظم ورهافة الشعور وتقريب المرئيات . وسنلاحظ ذلك في كثير من شعراء الصمارة التي ازداد تأثر شعرائها بأسلوب الشعر داخل الوطن وذلك يرجع لعدة أسباب منها كون مؤسسها الشيخ ماء العينين كان نائبا للمخزن في تلك الجهة ، مما يحتم عليه الانتقال كل سنة من أقاصي الصحراء إلى عاصمة المملكة ، وفي غالب أسفاره يكون معه كثير ممن تعتمد عليهم الدولة في تلك الجهة ، فأكسب هذا التواصل نوعا من الاندماجية الفكرية أكثر من ذي قبل ، وأصبح العلماء والشعراء حاضرين في كل المناظرات العلمية والشعرية بفاس أو مراكش ، يترجم ذلك الاندماج موقف العتيق من نزا ع وقع بين أحد أئمة فاس وأحد قضاتها فلقد رقى الإمام يهودية ، فبلغَ ذلك القاضي ، فهدَّدَ الإمامَ وأَوْعَدَه بأنه إنْ لمْ يتراجع ويتب من ذلك فسيزيله من الإمامة ، فاحتجب الإمام مدة ألفَ فيها كرّاساً ضمَّنَه جميعَ الآثار التي تبيحُ ذلك ، معَ أن سيدي المهدي الوزاني أجاز ذلك في بعض حواشيه ، ولذلك أنشأ العتيق ، وهو ابن عم الشيخ ماء العينين وابن أخته ، القصيدة التالية :

أيا علماء الدين من كان منكرا ... فلا ينكرن إلا الذي كان منكرا
فما وجه انكار لفعل موافق ... لما فعل الفاروقُ ياعُلما القُرى
وقد كانَ خيرُ الخَلْقِ صلَّى إلهُنا ... عليه ومعه الصحب من قبل قررا
فتهديدكم بالحبس شخصا مقلدا ... اولئكم الأقمار ظلم بلا امْترا

إلى ان قال :

الا فاحكموا بالحق في الناس كلها ولا تتركوا في الدين شيئا مُغيرا
وخلوا أناسا لا تبيع لدينها ولا تبتغي فيه الجدال ولا المرا
ويكفيهم زجرا عن الفحش والخنا مخافتُهم مَن كانَ أقوى وأقدرا

ومما يقوي الدليل على إحكام وشائج الاتصال الأدبي في تلك المرحلة ، وعن طريق تلك الطبقة من الشعراء ، جواب هذه القصيدة برسالة نثرية ، وتضمينات في غاية الجودة كتبه الفقيه العالم البارع الحد نواب ذلك القاضي وهو محمد بن اَجَّ التمسماني فقال :

"بعد الحمدلة والصلاة عليه وسلم وعلى آله وعلى السيادة التي يَقْصُرُ دونها كل متطاول ، ويخضع لعلو منصبها العالم والجاهل ، المعنية بقول الصادق الذي بين كتفيه شامة ، المنزل عليه لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة ، سلام ألذ عند النفوس من النسيم ، مختوم ختامه مسك ومزاجه من تسنيم ، وبعد فقد وافتنا خَريدة تزف زفيف الاقحوانة في نداها ..." وبعد استطراد أبيات في مدح تلك القصيدة قال بالحرف : ثم إن الحق ما قلتم ، والعذر لفقيهنا فلعله لم يطلع على المسألة تفصيلا ، وغضوا الطرف واصفحوا .

ومن شعر العتيق هذا الأبيات التالية :

قُلْ للامير الذي بعدله اشتهرا بين الملوك وبين سائر الامرا
لاتكفرن نعما أتيتها فلقد خاب الّذي نعم الاله قد كفرا
فاللّهُ نعمتهُ ما ان يُغيرُها حتى يُغيرها أربابُها بطرا

الى ان قال :

هذى بلاد سليل الملك أكرم من	يَسْعَى إلى الخير والإسلام ما ضَجِرا
فهم نجوم الهدى تيجان هامته	وخير ابناء اسماعيل ماظهرا

قالها سنة 1884 وقد ألقى مجاهدون من قبيلة أبناء دليم الأشاوس القبض على أحد الرعايا الإسبانيين بشاطىء وادي الذهب ، فقدموا به للشيخ ماء العينين بالسمارة ليُسلِّمَه للسلطان ، وكان أحد الأمراء في تلك الجهة يرغب في أن يسلم له ، فأنشد العتيق هذه القطعة مبينا أن الكل رعايا ملك المغرب وينبغي أن يسلم على يد أقرب أعوانه .

ومن هذه الطبقة الشاعر عمر اللمتوني يمدح آل البيت :

باتت على عذلي أسماء تلحيني	على محامد للعلياء تدنيني
وما دَرتْ انني مُدْنٍ لصَاحبِها	مُقْصٍ لما عنْ فعال المجد يُقصيني
قلتُ اتركي اللومَ أسما إنني رجلُ	علا المحامدَ أصبيها وتصبيي
ان بعت ويك دنانيري بمكرمة	لها محامدَ بعد الحين تحييني
فلا ابالي بافلاس يزول غدا	اسماء عند لقاء الهاشميين
قوم اذا استمطروا جادت أكفهم	للسائلين عطاء غير ممنون
من دوحة شرفت طابت ارومتها	فاينع الجذع من طيب الزراجين
هم صخرة الله في الأرضين قاطبة	ما ان لها صخرة في عالم الطين

ومن أعلام هذه الطبقة علما وشعرا وتدريسا وزهدا وصلاحا وتبحرا في شتى الفنون أحمد بن محمد سالم يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

أتذرى عينُه فضضَ الجمان ... غرا ما من تذكرها المغاني

مغان بالعقيق الى المنقى ... الى أحد تذكرُها شجاني

امن تذكار منزلة بسلع ... الى الْجمّا تعاني ما تعاني

فهل عزم يصول على التواني ... وهل بعد التباعد من تداني

وهل اغدو بكور الطير رحلى ... على وجناء ذو سرة هجان

تبذ العيس لاحقة كلاها ... وتطوي البيد محكمة اللَّدَان

ومن شعره أيضا :

سرى طيف من يهوى فعاوده الجهل ... وثار لمسراه الوساوس والخبل

فدع عنك ذا واذكر خلال مشائخ ... بذكرهم سحب السعادة تنهل

فمدحهم غنم وحبهم هدى ... وخدمتهم زين وصحبتهم فضل

بعيشك روحني وشنف مسامعي ... بما اسْطَعْتَ من ذكر الذي همْ لهُ أهْل

لقد ورثوا المختار من آل هاشم ... ولا عجب في ارث والده النجل

هم القوم من يشهد مجالسهم يفز ... فثق بالاماني ان يصلك بهم حبْل

ترى كل فدمٍ جاهل ذي غباوة ... متى ينتسب يوما لعليائهم يعلو

إلى آخرها يصف بها مجالس العلم وحلقات الذكر وحماسة المجاهدين في الصمارة عندما شكلت قاعدة متقدمة للذب عن حوزة الوطن فأصبحت مأوى الكثير من عشاق الجهاد وطلاب الفضيلة ، فتميز مجتمعهم بخدمة شتى فنون المعرفة ، فبسط عليهم العرش العلوي أردية الاحترام وسحائب النعم على يَد نائبِه بانيها الشيخ ماء العينين ، ممّا جَعَلَها تَستقطبُ أكبرَ تجمع من العلماء والشعراء والمجاهدين من مختلف السلالات بالجنوب المغربي ، فأصبحت محل تباري شعراء العربية والحسانية ، حتى إنَّ الإنسان إذا أراد أن يتكلم عن الشعر

العربي في منطقة الساقية الحمراء ، لن يجد غير ما قيل في العرش كمديحيات ، أو تشجيع المجاهدين والحديث عن علمهم وشكر اعمالهم في تلك الربوع ، ونحن إذْ نصرف وجهنا عن التحليل السياسي لمضامين إنتاج أولئك الأمجاد ، فلا نجد غيره أثناء سردنا لنماذج الشعر العربي في تلك المنطقة وخلال تلك المدة وما قبلها ، ولهذا فنعتذر مسبقا لكل من رأى خصوصية مواضيع وأغراض هذه النماذج ، ومن تلك النماذج ما قاله العالم بن العالم الورع بن الورع الأستاذ بن الاستاذ عبد القادر بن محمد بن محمد سالم :

سرى الطيف من أسماء يفْرِي الدياجيا ... فيا عجبا للطيف كيف اهتدى ليا
ومن دونه فيح مهامه قفرة ... يضل بها من كان للركب هاديا

إلى أن قال :

فدع عنك ذكر الطيف واللهو والصبا ... فإن نذير الشيب يكفيك ناهيا
وشمر وشد الْعزْم وامض لطيْبة ... وأرْحِلْ لها كوماً عتاقاً نواجيا
نجائب اشباه الحنايا معدة ... عليها رجال يطلبون المعاليا
يؤمون غيثا للانام وملجأ ... يؤمون بحرا للمعارف طاميا

هذه النماذج لا يتغير فيها غير أسماء الشعراء ، ذلك أنها تعبر بنفس التعابير ، وتصف مرئيات موحدة ، وتشكل مدرسة واحدة من حيث متانة اللغة والدرجة الفنية للوزن واختيار القافية ، ومن هذا المنطلق يكاد الباحث لا يجد أي تبرير لسرد كثير منها للتدليل على أنها نسخة طبق الأصل من الشعر الجاهلي ، كما يلاحظ ضيق أفق المجالات التعبيرية المتوفرة للشاعر ، مما جعل شعر تلك الطبقة جميلا من حيث الرنات

الموسيقية ، قويا من حيث اللغة والقواعد النحوية ، فلم يقيد قائلوه البحث عن القافية ، ولا أذهب بريق جماليات شعرهم إخلال في الوزن ولا استعمال كثير من الضرورات ، هذه العناصر كلها توفرت في تلك العطيات الشعرية بروعة لا تقل جودة عن إنتاج أحسن المدارس الشعرية التي تناولت نفس الأغراض ، إلا أن الملاحظة التي تفرض علينا نفسها ونحن ندرس شعر تلك الفترة هو أننا نبقى نردد وصف الناقة ، والمحبوبة ، ووعثاء السفر والحنين إلى الأهل ، وتخيلهم من خلال الوقوف على ديارهم ، وهي بيد البلا نهب ، ليفاجئنا الشاعر بالتخلي عن هذا كله بالتغني بشمائل ممدوحه ، إلا أن مدحهم في تلك المرحلة أيضا يشفع لنا في قبول كثير منه أنه لم يكن من أجل التكسب ولا طلب الحماية البدنية أو المالية ، وإنما كان جله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر شمائله الحسان ، وذلك عبادة ، وإما سرد تلميذ لمحاسن شيخه وتحريضا لمعاصريه ليحذوا حذوه حفاظا على العلم ، أو تشجيعا على الجهاد أو مؤازرة لمن شد الرحال وتحمل وعثاء السفر ، ليقدم على حاضرة المملكة ، ثم يقدم البيعة باسم سكان تلك المناطق للسلطان ، إذن فسمو المقصد يشفع في تكرار هذه الأغراض .

عندما نتعرض لنماذج من شعرهم ، يشفع له هذا عندنا وعند غيرنا ممن عرفوا الحوافز التي حملت أولئك الأعلام على هذه الأغراض التي رأينا ، فَهْيَ إن لم تزده تمجيدا لهم ، فإنها على الأقل تمحو عنهم وصمة الإكثار من المديح والتغزل ووصف

شح الطبيعة التي عاشوا تحت عواملها ، ومن أولئك الشعراء محمد الأمين اليعقوبي الذي قال في قصيدة جمعت هذه الملاحظات ، ففي البكاء على الأطلال قال :

امن دمنة بالسفح دارسة الربع	تظل سخين العين منهمر الدمع
بِدُورٍ من الأطلال في عرصاتها	نديم الاسى تشكو الى ركد شفع
فان تَكُ قد اقوت فكم غنيت بها	مفصمة الخلخال مالئة الدرع
مخصرة الاوساط قتالة الهوى	يميل إليها الطبع من كل ذي طبع
مؤشرة الاسنان حو شفاهُها	اناة هجان اللون حالكة الفرع
ترد اخا الشيب الحليم الى الصبا	كأنَّ أخَا التسعين منها أخو التسع
كأن على أنيابها بعد هدأة	عتيق الحُميا أو مصفى من الشمع
اذا أسفرت أو ساقطتك حديثها	صددت عن النسوان بالعين والسّمْع

ثم تخلص منها ليستعرض ما يراه من شمائل حسان في ممدوحه الشيخ ماء العينين فقال :

ولا غرو ان اغنى عن الجمع مفرد	فذا الشيخ فرد وهو يغني عن الجمع

فهذه القصيدة كما رأينا تناول صاحبها وصف مفازات الصحراء ، وقوة قلوصه ، ثم شدة حنينه إلى أهله ووطنه ، وبكى على حبيبته ، وذكر مفاتنها ، ثم تخلص من هذا تأسيا بعادة العرب ، مباريا بذكر ما يراه من خصال حميدة في من رآه أهلا لمديحه .

نكتفي بهذه النماذج من الطبقة الأولى تاريخيا ، لنستعرض صورا من شعر الطبقة التي تلتها تاريخيا ، على التقسيم الزمني ، الذي لا نقصد من ورائه المفاضلة أو الترجيح، بل نريد فقط أن يكون مبررا لاختلاف بعض الصور حسب تجددها عبر الزمن .

المبحث الثالث ـ طبقة شعراء الساقية الحمراء

أول حاضرة تأسست في تلك الربوع هي مدينة الصمارة العاصمة العلمية لكل المنطقة ، وهي مدينة بناها الشيخ ماء العينين بإكرام من ملوك الدوحة العلوية ، ونظرا لظروف تأسيسها ، والقبائل الشريفة التي أسست في بحبوحة مضاربها فإنها ظلت قاعدة للجهاد ، تعتبر الواجهة الأمامية التي منها ينظم العمل الوطني لمواجهة تسللات المستعمرين ، ولذا فإننا سنشاهد أن شعر هاته الطبقة تميز بتحريض الناس على الجهاد ، وشكر ولاة المخزن المغربي بتلك المناطق ، والتوجيه إلى التشبث بالعقيدة الإسلامية والتحذير من التعامل مع المستعمرين ، مع أن الطابع الفني لم يتغير كثيرا ، بل يمكن القول إنه ظل هو هو ، مع توسع في بعض الأغراض كما ستبين النماذج الآتية :

قال سيدي محمد العتيق بن أخت الشيخ ماء العينين وأحد أساتذة الآداب العربية في الصمارة دفين فاس حوالي 1327 :

ادهرك لا تنفك تجري المدامع   بخديك مما قد تجن الأضالع

إلى أن قال :

لَقَدْ كَان لي في الحب ارفع منزل   تناهت فلم تبلغ مداه المطالع

إلى أن قال في وصف ممدوحه :

أيرفعه المولى لارفع رتبة   ويطمع في المرقى لمن هو رافع

ويعمل في الخيرات جدا مسارعا   ويسبق للخيرات وهو المسارع

ومن نماذج شعره قوله يمدح الشيخ ماء العينين :

ارقت لبرق آخر الليل طامس ... وقوميّ حولي بين غاف وناعس

إلى أن قال :

ديار غدا مرعى لها العلم والتقى ... وذكر واخلاص وطرد الهواجس

ديار لأسنى الناس صارت مآلفاً ... فصارت به أسنى ديار الأوانس

ومن تلك النماذج التي يشيد فيها بتأسيس حاضرة السمارة والدور الذي أصبحت تضطلع به كنقطة متقدمة يتصدى منها المجاهدون لقمع التسللات الاستعمارية الرامية إلى اقتصاص ما أمكنها من أجزاء المملكة آنذاك ، وبما أن سلطات الدولة أسندت للشيخ ماء العينين تنظيم تلك الحملات في تلك الأصقاع النائية ، فإنه أصبح بفضل علمه وحنكته ونشاطاته الإسلامية المتعددة محل إشادة من الشعراء الذين استقروا بمدينته .

قال العتيق أيضا من تلك الصور الشعرية الرائعة :

طيفٌ لميةَ زارَ بعْدَ هُجود ... أم هي منك وأنت بعد صدود

وبعد التخلص قال :

ألفى المفاخر قسمت بين الْورى ... قوْم سمتْ بشجاعة كأسُود

وسمتْ بحلم آخرون كما سمت ... قوْم بجود مثل حاتم جود

وسمت بتقواها المهيمن فرْقة ... فجنت من التقوى الذ شُهُود

فتجمعتْ فيه المفاخر كلها ... فسما سموا فوق سعْد سعُودُ

هَذَا ما تحصل لدينا من شعره ، وَقَد انحصرت أغراضه في هذا المجال : تغزل يبتدىء به القصيدة ، ومديح يتغنى فيه

بشمائل ممدوحه ، وإن الفاحص المتجرد لا يكاد يخرج شعر تلك المراحل التاريخية عن هذا المنهج ، حتى أنك إن قرأت منها قصيدة واحدة تتمكن من تحديد الأغراض وأسلوب التعبير والحرص على سلامة الوزن واللغة ، ولم يبق إلا الوجه الجمالي هو الذي يتغير من شاعر الى شاعر ، وهذا هو الذي يبرر عدم استعراضنا لأكثر عدد ممكن من شعراء كل مرحلة .

وللعتيق هذا من هذه الصور الجمالية البديعة قوله :

أربوع عزة قد عفت إطلالها ورسومُها وتغيرتْ أحْوالُها

واستوْحشت بعد الأنيس واقفرت أنجادُها ووهادُها ورمالها

إلى أن قال :

فاذا رنتْ بسواد عيني شادن سلبَ الْعُقُولَ بهاؤها وجمالُها

فكان آجال الرجال بطرْفها فمتى رنتْ ظهرتْ لها آجالُها

عجبا لها كيف استباح دماءنا عبثا بهن جمالُها ومقالُها

أوَمَا دَرَتْ أنا حلالٌ في حمى بمحلة لا يُسْتباح حلالُها

إلى أن قال :

فاذا المسائل اشكلت صوَّرْتَهَا حتى يزُول عن الحجا اشكالُها

وللفقيه العالم ماء العينين بن الشيخ أحمد السباعي في نفس الموضوع والأسلوب والغرض :

اما حان وصل الخود يوما لذي الحب ولا آن للقلب السلو عن الحب

إلى أن قال :

ولا غرو فالأقطاب حقا أئمة وللتابع الأقطابَ ما كانَ للقُطب

هذا شاعر من أبناء أبي السباع الشرفاء المجاهدين العظماء العلماء الأدباء الهداة منهم ماء العينين بن الحَضْرَمي هذا ، وهو عالم عامل شاعر مجيد ، وهو ابن أخت الشيخ ماء العينين ، فمن نماذج شعره قوله في قصيدة أخرى :

إن الْهوى قد عرا قلْبي فأرقني وما عهدت الهوى دهري يؤرقُني

إلى أن قال :

فللشريعة نور يستضاءُ به وللحقيقة نور واضح السنن

ماتت به بدْعة عمتْ بليتُها كما حَيِيَ به ما ماتَ من سُنَن

قطب حليم أديب ماجد ذرب زين الْفعال نقي الْعرض من درن

هذا طابع شعره ، وهذه أغراضه ، فهذه الطائفة من الطبقة الثانية لا يفرق بينها وبين الطبقة الاولى إلا الزمن كما شاهدنا وسنشاهد في النماذج الآتية .

ولم نعثر على شعراء ولدوا على ضفاف الساقية الحمراء ، فوصل إلينا شعرهم قبل مجموعة من مواليد الصمارة ، وكان شعرُهم ابتداءً من الثلاثينيات من القَرن التاسع عشر ، ولما ينبغي أن نتقيد به من محاولة الإيجاز في هذا البحث ، فإننا نعتذر للقارىء الكريم عن التعرض لذكر حياة كل واحد منهم والتعريف به ، إذ سنختصر على نماذج قليلة من شعره ، وتكاد ترجع ءاراء جميع المهتمين بدراسة تراث تلك المدرسة أن الزعيم المجاهدَ العالمَ الفذَّ الشيخَ مُربيه ربُّه يأتي على رأس قائمة شعراء تلك المدرسة لعدة أسباب منها : كثرة الانتاج ، وتنوعه ، وجزالة ألفاظه ، وقوة تعبيره ، ودقة وصفه ، وكثرة أغراضه ،

وعسى النماذج الآتية تجسد بعضا من الصور الجمالية التي اتسم بها شعره ، لأنه يبتكر صورا خيالية يضفي عليها من رداء بلاغته ما يشد القارىء لينفي عنها صفة التخيل ، كما يخلع عليها ثوب الاستعارة ليمنحها حقيقة الصورة بدل التشبيه ، من ذلك جعله المحامد غادة حسناء ، هام بها وأطلق عنان التهيام بحسنها ليبدع فيها غزلا غاية في الروعة ، وهذه نماذج منها :

فلك الهوى في عباب البحر اجراها ذكر الاحبة بسم الله مُجْراها

تجري بقلبي في موج الغرام وفي ذيالك المَوْج مجراها ومُرساها

وربما هويت نفسي فأزجرها والنفس تُوتي فُجورها وتقواها

لولا الْهوى ما عرفْتُ اين ربته ولا عرفْتُ الْهوى العذرى لوْلاها

هي السوادُ لعيني وهْي قرتها وحبة القلب لم تبْرحْ سُويداها

فكري لعيني ان غابتْ يُمثلُها حتى كأني على انْس واياها

إلى أن قال :

لما تأمّلْتُ في بديع صُورتها عجبْتُ والله كيف اللهُ سوّاها

ان الملاحة جزء من محاسنها هي المليحةُ لفْظُها ومعْناها

إلى أن قال :

هذا وما هذه الا المحامدُ لا سلمى تغزّلْ وشبب لي بنُعْماها

ومن هذه الصور البديعة المجازية والاستعارات الجذابة قوله :

اهاجتك من الهوى وهج والنوى ذكرى وما الصب الا من تهيجه الذكرى

دع الْغيد وافْر الْبيد واللجج الْخضرا الى المنصب الاعلى ولو كان في الخضرا

إلى أن قال :

فلوْ كان في الازهار كان أقاحة ولو يشتري كانت أقاحتُهُ دُرّا
وللدر أنواع وهذا أرقُّــهــا وأصغرُها جُرما وأكبرُها قَدرا

ومن هذا الوصف الجميل الجذاب تخلص بعده ليجعل قصيدته هاته في الحكم يجسد فيها بعض صور العلاقات الانسانية والتجارب البشرية فقال :

ايا قلْبُ لا تغتر بالجاهل الذي تعرف بالْمرسى ولم يعرف المجرى
ولم يحتنك عزم الأمور وحزمها ولم يرْتضعْ من ثدي تجريبها درا

ومنها :

رويدك ان الصبر لم يحل طعْمُه لمستعمل الا اذا استعمل الصبرا
وان مزيد الشكر دون مشيئة به أنعم المولْى لمن لازم الشكرا

ومن جميل جناسه :

بُشْرى لدهر كان من حسناته وصل محا ماكان من هفواته
تمْحو ليالي هجره حسناتُهُ ليْــلاتُه تقْــتص من ليْــلاته

قالها عند قدومه سنة 1938 على المدينة المنورة برأس وفد الحجيج للصحراء والشمال المغربي آنذاك .

لا نستطيع الا ان نحد من اختيارنا فنودع هذه الباقات البارعة ، والتي تنبيء عن علو كعب منشئها لكننا نتفيأ ظلال مفلق آخر جعل من البيان محجته ومن البلاغة نهجه ومن التشبيه ميزته ، ومن الاستعارة أسلوبه ، ومن المجاز تعبيره ، ومن تجسيم المعاني مبدأه ، فطبقت شهرة شعره جميع انحاء الوطن ، ثم تعدته الى جميع المهتمين بالشعر من ابناء القارة

الافريقية انه ماء العينين بن العتيق ، ولد بالضفة الشمالية للساقية الحمراء حوالي سنة 1300 هجرية وتعلم بالصمارة ونال الاجازة في تجويد القرآن ، وامتهن قرض الشعر من سن الطفولة ، وبذا حكم كثيرون ممن تتبعوا شعر شعراء الجنوب المغربي خلال القرن الهجري الماضي ، بان ابن العتيق هذا نال قصب السبق في الغزل والمدح ، وان كان بعضهم يأخذ عليه عدم تنوع الأغراض ، بينما الشيخ مُربيه ربُّهْ المتقدمُ ذكره ، لم يترك غرضا الا ونسج فيه شعرا جيدا ، لكن حسن السبك وسلاسة اللفظ وجودة المعنى ضرب فيهما ماء العينين بحظ وافر ، وهذه النماذج الآتية خير دليل على تبرير هذا التصور ، اذ من شعره قوله :

عج بالركاب على الكعاب وسائل ... لِمْ لا تُقابَلُ بالقَبول وسائلي

أوما رأينَ لذكرهنَّ مَدامعي ... ما بين جار بالخدود وسائل

وعلام أسألهن في رق الهوى ... رفقا فلم أر من ترق لسائل

وأنا الذي لا أرعوى عن حبهن ... ولوْ رَدَدْنَ وَسائلي وَرَسائلي

إلى أن قال :

جهل العذول هوى الملاح فلا مَنى ... وعلمته فعصيتُ أمرَ الجاهل

إلى أن قال متخلصا :

قد ءان ان ادع الشواغل رافضا ... غير الامام الفاضل بن الفاضل

إلى ءاخرها وهي تناهز التسعين ، والمهم فيها انه قالها وعمره لم يتجاوز ستة عشر سنة ، وقد خصص جل شعره لمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل بيوت الشرف تبركا بهم وبجدهم ، وقد كان من بين أوائل الشعراء المغاربة الذين مدحوا

جلالة المغفور له محمد الخامس بمناسبة عيد العرش ، إذ شارك سنة 1934 فيه بقصيدة منها :

بشرُ الْمنى بك أشرقت أعلامُها ... يشدُو على فنن السرور حمامها
وحظائرُ الْعرفان منك تنسمتْ ... أرواحُها وتبسمت أكمامُها

إلى أن قال :

لله درك يا ابْن يُوسُف منْ فتى ... نجلتك للْغر الْكرام ذمامُها

ومنها :

وولي عهدك يقْتفيك فنفسه ... عنْ رسل مجدك يستحيل فطامها

وقد خصص جل شعره كما قلنا لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن على نهج القصيدة القديم تغزل ووصف وعثاء السفر ومشاقه ، ثم التخلص بعد ذلك ، وقد أنشأ ثمانية وعشرين قصيدة على عد الحروف اتبع فيها منهجا لم يسبق إليه ، فكتب عنه بخطه ما ملخصه :

جعل كل قصيدة ثمانية وعشرين بيتا بعدد الحروف ، وعدد القصائد ثمانية وعشرين وكل واحدة تبتدىء بحرف فيكون هو رويها مع ترتيب الحروف أيضا ، حتى اذا ما انتهت الحروف من بعد الحرف الذي يليه يرجع للالف ، وكل قصيدة في بحر ، وتختص بشمائل ليست في الأخرى ولما انتهت البحور الشعرية اعادها بالترتيب الذي سبق عليه أول الأمر .

فمثلا القصيدة الأولى في بحر الطويل وبدأ بيتها الأول بحرف الالف وهو رويها حيث قال :

أثار الْهوى بعْد الحبيب أداؤه　　فـوجْـدي به حق علي اواؤه
بأن ابْكي الربْع المحيل بجنبه　　فحتما على عين الُمعني بُكاؤه

والثانية بدأت بحرف الباء وهو رويها وهي في بحر البسيط حيث قال :

بأَدِي الهوى لمْ تُفدْ نجْوى مُؤنبه　　والدمْعُ يُوضح سر الْمسْتكن به
ثربْ او اعذرْ فما تجدِي عَذُولُ وفي　　أُذن المتـيِّم وقـرٌ عن مـثـربه

والثـالثة يبدأ البيت الاول منهـا بحـرف التاء ثم يكون هو رويها حتى اذ انتهت الحرف من بعده رجع لحرف الالف متابعا الحروف من بعده في بداية كل بيت ، وهـي :

تامتك من نفس الصباح سِناتُه　　والليل مسكرة الجفون نسماته
ثار اشتياقك لا ستياف عبيرها　　والطرف منه تناثرت عـبـراته

وفي حرف الثاء من بحر الخفيف قال :

ثوب العيس للرحيل حثـاثا　　محد جات فما اكتحلت حثاثا
جئت لما ان غادروا الربع قفرا　　باكـيـا اندب الديار الدمـاثا

وفي حرف الجيم من بحر الوافر قال :

جمال الحي نحو ابي عجاج　　تجوب البيد سابحة العجاج
حـملت لواعج الأشـواق لما　　تحـملت النواعج بالنعـاج

وفي حرف الحاء من بَحْر الرمل قال :

حي حيا بفـؤادي اصبحـوا　　قد تصباه المحيا لا صبحوا
خـيم الخـاطر انى خـيـموا　　ودنوا فـيـه وان هم نزحـوا

وفي حرف الخاء قال من بحر المتقارب :

خَليلَيَّ مِمَّ تَلْحَـيَـانِ أخَـا　　حجاً خَطَّ فيه الهَوَى نُسَخَا
دِثَارُ الهـوَى مَـا بِهِ مُـغْـرَمُ　　تدثَّرَ واسْطَاعَ أنْ يَفْـسَـخَـا

وفي حرف الدال من بحر السريع :

دله قلبي من تعــاطى الرَّدِ   طيف خـيـال زار من مـهـدد

ذَادَ سراه عن جفون الكرى   وفي يَدِ الشوْقِ رمَى مِقْودي

ومن حرف الذال من بحر الرجز :

ذَمِيلُ خوص الظاعنات اجلوذا   ولم يعـرج من حـدا واجـوذا

رفقا على رسلك يا حادي بها   ولا تدعها ويك تعد الهر مذا

وفي حرف السين من بحر المديد

سجعت ورقاء والليل غاس   فوق غصن بالنسيم مماس

شــد مــابت على طول ليلي   من هموم جلبتـهـا رقـاس

حرف الشين في بحر المضارع

شم البــرق من غـــواش   على الشب والحـــبـــاش

صـــحــابي قــفــوا بربع   بهـا داثر الحـــــراش

حرف الصاد في بحر المقتضب

صــاح عـاطني قـصـصـا   من يشــوقني قــصـصـا

ضــار شــوقــه فــعــسى   ان يكون لي قنصــــا

وفي حرف الضاد من بحر الهزج

ضناء اهتــــاج من ومض   لموح لاح كـــــــالنبض

طوى كـشـحى على جـمـر   وعن جــفني زوى قــمض

ثم قال في حرف الطاء من بحر الكامل

طلت وبين المنزلين شَحُـوطُ   والليل تسحب من دجاه مروط

ظلامة عدلت سريعا بالكرى   عني فسال عن الدموع عبيط

هذه نماذجها ، وكل واحدة اوصلها ثمانية وعشرين بيتا ، وكل واحدة ضمنها بعضا من معجزاته عليه الصلاة والسلام ، لم يذكرها في غيرها من القصائد الثمانية والعشرين .

والحقيقة ان ابناء الجنوب يعطونه هو والشيخ مُربيه رَبَّهْ المكانة الاولى ولم يحسم الحكم في التفضيل بينهما الى الان .

اما انا فبعد تتبعى لشعر تلك المدرسة رأيت ان حكما لا يقبل الطعن في التفضيل من الصعب ، لأن الشيخ مُربيه رَبُّهْ وابن ابوة وابن العتيق والشيخ شبْيهنا ، والشيخ مُحمد تقي الله والشيخ محمد الامام والشيخ النعمة ، وآبة بن عبد الاله ، واحمد فال بن محمد الامين والشيخ الطالب اخيار كل واحد منهم تفوق في مكان ، وفات اصحابه في يوم ليدركه السباق اثناء الطريق ، الا أن الشيخَ مُربيه رَبُّهْ اكثرُ منهم جميعاً انتاجا شعريا ، واكثر تنوع اغراض ، مع انهم جميعهم في المنزلة العالية من الشعر ، وإذا كنا لا نستطيع تتبع جميع النماذج التي تمكن القارئ المحترم من مبررات الحكم فإن ما سنستشهد به من شعرهم كفيل بإنزال كل واحد منهم المنزلة اللائقة به ، فمنهم من خصص شعره للمديح والغزل ، والتغني بالطبيعة مثل الشيخ شبيهنا بن الشيخ ماء العينين ، الذي حصر شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح والده ، ووصف المناظر الساحرة ومن نماذج شعره :

ما اهتز برق الغمام الشرق مضطربا	الا ومنه الفؤاد الواله اضطربا
فغبت في حب احزان لهيبته	فصار هيكلنا مثل الهباء هبا

إلى أن قال متأملا في أسرار الكون وعظمة الخالق :

هذى البراهين في الاكوان قاطعة تبدى شؤون طلاسيم الهوى ذهبا
وكل نشـأة غيب تلف غامضـة ما ضرها في جحود الحق منْ كَذَبَا
تسمو الى برجها المعهود طائفة قد عاهدوا الله عهدا ليس فيه ربا
فلن يُماري ذا الا الذي رُتقت منه البصيرة لا يرى لها نقبا
وجاهل الشيء قد يلفى مُعاديهُ اياك والجهل لا تكُنْ لتَنْتسبا

إلى آخر هذه التأملية ، التي مضى يصف فيها ، ما يجب على المسلم اعتقاده في المغيبات ، وشعره على شكل شعر فحاح العرب لمتانته وحسن أسلوبه ، الا انه يميل لغريب اللغة ، وهي ميزة لا يحبها كثير من الادباء اليوم ومن نماذج شعره أيضا قوله :

ألا ليْت شعري هلْ حبيبة عينيا وروحي ولُبي مُهجتي وفؤاديا
بأرض الأجاج أو بأرض وراءها تروح وتغدو لا تُجيبُ المناديا

إلى أن قال :

فردوا جمال الْحي ثُم تحملوا وساروا ذميلا دائما متدانيا

إلى أن قال مضمنا ابيات المجنون "قيس بن الملوح"

قطعن الفيافي بالقريض تداولا ترى ناشدا بيتا وأخر حاكيا
"على مثل ليلى يقْتُلُ المرْءُ نفْسه وإنْ كانْ منْ ليْلَى على اليَأس طاويا"

ومن مقوله يمدح والده :

أهاج رسيس الشوق مامنه سالفُ خيال لسلمى حين جاءك طائفُ
عشية لا أسطيعُ صبراً ولا بُكا فيُشفى الصدى عني اذن والحوارفُ

إلى أن قال مادحا :

وقال لسانُ الْحال هل لي من الهوى — طبيبٌ يُداوي ما تُكن السدائف

فقلْت اجلْ ان الطبيب من الأسى — مديحُ فتى تجبى اليه الطرائف

سراجُ الهداة المستضاءُ بنوره — عظيمُ الْمزايا للنقيض مُؤالف

محمد بن ابوة البوحسني

من اساتذة الاداب العربية في السمارة ومن المجيدين في جميع فنون الشعر وأساليب البلاغة ، وقد تنوعت أغراض شعره بحكم امتداد حياته على طول قرن وعشرين سنة فله ديوان في مدح الشيخ ماء العينين وغيره من مشاهير الجنوب ، وخلد مديحيات في جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه منها :

سرت بسُرُور الوامق الصب مهْد — فطاب له ديْدانُه العد والدد

وباتتْ ترى في الْغرْب شرقا بهيقل — مشارقُهُ في غرب جفْني توقدُ

فيالك منْ وصل سفير له الكرى — وحال سهاد دونه يتهجدُ

إلى أن قال :

أأحبابنا هلاّ ذكرتُمْ عُهودنا — ففينا لكُمْ طرْف الْوداد ومتْلدُ

رجا لرجا يرمي بنا كل عائث — فاسفارنا حرة والالبابُ سهُد

واجرامنا مجرى الاسا وخدودُنا — اخاديد دمع دائما يتخدد

إلى ان قال :

فلأن فلا نجفى بهجر ولا قلى — فعيداننا أجنى جناهُ المنضدُ

وفي كل انحاء البسيطة مُعلن — بايضاح فتح الْحق مُنش ومُنشدُ

وهاتيك أكمامُ البشائر ضحكا — لأن برز الملْك الامام المحمدُ

هُو الملجأ الكاسي بكل فضيلة — سُلالة امْلاك الملوك محمد

وقال في مدح المرحوم علال الفاسي :

أملت إمام بأن عرك ملال من حبها ما هكذا الأملال
ما حدت سنن الوداد وجدتي في الحب لا يبلى لها بلبال

إلى أن قال :

ولاّجُ كل كريمة خراجُها خريت كل مجاهل جوال
لَما تَألَّبَ إلْبُ كُلِّ ضَلاَلَة وَجَلاَ الصَّدِيقُ وَجَالَتْ الأَوْجَالُ
قَامَ الزَّعِيمُ بِشَعْبِهِ وَبِآلِهِ يَسْطُو عَلَيْهَا وَالضَّلاَلَةُ آلَ

ومن مدحه للشيخ مُحَمَّد الأَغْظَفْ أحد أقطاب العلم والجهاد في الصحراء المغربية :

هو الحب أن يصدق فبالب يعرفُ ولم يك دون الله للحب معرف
إليك انتدبْنا من بعيد تقودُنا طواريفُ شوْق بالمحبة ذرف

وقال في الصمارة :

في حرة السلوان حي دواثرا واذكُرْ هناك جهابذاً وجآذرا
دُور عفتْ وكفى بها معْمُورة شوقا فكيف بها يبابا داثرا

الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين من أشهر أدباء الصحراء المغربية ، ومن أجودهم شعرا وأكثرهم تعدد أغراض إذ أنشأه في الوصف والحنين والحكم والمديح والتغزل ، ففي الوصف قال في قصر الحمراء بالأندلس :

إن قصر الحمراء قصر جميل طاب فيه المغدا وطاب الأصيل
كل شيء تراه فيه أنيق فمياه تجري وظل ظليل

وفي الحكم قال قصيدة منها :

بدأت بسم الله استسهل النظما وأطلبُ من ربي ليرزقني الفهما

إلى أن قال :

وفرٌّ إذا الاحْداثُ سادواوان يسدْ شرارٌ فبطنُ الأرض خيرٌ لمن ثما

وقال في الحنين إلى الصمارة :

لا بدعَ إنْ حنَّ ذو لُبٍّ إلى وطن أوهاجه دارس الاطلال والدمن
عوجا على طلل محت معالمه هوج الرياح وصوب الصيب الهتن

وفي المديح قال عبد الله بن سيدي محمود الشنقيطي ابياتا ثمانية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مطلعها :

ما كنت مُذْ زمن ترجوه هذاؤه هذا شفيع الورى بشراك هذاؤه

فلما انتهت قال الشيخ محمد الامام قصيدة من تسعين بيتا قال في أولها :

حيث النبوءة تبدو لي منازلُها وحيثُ تُتلَى من التنزيل أنباؤه
وذا البقيع الا احبب به بلدا تُقضى به لا خي الحوجاء حوجاؤه

وله قصيدة في مدح محمد الخامس مطلعها :

حي المليك الذي بمجده اشتهرا محمد الخامس السامي عن الامرا
ذاك المليك الذي ما زال مرتقيا إلى سماء العلَى يسْمُو عن النُّظرا
وما سمعت من الصيت الجميل له يصدقُ الخُبْرُ مهما جئتَه الخَبَرا

وله يصف الطائرة :

الا فأعجبْ متى امتُطِيَ الهواءُ على جوفاء جؤجؤها هواء
لها في الصدر ان حميت اجيج وقيطلة يضيق بها الفضاء

الشيخ احمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين شاعر مجيد وكاتب بارع وله اشعار كثيرة منها قوله في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

كففْتُ انسجام الدمع فانهل وانْهمرْ　　وعاد عقيقا بعد ما كان كالدرر
وابدل مني من جوى البيْن والأسى　　سبات الكرى والنوم بالسهد والسهر

من هذه الطبقة الشيخ محمد تقي الله الذي اشتهر بسهولة قرض الشعر وحسن السبك حتى انه أخذ يوما سبعة كُتَّابٍ من أهل الأدبِ ومن شعراءِ تلك الجهة ، فقالَ لهُم كلٌّ يختارُ بحراً ورويا وموضوعا ارتجل له فيه قصيدة فكان يملى لكل واحد منهم بيتا ولا ينهي البيت الذي يكتب حتى يرتجل له البيت الذي يَليه ، حتى أكملَ القصائدَ السبعَ دونَ أن يَتَوَقَّفَ أحدُ الكتاب ، ودون ان تتم واحدة دون تمام الاخرى ، وهذه ميزة لم نقرأ ولم نسمع بمثلها تَأَتِّي لأي شاعر عبر تاريخ الشعر ، وقد قال قصيدةً ضمنَّها مئتَيْ نَوْع من أنواع البلاغة ، ونظمَ سيرةَ وحياة والده ، وألفَ شرحاً على ألفية ابن مالك واحمرار ابن بون ، إلا أن شعره ضاع بسبب موته صغيرا .

ومن شعراء تلك المرحلة الشيخ النعمة فهو عالم مؤلف له مشاركة في شتى المعارف ، ومن شعره قال في وصف الصمارة :

دخلت في اخبار كان وصارت　　منتدى للهيام والاحزان
نسخ الدهر آيها بكتاب　　محكم من تناسخ الملوان

ومنهم الشيخ الطالب اخيار بن الشيخ ماء العينين عالم ومؤلف ، ومن الشعراء المجيدين وكل شعره في مديح النبي صلى الله عليه وسلم وقليل من الغزل ، ومن أمثلة شعره قوله :

حَيِّ دورا عَهِدْتُ فِيْ جَلَهَاتِ ... وَيْنِ سَلْوَانَ دَارس الْعَرَصَاتِ
ان بالعدوتين منه لدورا ... أي دور عهدتها خفرات
في عرفانها لبثت مليا ... بعد رود بالسوح والعتبات
قل فيها تململي أو انتشار ... العبرات الغزار والزفرات
غيرتها قوم الرياح السوافي ... واعتوار الشهور والسنهات
سوف تنبى إن انبات عن خليط ... ذي غناء يسطو على اللزبات

إلى أن قال :

انما معني اللبانة مني ... في ادكار الربوع والخفرات
هو شوقي لخير كل نبي ... مركز الحق مجمع الخيرات

ومن جيد شعره قوله :

وافَتْك وافدةُ الخيال السَّاري ... تَفْري الدياجر من بعيد الدار
طيف يريك محاسنا من دونها ... شق السُّهُول وشقة الاوعار
من صوب تيرس نزهة الاقطار ... حيث ازدهت بسوابق الامطار

إلى ان قال :

وطن لا نبتغي به بدلا ... الا معاهد حضرة المختار

ومنها :

وقوامه وسراجه وحليه ... وحصونه من صولة الفجار
وشفيعنا يوم النشور وروحنا ... ورباحنا في تي وتلك الدار

ومنهم أحمد فال بن محمد الأمين ، الذي يقول في قصيدة يهنىء فيها الوطن برجوع محمد الخامس طيب الله ثراه :

بشرى لنا معشر الاسلام بشرانا ... كنا من الشجو امواتا فأحيانا

ومن شعراء تلك المدرسة ، الشيخ الفضيل الذي خصص شعره لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله:

حاولت مدحا به الأمداح تنحصر ... فعاقني حصرها فقلت ما الخبر
بعد التفكر في أنبائه زمنا ... فاه اللسان وقول الحق يعتبر
ياسين لو بلغ المداح ما بلغوا ... دون ابتدا مدحه قد تنتهي الفكر

ومن جيد شعره قصيدة قال فيها :

أَمَا وَلَوْ بَلَغَ الْعُشَّاقُ مَا بَلَغُوا ... مِنَ التَّذَكُّرِ وَالتَّهْيَامِ والطَّرَبِ
وَلَوْعَةَ النَّاي مِنْ ارْضِ الْمَشُوقِ ومِنْ ... حُسْنِ التَّرَنُّمِ بِالأَشْعَارِ مِنْ ذَرِبِ
وَنَصِّ عِيسٍ لَدَى الأَسْحَارِ وَاخِدَةً ... لِوَصْلِ خُودٍ ذَوَاتِ الظَّلْمِ والحَبَبِ
مِنْ كُلِّ بَهْنَانَةٍ جَيْدَاءَ مُنَعَّمَةٍ ... تَفْتَرُّ عَنْ بَرَدٍ ذِي الرَّتْلِ والشَّنَبِ
إِنْ جِئْتُهَا زَائِرًا قَلْبِي حُمَاطَتُهُ ... تَسْبِيهِ مِنْهَا وَفِيهَا غَايَةُ الأَرَبِ
لَهَا مُحَيًّا يُحَاكِي الشَّمْسَ بَازِغَةً ... فِي جُنْحِ لَيْلِ الدُّجَى وَهْيَ لَمْ تَغِبِ
مِنِّي وَلَوْ بَلَغُوا فِي الْكَوْنِ مَا بَلَغُوا ... مَا بِالْحَشَا مِنْ حَرِيقِ الشَّوْقِ وَاللَّهَبِ

لم نستطع إعطاءها الحيز اللائق بها لأننا أطلنا من الاستشهاد بالنماذج في بحث كهذا .

وإن هذه النماذج كفيلة برسم صورة صادقة عن شعر الطبقة الثانية من شعراء الصحراء ، وقد يلاحظ القارئ أن الفارق بينها وبين التي سبقتها يعتبر من حيث المدة الزمنية فقط ، لتشابه اختيار المفردات اللغوية واتحاد الأغراض ونمط الحياة .

المبحث الرابع ـ الطبقة الثالثة : "المدرسة الحديثة"

جل شعراء هاته الطبقة من الممكن أن يتم اطلاعهم وقراءتهم لهذا البحث ، فهم الذين أنتظر منهم الإضافة أو التكملة ، لأن الاعتراف بعدم الإحاطة وقع وهذا يستر حتى النسيان ، لأن جميع من سبقهم سيلاحظون ترك الكثير من مخلفهم الشعري ، لذا يبقى مطلوب منهم المساهمة في تخليد إنتاج أولئك القوم بالكتابة عنه ، وتمكين القراء منه .

سنكتفي بأمثلة قليلة من شعرهم وهم الذين أخذوا تعليمهم في الصمارة ، لكنهم أصبحوا على رأس الطبقة الثالثة منهم ماء العينين يحجب بن خطري حفيد الشيخ ماء العينين ، ويرى الكثيرون أنه من أكثر شعراء الصحراء قديما وحديثا إنتاجا للشعر ، إذ يكاد كلامه يكون موزنا حيث يعبر بالشعر عن إحساساته ، وقد أصدر عدة دواوين في الإشادة بأمجاد المغرب منها :

إن قطرا تسوده الأخيار لجدير تعنو له الأقطار
حيث فيك الإله كون قوما عمها العلم والحيا والوقار

وقال في مدح محمد الخامس :

رباط الفتح مأوى الوافدينا عليه ظاعنينَ وقاطنينا

إلى أن قال يصف حال الصحراء لما أخرج الإسبان منها جميع أهلها وطردهم إلى إقليم گلميم من جنوب المملكة فوصف تلك المأساة بقوله :

خرجنا أرضنا قهرا وفيها ضعاف مسلمين ومخلصينا
عن الشعب الوفي حملت كلا ثقيلا عنه لم تضعف يقينا
به المنفى السحيق اثرت حتى رجعت مظفرا حصنا حصينا

وقد احتفل المغرب سنة 1958 بعيد ميلاد ولي العهد آنذاك جلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله فقال يحجب في تلك المناسبة :

ايا من وجهه ابدا منير ويوم ميلاده عيد شهير
به الشعب الوفي له ارتياح يكاد به إليك هنا يطير

إلى أن قال :

مآثرك الحسان بكل آنٍ مدى الأيام يشهدها الضرير

إلى أن قال :

وبلغ للمليك اليوم منا سلامنا بالنيابة يا أمير
ولا ينسى جنوب القطر فورا رحى الأعداء فيه قد تدور

إلى أن قال :

وياتي قطرَه شبراً فشبراً تُرَافِقُهُ السعادة والسرور

ومنهم محمد سداتي بن الشيخ احمد الهيبة هذا من القلائل الذين اجادوا في قول الشعر المقفى ، وفي قول "الغناء الحساني" وهو أديب ذَكيٌّ ، وشاعر خنديذ ، قد نوع أغراض شعره حتى أصبح مشاركا في كل فن من فنونه فتارة يصف المجالسَ واخرى الحدائق ، وآونةً يحرضُ على الكفاح الوطني ، وهنيهة يتغزل والكل يجيد فيه .

قال يصف المجالس :

إن المجـالسَ للآداب مـأدبةٌ لاسيَّما مجلساً لأهْله كَرَمُ
من لم يقُل فيه الا ما يناسبه في سلك جَوْهَرة الآداب يَنتظمُ

وله يصف حديقة في شمال المملكة كان يطلق عليها آنذاك "جنة الريف" :

ياجنة الريف من سماك جنتهُ نعمْ ، فذالك يَبدو في مُسَمّاك
لاشكَّ أن الذي سمّاك تسميةً بجنة الريف يدري كيف سماك

وقال يصف مجلسا للشاي :

للـه روض راحـــة للانفس كالشهب لامعة خلال الحندس
فكأنما نور الأزاهر وسطه دُرر نُثِرْن على بساط السندس
والْورق تشدُو في منابر ايْكها والطل يبكي في الغصون الميس
رق النّسيمُ به وراق جمـالُه والماء راق نضيرهُ للمُحتسي
والشرب من راح الفُكاهة منتش والشرْبُ يزهو باختلاف الاكؤس
ما بَين أبيضَ ناصع أو أحمرٍ قا نٍ وأخضرَ بالنضارةِ مُكتسي

إلى آخرها

وسنة 1958 القت عليه السلطات الاسبانية القبض مع مجموعة من الوطنيين فحكمت عليهم بالاعدام وهم داخل الجزر الخالدات ، فقال قصيدة طويلة عصماء في منتهى الروعة مطلعها :

صبرا صحابي فالنجاح لمن صبر والحر يُعْرف بالشدائد والخطرْ
ومُقامكُم في الْخالدات مُخلّد مجداً لكُمْ والمجدُ أسْما مُدَّخَرْ

إلى آخرها :

ومن مُخَضْرِمي هاتين الطبقتين الشاعر محمد عبد السلام ابن الشيخ مفتاح قاضي طرفاية سابقا واحد المطبوعين الذين امتاز شعرهم بالسلاسة وحسن التعبير والوحدة البيانية الاخاذة ، فهو يصف بشعره حتى يضع بين يدك من خلال ألفاظه لوحة يخيل إليك من خلال عباراتها انك تلمح الموصوف مجسدا امامك من ذلك قوله :

عفا العرصات من وادي العظام — فضاح الشعب ذي الخشب العظام
فوادي أبي الكراع فملتقاه — بذي الْجفنات من جنب السلام
فذى الأثلات فالخبتين منه — فأودية الْجمال من الْخيام
كأن الربْع وهْو قديمُ عهد — جديد في عيُون المُستهام
ودمْعُ المُقْلتين فريدُ عقد — تقطع خانهُ سلْك النظام
ألا اصْدعْ بالتحيةِ والسَّلام — على الأطلال من عَبْد السلام

ومن وصفيَّاته :

دَقَّ المصيف علينا البابَ أوْ ولجا — فادنو الأداوي إلينا وافتح الفرجا
وارفع ملابسنا إلا الخفيف كفى — ما قدْ نوارى به من حره المهجا

وقال يصف طائرا يسمى "أبوبشيرى" :

رءاني في الطريق ابوبشير — فقابلني مُقابلة الْبشير
وكلمني لسان الحال منه — وحسبك من أخي ثقة بصير
بما حسبي به بيانا — وايضاحا لمبهم الامور

وقال يصف دارا بمكان سمى المجيبر فيّ نواحي الساقية الحمراء :

عج بالمجيبر كي ما نسأل الدارا　　فنستفيد عن الاحباب اخبارا

ان لم تر العين بالاطلال ساكنها　　قد ما تصوره بالذهن تذكارا

ومن افذاذ هذه الطبقة الشيخ ماء العينين لارباس ، من العلماء الاجلاء والشعراء المتمكنين وصافة بارع وقصائده في الفخر حسان حليت ببديع البيان وغزير اللغة ، من ذلك قصيدة يصف فيها امجاد المغاربة ، ويحثهم على الكفاح من أجل اخراج المستعمر الاسباني عن الصحراء لتلتحق بالوطن الاب المغرب ، ومن أولها الابيات الآتية :

بنى وطني لا زلتموا منزل الشعرى　　علواً وأولاكم من الخالق البُشرى

فما منكم الا تقي مشرف　　يحل مقام العز فضلا او القبرا

فانتم اباة الضيم بالله شمروا　　وللرشد فادعوا قومنا وضحوا الامرا

السنتم ترون المعتدي عاث ارضنا　　فسادا وفي أفعاله ارتكب المكرا

وشـرَّدَ من أبنائنا وَنَفَى لَهم　　وفي السجن زج الأبريًّا زرع الشرا

فعار على ابناء مغرب ترتضى　　حياة ذليل ذكره دنس العصرا

قد استعمر القوط الدنيىء بلادنا　　فمصَّ لباب الأرض واحتكر القشرا

وكم من نساء الحي ايم جيشه　　ودنس عرض البكر واختطف العذرا

إلى أن قال :

أيا رائدَ السلم المحب مَن حوى　　تراث ابيه المصطفى وبه أحرى

سنبقى وراء العرش أعظم كتلة　　موحدة ايمانها يغلب الدهرا

نحارب من يدعو لتفريق جمعنا　　وبالحق نوليه المذلة والخسرا

ومن جيد الشعر قوله في حنين وطني الى استرجاع الصحراء من يد المستعمر الاسباني قبل استرجاعها بفضل المسيرة الخضراء المظفرة :

انني يا بلاد رغم ابتـــعــــاد   عنك اشتاق كل شعب ووادي
فـحـيـاتي وقف عليك وأهدى   لَكِ مَـمْـحُوضَ عزتي ووِدادي
وإذا شن أي حـرب مـعـادى   ضد قومي لكي يدوم ابتعادي
لا أبالي فــانني الدهر أبقى   مـخلصـا للدفـاع عنك بلادي

وله وصفياتٌ رائعةٌ منها قصيدةٌ خلدَ فيها أمجادَ الأندلس وبكى عليهم وشخص الأسباب التي قادتهم الى المهلكة وكذلك عصماء استعرض فيها عظمة التاريخ المصري ، واخرى عالج فيها وضْعية الشعر الحر ، وباختصار فهو من اشعر أبناء الصحراء اليوم ، وله اخوانيات كثيرة ورحلات ووصفيات لجمال الطبيعة ، لم نستطع استعراض نماذجها لأنا أطلنا كثيرا في هذا البحث حتى أصبح مملا ، وعلى الجملة فان الشيخ لارباس من أكثر شعراء الصحراء اليوم ابداعا واجودهم سبكا واحسنهم لغة ، وقد أجاد المقارنة بين الشعر العربي والأدب الحساني .

ومنهم الاستاذ الجليل والشاعر الكبير من خصص جل انتاجه لقضايا الوطن حتى اصبح يسمى شاعر الوحدة فالشعر هو ابن بجدته انحدر من فحوله وشب وترعرع في مدارسه فلا غرو اذا كان له فيه القدح المعلى انه العالم الجليل والمبدع الماهر النابغة محمد الكبير العلوي ، الذي ستبقى اندية الشعر تتيه بروائع شعره القوي الجيد السليم فمن جيد شعره :

من العروبة قاصيها ودانيها ... لوحدة المغرب السامي تهانيها
هذا لَعَمْرُك ركنٌ من عقيدتنا ... قدْماً ومَرمى عظيمُ من مَراميها
ما أمة المجد الا أمة شرفتْ ... واعتز حاضرها الزاهي بماضيها
سما بِها الحسنُ الثاني فحقَّقَ ما ... كانت تتوق إليه من أمانيها

إلى أن قال :

يا أمة المغرب الْحر الكبير ألا ... هبى لأمجادك الغراء تحييها

ومن أحسن ماقيل في العرشيات التي تزامن وقتها بعيد المولد النبوي الشريف قوله :

عـيـد له عظم وعـيـد ثان ... ذو عـزة فكلاهُمـا ذو شـان
المولد النبوي اشرق ساطعا ... واضـاء بالاحسـان والايمان
فاطل عيد العرش في افق العُلى ... في برج يُمن طالع وامـان
فتجاوب العرش المجيد وشعبه ... في نشوة وتعانق العيدان
فليهنىء الحسن العظيمُ وشعبه ... ولْيَسْمُ مَغربُنا على البلدان
قالت وقد فتنت بغر بدائعي ... وبدرٍ ألْفاظي وسِحْر بياني
او ما يروقك ان تهيم بغادة ... هيفاء زان قوامها ردفان

إلى أن قال :

هيهات ماكلفي بتلك وانما ... لدفين اشـواقي حـديث ثان
قد همت بالعرش المجيد متيما ... بمآثر الحسن العظيم الثاني

هذا شاعر جدد أغراض القصيدة وألبسها من حلل البلاغة ما انزلها منزلة لم تكن لديها فلم يبق فن من فنون الشعر الا وضرب فيه رقما قياسيا .

وممن تطفل على هذا الفن كاتب هذه الحروف فحاولت معالجة بعض الأوضاع الاجتماعية كأوضاع العروبة ، وقضية فلسطين ووحدة المغرب العربي ، وبعض المديح في سيد الوجود عليه الصلاة والسلام ، وكذلك مدح أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله ، ووصفيات ، واخوانيات ، لكن لضيق الوقت فسأكتفي ببعض المطالع ففي قضية العروبة قلت :

حَوْرا تجيشُ بدمعةٍ هطلاء ... أسفاً لوقع هزيمة نكراء

إلى أن قلت :

عَمْرُو يئنُّ بجرح بكر مثخناً ... وكليب يلهو ميت الأحياء

إلى أن قلت :

ما سجَّلَ التاريخُ أبدَ من فتى ... يرجو مؤازرةً من الأعداء

وعن بعض الحالات الشاذة اليوم قلت قصيدة في الحكم مطلعها :

الشعر اسما مكسب الادباء ... والعلمُ أعظم مقصد العقلاء

إلى أن قلت :

هذي خصائص دهرنا فاصبر لها ... مُتمازجات بالدوا والداء

متناقضات بعضها من بعضها ... بتفاعُلِ السَّرّاءِ والضرّاء

وفي القضية الفلسطينية قلت :

صبرا على نكسات الدهر اخواني ... فالحرب يوم لنا ذا يومُها الثاني

وفي مدح سيد الوجود لي عدة قصائد ، وفي مدح جلالة الحسن الثاني نصره الله لي كذلك عدة قصائد منها :

جُلْ في سماء المجْد يُرشدْك القدر ... واقطفْ زهورَ النصر يصحبْك الظفر
وَاقْصُدْ بَعيدَاتِ المُنَى مَهْمَا نَأتْ ... كَمْ نلْتَـهَـا بدأبِكَ للسَّـهَـرْ
واسْدُلْ رداءَ العَدْلِ منْكَ علَى النُّهَى ... وَاسْكُبْ لِرَاحِ المَجْدِ فِي الدُّنْيَا مَطَرْ
سَيُرَدِّدُ التَّارِيخُ مَدْحَكَ مُنْشِداً ... لَحْناً لَهُ أَخْـلاقُكَ المثْلَى وَتَرْ

إلى أن :

قُدْتَ المسيرَةَ نَحْوَ وَحْدَةِ أمَّةٍ ... لَعِبَ الزمَانُ بِأهْلِهَا وَبِهِمْ غَدَرْ
فَتَجَرَّعَ الإسْبَانُ نَارَ هزيمَةٍ ... بَعْدَ الغُلُوِّ وَقَبْلُ جَيْشُكَ مَا انْدَحَرْ

وفي الحنين إلى الديار قلت :

ايا هضبة الشفان في ثَبَجِ اللوى ... بمنعرج حول الصمارة يشهد
اسائل عن اطلالها كيف حالها ... وكيف على هجر الاحبة تصمد

وفي مدح جلالة الملك الحسن الثاني لي عدة قصائد ، كما نظمت بعض الوصفيات ، وعالجت بعض الأوضاع الاجتماعية .

ومن الشعراء المجيدين الشيخ ماء العينين سيدي عثمان الذي اختيرت قصيدته لنيل جائزة من بين الجوائز التي اعطيت بمناسبة تدشين مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء .

والمرحوم ماء العينين ابشرنا الذي يمتاز بقرض الشعر العربي والحساني بشكل جيد جدا فمن شعره :

مضى زمن لا ارعوي ذاك انني ... يسامرني من يحل لي وطيب
بعيد الصبا قال النوى انت هكذا ... تفضل الى خي عساك تتوب
فَصَلَّيْتُ قَصْرًا رَكْعَتَيْنِ وَمَنْزِلِي ... قَرِيبٌ لأَنِّي فِي الْحَيَاة غَرِيبُ

والحقيقة ان في الساحة الآن مجموعة من الشباب سيحسب لها حساب عظيم في الشعر مثل الرصافي محمد معروف ، الذي يعرف اقليميا باقتداره على قرض الشعرين العربي والحساني وماء العينين النعمة وحسن سيدي عثمان ، وماء العينين الولي ، وماء العينين . ومن قيدومي هذه المدرسة الداه محمد الذي يقول :

عين السرور تفجرت في عيوننا   لقدوم عاهلنا المفدى الثاني
حل السرور مخيما ببلادنا   عمت بشائره على الأكوان

ومنهم الشاب ماء العينين شيبة الشاعر الذي سيكون له شأن عظيم في شتى فنون الشعر ، ومن أمثلة شعره قوله :

يامَن أعاد إلى الأوطانِ ما سُلبا   ووحد الشعب مقداماً وما رهبا
وقاد يعرب والاسلام يرشدهم   لما يعزز هذا الدين والعربا

وله يشيد بأمجاد الوطن المغربي :

نثر من المجد منظوم وَمُنْتَثِرُ   أَعَدَّهُ الملك للدنيا فتفتخر
سفر المفاخر من ارضى صحائفه   فيها يصاغ ومنها بات ينتشر
حسيبة العرق من ايام نشأتها   اثيلة بفنون المجد تأتزر

المبحث الخامس ـ الشعر الحساني "لغن"

هذا هو الموزون من الكلام الحساني ، وهو تعريف يطلق على اللهجة المحلية لجنوب المغرب "الحسانية"، ولعل هذا التعبير كان تمييزا لمن لا يتكلم العربية الفصحى ، والحقيقة أنها لهجة غنية بمفرداتها العربية ، وهي تترجم بصدق مشاعر عربية أصيلة ، إذْ أدبُها استمدَّ كلَّ ينابيعِه من لغة الضّاد ، فما يُوزَنُ منه يخدم نفس الأغراض التي خدمها الأدب العربي الأصيل ، ومكانة من يستطيع نظم ألفاظها على طريقة الموزون من تلك اللهجة يحظى بنفس المكانة التي يتبوؤها الشاعر العربي ، فيطلق عليه تكريما الشاعر تجاوزا ، ويتولى نشر فضائل قبيلته، أو من يستحق المديح من أبطال الجهاد ، أوَ مشائخ العلم ، وأصحاب البذل من الأغنياء ، إلا أن جله خصص لمديح العرش العلوي المجيد في الصحراء منذ نفي جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه هو وأسرته الكريمة .

ولقد لعب "المغنيون" الشعراء بالحسانية دورا طلائعيا في تأجيج الأفكار الوطنية ، وإلهاب المشاعر ضد الاستعمار الإسباني في الصحراء ، ثم ضد دعاة الانفصال ، ولا يمكن أن تجد شاعرا منهم إلا وله اهتمامات شاملة تجسد كل قضايا ومشاكل الأمة العربية والإسلامية .

إنَّ الإسهاب الذي أوصلني إليه اتساع الموضوع ، الذي كتبت عنه ، يحملني على تضمين نماذج موجزة جدا في هذا البحْث عن ذلك التُّراثِ الشعبيِّ الغَنيِّ بمَعانيه والأصيلِ

بتَعابيره ، والوطني في اهدافه ، والعربي باهتماماته ، وإلى القارئ الكريم صورة مصغرة عن أساليب أوزانه ، ونماذج من نصوصه على ان المقارنة بينه وبين نفس القصائد العربية سنتركها للمستقبل ان شاء الله .

بعض أوزان الشعر الحسّاني :

ان الضوابط التي يستعملها المنشيء لوزن المنظوم الحساني ، والذي أصبح يحمل تسمية الشعر تجاوزا ، اذا كانت تقترب من الضوابط التي يعرف عن طريقها حال البيت العربي ومدى استقامة وزنه او عدمها ، فان هذه الضوابط هي أيضا معروفة ومتوفرة لدى منتجي الاوزان الحسانية ، والتي قسموها الى تقسيمات رئيسية هي :

- ابتوت او ابتيت يختلف هذا التعبير بحسب الجهات ، اذ في الصحراء لا يعرف الا بلفظة "أبتيت" بينما في جهات أخرى من شنقيط يعرف بلفظ "ابتوت" ويجب ان يعرف ان هذا الفن يشترك فيه جنوب المغرب كله مع جميع القطر الموريتاني ، كما يقترب منه جدا بعض الآداب الشعبية في مختلف جهات الوطن وخصوصاً الأدبَ الشعبي بالمحاميد وورزازات جنوبَ شرق وطننا المغرب .

اما مقاطع هذا الفن فهي "الگاف" واشطره أربعة تختلف مصاريعها ، فالحرف الذي يقف عليه الشطر الاول ، يكون هو الحرف والنغمة التي يقف عليها الشطر الثالث ، والحرف والنغم

اللذين يقف عليهما الشطر الثاني يقف عليهما الشطر الرابع ، والكاف بكاف معقودة يمكن ان تمتد اشطره الى عشرين مثلا ، لكن لا يمكن ان تقل عن أربعة ، وفي نمط آخر تكون "الطلعة" وهي يشترط ان تبدأ بثلاثة أشطر متساوية القافية ، ثم يأتي شطر رابع يكثر ان يغاير الاشطر الثلاثة في القافية ، فيستمر الوزن هكذا شطر رابع مثلا قافيته مخالفة للاشطر الثلاثة والحرف الذي وقف عليه هو الذي يكون قافية ، تلك الوحدة الوزنية ، التي تعرف في اللهجة الحسانية "بطلعة" وأصبحت يطلق عليها أخيرا قصيدة حسانية ، وهناك كرزة أو تهيدينه ، وبما ان هذه الاخيرة تقل في انتاج الصحراويين فسأعفي هذا البحث من التعريف بها .

أما وحدة وزن هذا الفن ، فإنها تغاير أصناف العروض في الشعر العربي اذ الوزن الحساني لا ينظر فيه من حيث الوزن الا للمتحركين ، فبعد التعريف بالوحدة الوزنية أعلاه نحاول توضيح كيف يمكن ان نتعرف على سلامة وزن هذه الوحدة ، التي تسمى بالحسانية "تافلويت" وبالعربية "شطر" ان تلك الحركات التي تتكون منها "التافلويت" تتكون من حد أدنا هو أربعة متحركين ويسمى عندها احويويص ثم يرقى الى خمسة وستة ، وسبعة ، وثمانية وعندها يسمى تاما ، وقد وجدت أوزان كل واحد منها من متحركين ولكن ليست على شرط قياس تلك الاوزان .

هذه الحركات من أربعة الى ثمانية قيلت بكثرة في مختلف أغراض هذا الفن الغزل ، المديح ، الهجاء ، التفاخر ، التحريض

على الحرب ، البكاء على الاهل والديار ، الرثاء وبذلك فمن حيث الأغراض تبدو الوحدة كاملة ، مع الشعر العربي ، المقفى ان لم نقل بأنه مقتبس منه .

أما من حيث الوزن فإن ثماني حركات التي أشرنا إليها تزيد عنها أوزان الحسانية تارة فتصل الى عشرة كما في البَتِّ الكبير وهوَ من سَبعةٍ إلى عَشَرَة ، ويَليه الْبَتُّ التامُّ ثماني متحركات كما سلف ثم التيدوم من سبعة ، ولبتيت الناقص من ستة ، ثم "حثو الجراد" من خمسة ، أما احويويص كما تقدم من أربعة .

واذا كان التقاء الساكنين في العربية ممنوعا ، فإنه في الحسانية ، ليست قاعدة مقبولة ، ولكنه نطق حتمته مخارج حروف هذه اللهجة ، فأصبحت تسمعه وتجده عند الرجوع لحساب متحركي الشطر "التافلويت" ، فلا تحسب متحركا بين ساكنين ولم يظهره النطق به .

ومن جهة أخرى تتنوع الايقاعات الموسيقية الاوزان في الوحدات فتحدث عند السامع والحاكي والمنشيء نفس التباين الذي يحسه من ايقاعات نظم البيت العربي ، وبناء عليه اصطلحوا على اعطاء كل قطعة اسما معينا ، فقد تكون "التافلويت" تسمع حسب التعبير الذي أعطاه أساتذة هذا الفن مقطوعة المؤخرة ومصروفة الذنب وعندها تسمى أَكِلاَلْ ، واذ وقع ذلك الاحساس لكل الا شطر الاربعة يسمى "ابير" وعادة ينتهي بالتقَاء ساكنين في التافلويت الاولى ثم الثالثة وتكون الثانية سليمة من ذلك والثانية تشابهها الرابعة ، فهذا أكلال

وان تساويتا أصبحَ يُطلَقُ عليه "البير" ولم أجدْ مَن عرفَ البير بتعريف فني يستطيع الانسان ان يكتبه كقاعدة مضبوطة ، وقد يُطلَقُ عليه "تاترات" وهيَ وإنْ كانتْ شكلا منْ أشكال البير فإنها أضعف منه سَبْكًا ومثلها تيكادرين في التقاء السواكن في آخر التافلويت .

ومن أبحر أوزانهم "اسغبر" ويتألف من شطر من سبعة متحركين ، وآخر من خمسة فتتم وحدته في حدها الادنى من أربعة أشطر "تيفلواتن" ، الاولى سبعة ، والثانية خمسة ، والثالثة سبعة ، والرابعة خمسة .

وكلاهما هو وتاترات والبير يتألفُ في الحدِّ الأدنى من أربعة أشطر ، واذا امتد الى "الطلعة" فتكون على الطريقة التي تستعملُ أيضاً في البتيت ثلاثة أشطر قافيتُهم واحدة ، ثمَّ تربطُ بالطلعة في التفلويت الخامسة على حرف قد لا يوافق قافية "حمر" الطلعة الثلاثة ، فيكون هو القافية فتستمر على ذلك النمط التافلويت الخامسة على وزن الاولى والثانية والثالثة والسادسة على وزن الخامسة ، وتستمر على ذلك الايقاع الى أن ينهيها الشاعر "المغنى" إذْ لا يُشترَطُ عليه عدِدُ مُعَيَّنٌ من التِّيفَلْوَاتَنْ في الطلعة كما هو الشأن في القصيدة .

بعد هذا التقديم سأضرب نماذج قليلة أستعرض فيها كفان واطلع ، واكواليل بادىء ذي بدء أود أن أبين للقارىء الكريم أن هذا الفن أكثر انتشارا من الشعر المقفى ، وبالتالي فقد عبرت به كل شخصية عن عواطفها الوطنية فصاحب

القضـيـة الوطنيـة ، منذ قاد محـمـد الخـامس طيب الله ثراه ، وأسكنه فسيح جناته الكفاح لاستقلال المغرب ، ففي سنة 1956 تبـارى "المُغَنينْ" الشـعـراء بالحـسانيـة في مدحـه ونورد من ذلك نماذج قالها أحد أعلام الوطنية في مدينة العيون وأحد أبطال المقـاومـة وجيش التـحـرير أحـد قـواد قـبيلة الزرقـيين التكنيـة المجـاهدة كمـا هي حـال كل التكنيين صـرفـوا همـهم وحـيـاتهم وفعـاليـاتهم للجهـاد في سَبيل الوَطَن ، ومنْهُم المرحومُ الدَّوِيْهِي حَـسَنًا الَّذي تسلسل في بيت قـيـادة وضـرب المثل الاعلـى في الوطنيـة هو وأبناؤه وذلك يترجمـه أيام رجوع المغفور له محـمـد الخامس طيب الله ثراه بشعر حساني قال فيه :

حـــامــد مــلان يعــد مْنَيْنْ ... اصـبــا ع خـمس مـجـتـمـعين

مَـاخَـلاَّوْ لشَـعْـبُـو شِي شَـيْنْ ... علـيـــه الوقتْ امـنين أكس

جـعلو لو تاريخْ سَبْــعينْ ... وعْلى ذيكْ نْـزيدْ خَـــمـس

حَـبْسـوه وعَـايلتُـو عـامينْ ... ونْـزيـدْ عـــامْ ولا نَـنْـس

ومْنينْ رْجَعْ فـوّتْ شـهْـرينْ ... حْصلْ الاستـقلالْ فْـخَمْس

من مــارسْ عين ادك العينْ ... ورجـع وخطبْ فـيــه فْلَمس

أهـو خــامس كـــوم فلحين ... أحـــــتى ذيك أمـل مـلس

وأهل العـــزم الرسل زينـين ... خـمس والد عـــايم خـمس

حد الى حسدك يعدل فيه ... ودير علـى فـم خـــــمس

مــاهِ ملس فــالدنْيَ فـيــه ... ومــبـــوت أولا تـعكب مَلس

ومن أبرز شعراء الصحراويين في الوزن الحساني اليوم السيدُ مُحمَّد سالم الدخيل الذي كانَ منْ قادةِ جَيْش التحرير توارث الجهـاد أبا عن جد من ارومـة الشرف والجهاد والبذل

والكرم وحسن الفعال ، قبيلة الشرفاء الرقيبات سليلي مولاي إدريس فيما عرف الوطن من كفاح آبائهم وذويهم عن حوزته وتعلقهم بقيمه ، ما ينزلهم هامة المجد ، ويرفعهم على تيجان الفخر ، وَهمُ اليوم يَفخرون بشباب ناهض ، تَسلَّمَ قيادتَهم فطوَّرَ حياتهم وجسد نبوغهم ، ويرهن للعالم عن إخلاصهم لهذا الوطن وتفانيهم في حب الجالس على عرشه ، فأخذ يتضلع بحماس في مناهل الثقافات المعاصرة ، فلم يبق تخصص والحمد لله ولا جهة إلا ويطلبون فيها اليوم تحصيل العلوم .

إن من بين الوطنيين المجاهدين ، وهم كثر في تلك القبائل ، السيد مُحمَّد سالمْ ابْن الدْخيل شاعر باللهجة الحسانية ، ومن قوله في الحنين على الديارة :

مكان امــــور الزَّايگ ذاك	نبــغيــه اولاه عند حــاك
وامــور الگبل مــان شــاك	عن يَغْـفَــرْل يحـــجل
ومـــــور التل يالفكاك	كـــيف اخـــوت ذوك امل
واكتن ذل منهــا فــهــلاك	دار بامــــورن مــــتل
عاد اليوم الحاجل مختور	بَغْيُ فَـــدْلِيلِ مَــتْــول
حكم امــور الزَّايگ ومــور	الگبل ومـــــور التل

وله ديوان يمدح فيه جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ومن نماذج مدحه .

يمت مــــحـــمــــد طه	جـــان بكتـــاب امنينا
لا تـخـــــون ان اللـه	لا يحـب الخــــائنينا

وديوانه في هذا الموضوع كبير في مدح جلالة أمير المومنين الحسن الثاني مهيأ للطبع . ومن نفس المحتد الشاعر الحساني المجيد ، محمد ابن عبد الله ، من الذين تميزوا بالحنين على الديار بأسلوب أدبي اخاذ عند من يتذوق تلك اللهجة ، ومن قوله في الغزل .

لَمْ تَرَگْنِ فل نبغيه   وما سين ما عين فيه
شفت أُعْبَيْدَ الأَكِيفْ الهيه   من ووگفت انشيرل
اتكلب شور يگطَعْ بيه   سولت سؤال امگل
عز دومسر واعريش اماليه   أَعَنْ خيم كانت منزل
المنهم فبلد كان فيه   گال أنَّ اَبْلَدْهُم ج تل
غير اسمع خادم فخويم   گدعن دومس تذكرل
مزال اقبل والخيم   فبلده والعرش فبل

ومن قبائل الصحراء التي أنجبت شعراء بالحسانية قبيلة ءايةُ الحسن المعروفةُ بالوطنية والشجاعة والكفاحِ في سَبيل الوحدة الوطنية ، والتفاني في الدفاع عن مقدسات الاسلام وهي والزُّرْقيِّين من قبائل تَكنة ، والتي مثلتْ قمةَ الخصال الحميدة ، ومن شعراء ءاية الحسن بوگرين الحسن الذي قال :

الحمدُ للهْ عْلَى مْجيكْ   أنَّ ياالمليك اجازيك
وطول عمرك ونجيك   يبان مجد الوحدتن

الى آخرها :

ومنْ شُعراءِ نَفْس القبيلة السيدُ الاغظف بنُ بوشعاب "ءاية مكيوت" :

اولي لامـرا عليك السلطان | بالطاع من عند الرحـمـان
صـريح مـا فـيـه كـتـمـان | وسـوتَنْگال أوتـكرر
تم كلـول يـشـبـان | فـالحـاضـر وال منتظر
وفْـلانْ تحكـي لفـلان | عن يـحك لفـلان آخـر
خـبـر البيـعـة متـاصل كـان | مـا تدرس فلخـيـر وفـشـر
ورثوه كـمـانْ فْكمـان | فـالتـاريخ آل مـسطر

إلى آخرها .

وثم شـعـراء كـثـيـرون من أبناء دليم العـرب المجـاهـدين والمخلصين المكافحين من سطر التاريخ بطولاتهم وحضورهم في كلِّ العَمَل الوطني عَبْرَ التاريخ ، فـلا غروَ أن سَجَّلَ شـعـراؤهـم أمجادهم وشهامة العرش العلوي المجيد ، ونفس الشيء يقال عن العروسيين وأبناء تيدرارين وءاية موسى وعلي والزوافيط وءاية وسـة ويگوت ، ولا يغـفل جـانب أسـر شريفة مـثل تبـالت وفـلالة وجميع قبائل الزوايا وجَميع قبـائل تَكنة الأخرى من ءاية الجمل وءاية بلة وكل قبائل الجنوب إذا كانَ ضاقَ آخر هذا البحث عن استعراض شعر شعـرائهم باللغتين ، فإن العزم معقود على تأليف كتاب يستعرض المحطات الرئيسية من شعر ذالك الجزء من الوطن لإنصاف أبنائه بتخليد أمجادهم نظما ونثرا .

والإشارة الأخيرة التي يجب لفت النظر إليها هي أنه بفضل السيـاسـة الحكيـمـة التي اتبـعـتـهـا الدولة في المناطق الصحراوية ، انبثقت من جديد نهضة أدبية أذكت في النفوس حماس الرغبة في التعلم والاهتمام بإحياء المدرسة الشعرية

بنوعيها العربي القح ، والحساني الشعبي ، ونأمل أن توتي أكلها قريبا إن شاء الله ، بحيث تَتَسلَّمُ المنطقةُ مَنارةَ المشعل الأدبي الموفق للصواب بإذن اللّه .

هذا وإن من بيده إنتاج أو معلومات إضافية ننتظر منه بإلحاح أن يكتبَها ويَنشرَها لنستفيدَ منها ، أوْ يَمُنَّ علينا بها لنتولى نحن نشرها خدمة للصالح العام .

والله الموفق للصواب .

الخاتمة

نَرجو أن تَكونَ هذه الدراسةُ مُمهدةً لتتمات ، يَتأتَّى لنا الوقت الكافي لإعدادها حتى نتوسع في كل المواضيع التي تضمنها هذا الكتاب ، كما نتمنى أن تكون حافزا للباحثين والمؤرخين على دراسة مختلف الجوانب التاريخية والثقافية للأقاليم المغربيَّة الجنوبيَّة ، أمّا الآنَ فلمْ نتوفرْ على جَميع المعطيات التي تمكننا من الإحاطة بمختلف جوانب الموضوع لعدة أسباب تحاشينا سردها .

هذا وإننا تتميما للفائدة جعلنا هذه الخاتمة خاصة بموضوعين مهمين يعطيان إيضاحا كافيا للقارئ الكريم على النمط الإنساني والحضاري ، الذي أسماه كثيرون باسم : الحضارة المتنقلة في الصحراء ، والموضوعان هما : دور المحاكم في الصحراء ، وشؤون المرأة الصحراوية .

دور المحاكم في الصحراء المغربية

هذه الفقرة سنتكلم فيها على سير المحاكم من عهد دخول الاستعمار حتى سنة 1960 أي المدة التي قضتها المنطقة خارج التسيير العام للمملكة بسبب سيطرة الإدارة الإسبانية ، وقد وقفنا عند سنة 1960 لأنَّ في عَقد الستينيّات وأول السبعينيّات تَحَوَّلَ حكمُ المستعمر إلى سيطرة فعلية ، تدخلت في كل شيء ، كما أن هذا التعريف بالقضاء في الصحراء كنا كتبناه ونشرناه سنة 1967، ولذا فهو تعبير عن واقع اجتماعي

أصبح من ذكريات التاريخ . وعلى أي حال فإننا نقدمه للقَارئ الكريم كجزء من تنوير مداركه الثقافية حول هذه المناطق المغربية التي يجهل الكثير من شؤونها .

ان سكان الساقية الحمراء ووادي الذهب مع امتداد نحو الشمال يصل إلى الضفة الجنوبية من وادي درعة ، تعتبر منطقة تميزت القبائل التي تسكنها عبر التاريخ بحب إقرار العدل وتطبيقه عليها وسليقتهم تدفعهم لا شعوريا لمساندة المظلوم ، وإذا ما أردنا أن نلقي نظرة تعرف القارئ الكريم بمسطرة التقاضي خلالَ سَبْعين سنةً وتزيدُ من قَبْل الستينيّات فسيتطلب منا ذلك تقسيم الموضوع إلى شطرين :

1) قضاء البادية
2) قضاء المدن

لقد ظل اندماج المواطن المغربي في المجرى العام لحياة وطنه المغرب هو الموجه الأساسي للسَّيْر العامِّ لنَمَط حياةِ هذا المواطن ، ولهذا سارت جميع أطوار القضاء بالمَنطقة على تفسير المسطرة المطبقة على القضاء الشرعي داخل كبريات مدن المملكة مثل فاس ومراكش والرباط ، وإذا كان هذا القضاء ظل يتحرك منذ تحكم الاستعمار في المنطقة في فراغ سلطوي ، فإن تحكم روح الإسلام في المواطنين ، مكنته من الهيبة والاحترام وإلزامية التطبيق التي تضمنها السلطة لأي قضاء ، كما أن الخلفية الإلزامية لهذا القضاء ظلت مرتبطة بواجب طاعة ملك البلاد ، من خلال الرقابة الإلهية على ضمير كل فرد مَن

رعيته بتطبيق شرع الله في مملكته . وامتثالا لأوامر الدين الحنيف كانت الأحياء الصحراوية كل واحد منها لابد أن يبحث عن عالم متضلع في المذهب المالكي ، ثم ينصبه أهل حل وعقد ذلك الحي أو الأحياء الأخرى وأحيانا القبيلة ، فينصبونه قاضيا لحل مشاكلهم وعقد قران زيجاتهم ، وكلمته في غالب الأحيان تكون مسموعة ، ويُعتبر مَن خالف حكم الفقيه مُخالفاً لحكم الشرع ، مما يشكل إجماع الحي أو القبيلة ضده حتى ينفذ حكم الله .

وكثيرا ما يكون القاضي لا يمت إلى الحي والقبيلة المنصب للقضاء فيها بصلة قرابة دموية ، وعادة يتولى أفراد القبيلة أو أحد أغنيائها تأدية راتب الفقيه ، الذي في غالب الأمر يكون مدرسا لمن يحب التعلم من أهل الحي والقبيلة .

ولعل عدم انتماء القاضي لسلالة القبيلة ، وعدم ارتباطه معها بأي رباط قرابة ، ثم إذا تذكرنا أنها هي التي يدفع أفرادها راتبه ، وأضفنا ذلك إلى احترام جميعهم لأحكامه ، للمسنا مدى تحكم النظام وحب احترام الآخرين عند كل الصحراويين ، فامتثال أوامر قاضي الجماعة حسب نظامها القبلي ينساق له الأفراد طواعية وهروبا من المخالفة الدينية .

وعند ما ترفع النازلة إلى الفقيه ينظر فيها على ضوء النصوص الفقهية ، متقيدا بشدة بالمذهب المالكي حسب مصادره المتبعة في الصحراء ، وهي نفسها التي كانت مطبقة لدى جميع قضاة المملكة المغربية ، فمن حيث الشكل ينطلق

القضاء من القول المأثور « البينة على المدعي واليمين على من انكر[1]» وتتبع مسطرة الشهادة اللفيفية ، وعند عجز المدعي يلزم المدعى عليه باليمين ، وفي كثير من الأوقات يسمح بعض الأشخاص في حقهم خوفا من اليمين .

وليس للقاضي اختصاص محدود ، إذ ينظر في جميع قضايا الأحوال الشخصية والمواريث ، والقضايا المدنية ، والدماءات بكل أنواع ، ما يعرف اليوم بالقضايا الجنائية .

أما في الحواضر قبل 1912 فكان يتولاه إما قاض مقيم يختاره سكان المدينة بتفويض من الملك ، وإما يختاره القائد ، على أن يخبر السلطان بذلك ، فتقع التزكية ، فيصبح القائد مفوضا من طرف الملك ليتولى هذا الاختيار ثم التعيين بالاستشارة مع أعيان البلدة ، وبعد سنة 1912 أصبح القضاة يعينون بظهير خليفي من تطوان ، وتم اختيار مجموعة من أهل الوَرَع والعلم والاستقامة خلالَ الثلاثينيّات من هذا القَرن وهمْ :

- العالم الباحث المرحوم سيدي عثمان بن حسنا نائب قاضي القضاة بتطوان ، عُين على طرفاية والعيون والداخلة .

1) من فقهاء الصحراء من قال بأنه حديث شريف ، والثابت أنه من حكم علي بن أبن طالب رضي الله عنه .

- العالم الجليل الشاعر الكبير والمؤلف الماهر المرحوم الشيخ الفضيل بن الشيخ شبيهنا بن الشيخ ماء العينين والد كاتب هذه الحروف عين نائب قاضي القضاة بطنطان وزمور ، كما عين قاضي من أسرة بيد الله العلماء الأجلاء في الصمارة، ومحمد بن أحمد زايد ومن بعد أحمد فال بن محمد الأمين بالعيون . وزايدنا بن أحمد زايد بالداخلة ، وبعد وفاة الشيخ الفضيل المذكور عين في طنطان العالم الجليل ماء العينين العتيق ، وفي الخمسينيات ، وبعد وفاة سيدي عثمان بن حسنا عُيِنَ في طرفاية العالمُ الشاعرُ عبدُ السلام ابنُ الشيخ مفتاح .

وكان يساعد كل قاضي عدلان وناسخ ، وتصدر الأحكام بجميع الرقعة الصحراوية على نفس المسطرة المطبقة داخل المملكة المغربية ، ذلك أن سكان البوادي كانوا إذا استعصى عليهم حل نزاع يرفعونه إلى القاضي المقيم بأقرب مدينة إليهم ، وجميع هذه الأحكام سواء كانت من الداخلة ، أو باديتها ، أي كل وادي الذهب ، وسواء كانت من العيون أو الصمارة أو طنطان أو طرفاية ، فإنها تستأنف على يد قاضي القضاة بطرفاية لينظرَ فيها مجلسُ التعقيب الشرعي بتطوان ، ورغم أنَ الاستعمار الإسباني انشأ محاكم شبه عصرية على غرار ما اتبعه الاستعمار الفرنسي في داخل المغرب ، وكانت انشئت بالصحراء محكمتان : إحداهما في العيون والثانية في الداخلة ،إلا أن الصحراويين قاطعوهما ضمنيا من خلال عدم رفع شؤونهما القضائية إليهما ، لتحرجهم من استبدال القضاء الإسلامي بالقضاء النصراني ، ما عدا في حالة الجريمة

الكبرى ، وعند ما يبلغ أمرها للحكام الإسبانيين فإنهم يتدخلون، لكن تفرض عليهم الناس الالتزام بعلاج كل المشاكل وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، ولذلك فمدة الاستعمار الإسباني في الصحراء ما صدر فيها ولو حكم واحد بالقانون الإسباني ، حتى سنة 1958عند ما أخرج منها سكانها بسبب عمليات حلف «اكفيون» .

والأحكام التي يصدرها القضاة ليست هناك اجال محددة لقابليتها للاستئناف ، بل عند ما يصدر الحكم ولم يعترض المحكوم عليه فيه يصبح قابلا للتنفيذ ، اما المراجع المعتمدة فهي تحفة الحكام لابن عاصم ، والباب من المختصر لخليل بن إسحاق ، وقوانين الإمام ابن جزي وعند ما يصدر القاضي حكمه مكتوبا يجد نفسه ملزما بإصدار ذلك الحكم وفق مسطرة معينة هي : يصف النازلة المعروضة عليه وصفا دقيقا مع تبين حالة المتداعيين هل هما أصليان أم وكيلان ، وهل هما بالغان ، أمْ أحدُهما مَحجور ، وإن كانَ فيهما محجورٌ يبين مصدر نيابة المتكلم عنه ودرجة صحتها ، ثم يشرح بتفصيل حالة النزاع ، حتى يجعل القارئ يحس نفس إحساسه تجاه كل مشمولات الدعوى ، ثم يتعرض لشكل الملف منْ شهود وحجج وطرق الاستفسار والإعذار والتزكية والجرح وما إلى ذلك ، والآجال ، حتى إذا ما استوفى توضيح مسطرة الشكل يتعرض للموضوع ، مرتبا الأدلة حسب درجاتها استشهادا بالآيات القرءانية ، مستخلصا من تفسير ابن كثير وَالْخَازن والطبري أهم أحكامه في الدليل القرءاني ، ثم يتعرض لما أمكنه من

الأحاديث ، وبعدها الأصول والقواعد ، وهذه الأدلة عادة يكون التعرض إليها باختصار ، ثم يتعرض للنصوص الفرعية فيسهب فيها من خلال كتب الفروع المالكية والتعرض من خلالها لما تعرضت إليه من فتاوى الآيمة الآخرين، ولكتب النوازل المغربية ، والعمل الفاسي ، والرباطي درجة عالية في الاعتماد عليها أثناء تحرير منطوق أي حكم ، ثم ينطق بصيغة الحكم .

وعادة عند ما يطلب من القاضي كتابة حكمه ، يتصل الأمر بمكانته العلمية فلا يألو جهدا في إصدار حكم يعبر عن علو مكانته العلمية . وهكذا ظل القضاء في الصحراء يترجم مغربية المنطقة ويبرهن على تحكم قواعد الإسلام والسلوك المستقيم في كل الصحراويين .

دور المرأة في الصحراء

تلعب المرأة في الصحراء دورا طلائعيا بجانب الرجل ، فلها مكانتها وعليها واجباتها ، تهتم بشؤون البيت بمفردها ، وتساهم في توجيه الحياة العامة ، تدرس مع الرجل وهم صغار، وتنظم حياة الأسرة الخاصة ، فما تخلفت عن أداء رسالتها في مختلف أطوار التاريخ . فإذا ما حاولنا التذكير بحياة المرأة عبر الماضي ، فإننا سننطلق إلى ذلك من التوضيحات الآتية :

1) عند ما تبلغ البنت الصحراوية سن التمييز يتحتم عليها ارتداءُ الزيِّ التقليديّ للصّحْراويات ، فتأتزرُ «بالملاحف» حسبَ

اللغة الحسانية ، فيجب عليها أن تستر جميع أجزاء جسمها إلا ما يسمح به لها الإسلام مع المحافظة على جسمها ، ورغم ممارستها لكل أشغال البيت وإكرام الضيوف ، فلا يمكن أن يسمع لها الزائر صوتا ، إلا إذا كانت وحيدة في بيتها أو مع صبيتها الصغار ، فإنها ترد تحية القدوم للزائر ترحب به ، وعادة يكون خطابها له من وراء حجاب .

2) ظلت المرأةُ قبلَ الستينيّات تتقاسمُ معَ الرجل العملَ في شتى مجالات الحياة ، ولذلك يمكن أن يقال عن نساء الصحراء أنهن محافظات ولسن بخاملات ، فيحسن إعداد شؤون المنزل وتسييره ، وحتى تكوينه من نسيج وخياطة ، وإعداد الملابس لكل أفراد الأسرة ، ففي البيت لا يعرف الرجل أي شيء عما بداخله، فليس عليه إلا استجلاب المؤن ، والتنمية التي تساهم بجنبه فيها ، لكنها تنفرد بما يعد داخل البيت ، فما عليه سوى إخبارها بعدد ضيوفه والجلوس معهم وإحسانه عليهم بالمباسطة والحضور إلى جنبهم ، أما قراهم فتتولى المرأة جميع أطوار إعداده ، حتى يقدم إليهم ، فكل شيء في بيت الأسرة تتصرف فيه المرأة ، وليس للرجل إلا المراقبة من بعيد ، وهن يحسن الأعمال اليدوية كالنسيج والخياطة ، وبعضهن يشاطرن الرجل في تربية الحيوانات وتعاطي التجارة كأختها المرأة الريفية في شمال المملكة ، ومنهن من عرفت بحكمتها السياسية وذكائها الخارق ، وتمتاز المرأة الصحراوية بالشجاعة واغراء الرجل على محو العار ، وهي عبارة تستعمل عند كثير من الأسر تحريضا على أخذ الثار ، وعدم الاستكانة للذل .

وتحب المرأة الصحراوية الحرية وتتعطش لها ، فلا ترضى المرأة لزوجها أن يجلس في البيت وقبيلته تتعرض لظلم الغير ، أما مواجهة المد الاستعماري وما تطلبه من جهاد في سبيل اللّه لصده ، فإن المؤطر الحقيقي لمواجهته كن هن النساء الصحراويات ، وعند ما سيطر الاستعمار أصبحن محرضات دائما على التوجيه للخروج من جحيم حكمه ، فقدن المظاهرات ، وشاركن في الاجتماعات ، وسلطن الاذاية المؤلمة على من إتهم بالتعاون مع المستعمر ، فالنساء الصحراويات اشتركن في النضج السياسي واختلفن في التخصص ، فمنهن المثقفات والتاجرات والفلاحات والكسابات فكل الأعمال ضمن المهن المتوفرة في الصحراء تتعاطاها النساء .

وقد اشتهرت المرأة الصحراوية بالكرم ، فلم يعرف الملاحظون في هذا العصر ولا الباحثون في ملفات التاريخ القديم والحديث امرأة أكرم من المرأة الصحراوية ، فإذا كان لكرم المرأة العربية والمغربية منها على الخصوص حكايات كثيرة حفظت كثيرا من أعمال البر كتبت في سجل المرأة العربية المسلمة ، فإن المرأة المغربية في الصحراء ليس لكرمها حدود ، فلا يمكن أن تقف يدها عند حدود في مال زوجها أو أبيها أو أخيها أو ولدها ، فهي لها مطلق الحرية والرشد فيما فعلت ، فما سفهت قط امرأة على مال أعطته ، أو صفقة أجرتها في مال أحد أقاربها من الدرجات التي ذكرت ، وإلى ذلك الكرم أشار عمنا العلامة الكبير مؤرخ الصحراء الشيخ محمد الإمام ابن الشيخ ماء العينين بقوله : « وإذا نزل ضيف عند أسرة

صحراوية في غيبة الرجل ، فلهن - أي النساء - أن يفعلن من إكرامه ما يفعل الرجل لو كان حاضرا ، ويقبح عندهن التقصير في معاملة الضيف وإكرامه ، ويضربن لذلك مثلا يقلن فيه : «إذا كان الأسد يقتل حتى اللبؤة تقتل ، ويفتخر الرجل إذا كانت زوجته تسد مسده في غيبته» .

هذا بعض ما كتبه العالم الجليل الشيخ محمد الإمام عن المرأة في كتابه الجأش الربيط ، وهو أول توضيح لمكانة المرأة تكتب متميزة في الصحراء المغربية .

ويجب أن يدرك القارئ الكريم أن النساء الصحراويات شعرن بواجبهن من قديم وقمن بما عليهن ، وحاولن الخروج من الخمول الذي عرفته المرأة على إثر انهيار الحضارة الإسلامية على امتداد الرقعة العربية والأندلسية ، حيث أعطت الحضارة الإسلامية عالمات وشاعرات ومفكرات ومجاهدات قدمن المثل الأعلى في العمل من أجل أضخم المكاسب الإنسانية عبر الحفاظ على الشرف من خلال استقامة السلوك ، وهذا هو الدور الذي تاقت إليه نفس المرأة الصحراوية خلال القرنين الماضيين وأول هذا القرن ، فعندما تراجع تاريخ نساء تلك الجهة ترى أن سجل أمجاد الساقية الحمراء ووادي الذهب ومنطقة تكنة وآيت باعمران حافل بعطاءات مشرفة لنساء عززن مكانة الرجل في الكرم وتدبير شؤون المجتمع وصنع الجميل والدفاع عن الحرية والكرامة ، فبجنب الرجل كانت المرأة دعامة أساسية ساهمت في شتى مظاهر تدبير شؤون الحياة في جميع الميادين الاقتصادية التي شاطرت الرجل عمله فيها ، من

تنمية حيوانات ، وعمل فلاحي ، وتسديد مصاريف البيت التي تنفرد بها كما أسلفنا ، ومراقبة المداخيل العامة للأسرة . فما يقوم به الرجل من أعمال وتدابير تساهم فيه المرأة صحبته مساهمة فعالة .

وقد انتبه العلماء والمفكرون ووجهاء القبائل لهذا المجهود مبكرا ، مما جعل بعض العلماء والقضاة وشيوخ القبائل يحكمون لها بقسط من الثروة ومشمولات البيت عند نزاعها مع الزوج الذي كانت تعمل بجنبه ضمن مجهودات دائمة للمرأة لا ينفرد الرجل فيها بشيء سوى ما يقوم به من تدبير خارج محيط مقر السكنى ، كالسفر البعيد بحثا عن المال ، وما عدا ذلك فهي بجنبه في كل شيء ، مع أنها تنفرد هي بأعمال البيت الصحراوي المتنقل من غزل ونسيج وخياطة ، وإقامة البيت وتتبع صيانته ، وترتيب فراشه وأدواته .

أما عن وسائل تزين المرأة فهي موحدة من مراكش جنوبا ، إذ اللباس مشتبه إلى حد ما ، والحلي متحد من كلميم جنوبا وخصوصا ما تعده الصناعة التقليدية بتلك الأقاليم التي أغنتها مهارة صناعها بإعداد نماذج من الحلي غاية في الروعة والجمال والأناقة .

والمرأة الصحراوية لا تتمرد على قواعد الإسلام ، لكن جل الأسر المحترمة في الصحراء يمنع لديها تعدد الزوجات تمسكا بحكم الشرع من خلال عدم قبول الزوجة به ، ولا يرضى المجتمع الصحراوي المغربي بأن يسيء رجل ما إلى المرأة حتى ولو كان من أصل متواضع ، فهي محل احترام وتقدير من طرف الجميع .

أما المرأة اليوم بفضل السياسة الرشيدة لصاحب الجلالة، فإنها أخذت مكانتها في الجامعة ، وفي المصحة ، وفي المحاماة وفي التعليم والهندسة والحقل الفلاحي ، والممارسات السياسية والاجتماعية والثقافية ، والاقتصادية ، بكل كفاءة ووعي وجرأة وتحمل ، فقد بيضن وجه المغرب بدفاعهن عن مكتسباته ، وعلى كواهلن تقع مسؤوليات إعداد أجيال الغد ، على مستوى تطلعات البلاد ، تقدما مستمرا ودينا محفوظا ووحدة دائمة وعطاء جسيما ، حتى تبقى الصحراء بحول الله فردوس المغرب جمالا ووعيا وإخلاصا وإيباء وشمما ترعاها همة عاهلنا المفدى أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله وأيده وأقر عينه بولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه الرشيد المولى الرشيد وسائر أفراد أسرته الكريمة إنه سميع مجيب .

إلى هنا نكون أنهينا ما أمكننا جمعه من تاريخ قبائل الجنوب المغربي ، ولقد حاولت أن أجمع المسائل التاريخية التي لم يتناولها الكتاب قبلي .

وإنني أسدي الشكر الجزيل والتقدير الكامل لأستاذي الجليل مؤرخ المملكة العالم المتمكن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور الذي شجعني وأكرمني بطبع هذه المعلومات التي رجوت بها خدمة ذلك الجناح من المملكة المغربية والله أرجو أن يجعله خالصا لوجهه الكريم إنه سميع مجيب .

المؤلف حمداتي شبيهنا ماء العينين

فهرس الكتاب

مقدمة الكتاب 5

الفصل الأول : مختلف أصول سكان الصحراء المغربية وحياتهم الاجتماعية 11

المبحث الأول : أصل قبائل الصحراء 12

المبحث الثاني : في الأصول المنحدرة من غير صنهاجة 18

الفصل الثاني : التعريف بمختلف قبائل الصحراء المغربية 28

المبحث الأول : التعريف بالشرفاء الرقيبات 29

الفرع الأول : نسب الشيخ سيدي أحمد الرقيبي 29

الفرع الثاني : التركيبة الاجتماعية لقبائل الرقيبات ومكانتهم في المجتمع الصحراوي 45

المبحث الثاني : قبائل تكنة 64

الفرع الأول : معلومات عامة 64

الفرع الثاني : التعريف بتكنة 75

الفرع الثالث : الخصائص العامة لتكنة 92

الفرع الرابع : كيف استفادتْ قبائلُ تكنة من دورها التجاري 98

المبحث الثالث : عرب المعقل 105

الفرع الأول : قدوم عرب المعقل على المغرب 107

الفرع الثاني : سبب قدوم عرب المعقل إلى المغرب 109

الفرع الثالث : مَن سكنَ الصحراءَ من عرب المعقل (بنو دليم) 115

المبحث الرابع : القبائل المنفردة 125
الفرع الأول : قبيلة الشرفاء العروسيين 126
الفرع الثاني : قبيلة أهل الشيخ ماء العينين 133
الفرع الثالث : أبناء تيدرارين 147
الفرع الرابع : الشرفاء فلالة 152
الفرع الخامس : الشرفاء تبالت 154
الفرع السادس : قبيلة أبناء أبي السباع 156
الفرع السابع : قبائل يضمها مصطلح واحد ولا تنتمي لسلالة ولا لحلف 164
أ ـ اديقب 168
ب ـ أهل بارك الله 171
ج ـ أهل محمد سالم 173
الفصل الثالث : دور العرش والشعب في استكمال الوحدة الوطنية والحفاظ عليها 177
المبحث الأول : بداية الغزو الاستعماري 179
الفرع الأول : جهود العرش لوقف أي اتفاق أوربي استهدف سيطرة إحدى الدول الأوربية على الصحراء المغربية 180
الفرع الثاني : تصدي العرش لأي غزو استهدف الصحراء 190
الفرع الثالث : رفضُ الصحراويين التعاملَ مع الإدارة الإسبانية إلا عن طريق خليفة السلطان بتطوان 201

الفـرع الرابع : اندمـاج الصـحـراء في الوطن سنة 1956 214

المبحث الثاني : مواجهة العرش والشعب لمخطط محاولة الانفصال 229

الفصل الرابع : الثقافة الصحراوية 245

المبحث الأول : الطبقة الأولى 251

المبحث الثاني : الطبقة الثانية 263

المبحث الثالث : طبقة شعراء الساقية الحمراء 271

المبحث الرابع : الطبقة الثالثة «المدرسة الحديثة» 289

المبحث الخامس : الشعر الحساني «لغن» 299

الخاتمة 309

فهرس الكتاب 321

تحت الطبع

انبعـاثُ أمّــة

الجزء الثالث والأربعون

* * *

الوثائــق

المجموعة العاشرة

* * *

العلائق السياسية للدولة العلوية

تأليف عبد الرحمان ابن زيدان

* * *

ضريح محمد الخامس

تأليف عثمان عثمان إسماعيل

الجزء الثاني والثالث

* * *

أعلامُ المغرب العربي

الجزء السابع

* * *

فاس منبعُ الإشعاع في القارة الأفريقية

تأليف الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

* * *

إصلاح الجيش المغربي في القرن التاسع عشر

تأليف الدكتورة بهيجة سيمو



رقم الإيداع القانوني : 1565 / 1998
ردمك : 4 - 36 - 905 - 9981



نبذة عن المؤلف

حمداتي شبيهنا ماء العينين :

- وُلد بالمسيد بضواحي عيون الساقية الحمراء .
- تلقى دراسته على أكابر علماء الصحراء فحفظ القرءان وأمهات الفقه ومصطلح الحديث والنحو واللغة حتى حصل على العالمية التي أصبحت تعادل الليسانس .
- ثم سجل في كلية الحقوق بالرباط فحصل على الليسانس شعبة القانون الخاص
- حصل على دكتوراه الدولة في القانون المقارن بالشريعة من دار الحديث الحسنية
- انخرط في العمل الوطني سنة 1949 .
- ساهمَ بنشاط فعّال في مؤتمر أم الشكاك الذي أعلنَ دخولَ الصحراءِ في مقتضيات التصريح المشترك بين المغرب وإسبانيا ، ثم انتخب ضمن وفد قدم البيعة لجلالة المغفور له محمد الخامس .
- كاتب جميع المجلات والجرائد التي اهتمت بمغربية الصحراء .
- انخرط في جيش التحرير .
- دافع عن القضية الوطنية في عدة مؤتمرات وطنية ودولية .
- له عدة مؤلفات منها :

□ الصورية بين الشريعة والقانون □ تأثر مصادر الالتزام في القانون الوضعي بالفقه الإسلامي □ الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني □ مدخل لدراسات الحديث □ صنوف البلاغة في شعر الصحراء □ مدارس الشعر في الصحراء □ ديوان شعر

- وله أيضا أزيد من خمسين بحثا في مختلف المعارف .
- يشغل الآن مكلفا بمهمة بالديوان الملك
- عضو في ا
- رئيس فرع
- عضو مؤسس والسنغال .
- عينه أمير المؤمنين الحسن الثاني ايده الله ممثلا للمغرب في المجمع الفقهي الإسلامي بجدّة .
- رئيس غرفة بالمجلس الأعلى للقضاء .